موسوعة

عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

18

NOBILIS

موسوعة عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

السُّنَّة

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرِّج

موسوعة

عالم الأديان

كلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء الثامن عشر

السُّنَّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	: موسوعَـــة عَالَـــم الأديَـــان كُلّ الأديان والمَذاهب والفرَق والبدَع في العالم
إسم الكِتَاب	: السُّنَّـة
الجزء	: الثَّامِن عَشَر
المؤلّف	: مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب. مفرّج
قياس الكتَاب	: ٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	: بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	: NOBILIS
تلفاكس	: ٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	: ٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتَويات

الفَصلُ الأوّل

بينَ الوحدَة والتفَكُّك

الفَصلُ الثَّاني

السُنَّة وظُهورُ الفِرَق

الفَصلُ الثَّالث

فِي ظِلّ خِلافَةِ الأمَويِّين

الفَصلُ الرَّابع

فِي ظِلّ خِلافَةِ العبَّاسِيِّين

الفَصلُ الخَامِس

سيطَرةُ السُّلالات الإقليمِيَّة

الفَصلُ السَّادِس

فِي ظِلِّ حُكمِ الممَاليك

الفَصلُ السَّابِع

نصفُ الألفِ العثمَانِيّ

الفَصلُ الثَّامِن

فِي نِظَامِ الدُّوَل

الفَصلُ الأوّل

بينَ الوحدَة والتفكُّك

الشَّرِيعَةُ والحَياة في الإسلام؛ الإسلام وحدَة؛

المَلامِحُ الأولى للمجتمَع الإسلاميّ؛

المجتَمعُ الجَديدُ في الشـام؛ المجتَمعُ الجَديدُ في العـراق؛

إنعكاسَات الوضعِ الجدِيد عَلى مَصِير الخِلافَة.

الشَّرِيعَةُ والحَيَاةُ في الإِسلامَ

السنّة: تعني السيرة، والطريقة، والشريعة. ويُراد بها ما أثر عن النبيّ ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير أو صفة، وهي أصل من أصول الدين، توضّح القرآن الكريم وأحكامه، لأنّها تنصبّ على تفاصيل لم يعرض لها. فيها أحكام وردت في القرآن الكريم، وأخرى ثبتت عن طريقها. وما لم يثبت بها ولا بالقرآن، وجاء مخالفًا للسنّة والقرآن والقياس والإجماع، يعدّ بدعة. ولقد حفظ الصحابة السنّة ونشروها، وقام الرواة والمحدّثون بجمعها وتسجيلها، وبذلك نشأت "علوم الحديث". وأهل السنّة هم الذين يستمسكون بالمأثور[1].

والشريعة عند المسلم السنّيّ، هي "مجموعة القوانين الإلهية التي إذا تقبّلها إنسان، أصبح مسلمًا. والمسلم السنّيّ هو الإنسان الذي يطيع أوامر الشريعة باعتبارها أوامر ملزمة"...

إنّ الشريعة هي القانون الإلهيّ، بمعنى أنّها تجسيد لإرادة اللّه التي ينبغي للمرء أن يعيش بموجبها في حياته الخاصّة وحياته الإجتماعيّة. ومشيئة اللّه تظهر في كلّ دين من الأديان بصورة ما، وجميع الوصايا الروحية المتضمّنة في كلّ دين هي من أصل سماويّ. أما في الإسلام فإنّ تجسّد المشيئة الإلهيّة ليس مجموعة تعاليم عامّة، بل تعاليم

---

١ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، دار الجيل والجمعيّة المصريّة لنشر المعرفة والثقافة العالميّة (بيروت، القاهرة، تونس،٢٠٠١) ٣: ١٣٧٩.

محدّدة ملموسة. فالشريعة لا تأمر الانسان أن يكون محسنًا، أو متواضعًا أو عادلاً فحسب، بل إنّها تعلّمه كيف يكون محسنًا ومتواضعًا في حالات وفي ظروف معيّنة، أي أنّ الشريعة لا تكتفي بالأمر بل تعلن أيضًا السبيل، أي الطريقة... إنّ الشريعة تشمل وصايا الإرادة الإلهيّة كما ينبغي لهذه الوصايا أن تطبّق في كلّ ظرف من ظروف الحياة. إنّها الشريعة التي أرادها اللّه لكلّ مسلم كي يحيا حياته بموجبها. إذن، هي الدليل والمرشد في كلّ عمل من أعمال البشر. وتتناول كلّ ناحية من نواحي حياة الإنسان، فإنّها الدليل على أنّها تقدّس الحياة، وتسبغ على كلّ عمل يقوم به الإنسان صبغة دينيّة مهما يكن هذا العمل دنيويًا عاديًّا بسيطًا[1]، من هنا، يضحي "القرآن الكريم مصدر الشرع ودليل حياة الإنسان الواقعيّة، ومصدر المعرفة التي تستأثر بالحياة العقليّة الفكرية. وهو (القرآن الكريم) عالم قائم بذاته، يحدّد الإطار الماديّ والإجتماعيّ الذي يكتنف الإنسان، عالم يقرّر حياة الانسان، صيرورتها، ونضجها، وقوّتها، ومصيرها بعد الموت"[2]، وهكذا فإن "فصل السياسة عن الدين مناقض أساسًا للإسلام، وعزل الاسلام عن المجالات الإنسانية الأخرى، غير الدينيّة، هو بمثابة اعتراف بسلطة جديدة غير سلطة اللّه في منأى عن الإيمان المطلق، ما يُعتبر مناقضًا لمبدأ التوحيد، إذ لا يمكن توحيد المجتمع إلا باسم الإسلام وبواسطة شخص متمتّع بالصفات الدينية"[3]... لذلك، فإن "المسلم المسلم لا يمكن أن يقف من الدولة موقف اللامبالي، وبالتالي لا يمكن أن يكون موقفه من الحاكم والحكم موقفًا مائعًا يرضى بأنصاف

١ ـ نصر د. سيّد، الإسلام أهدافه وحقائقه، الدار المتّحدة للنشر (بيروت) ص٨٧.

٢ ـ نصر، الإسلام، مرجع سابق، ص٦١ ـ ٦٢.

٣ ـ ريشار ليان، نائب مدير قسم الدراسات الإيرانيّة في المؤسّسة الفرنسيّة في طهران، مجلّة "الحوادث"، العدد ١١٦٣ الجمعة ١٩٧٩/٢/١٦، ص٦١.

الحلول...، هذا موقف واضحٌ لأنّه موقف مبدئيّ هو في أساس الإسلام، واستطرادًا، هو في أساس عقيدة المسلم. وإنّ أي تنازل من المسلم عن هذا الموقف أو عن جزء منه، إنّما هو بالضرورة تنازل عن إسلامه ومعتقده، ذلك أنّ إقامة الدولة، كما يقول مفكرو الإسلام، والإضطلاع بالحكم والسلطة، جزء ضروريّ من الإسلام، لا يقوم إسلام المسلمين إلاّ به"[1]...

هذا المفهوم الواضح للدين الإسلاميّ، الذي يعتبر "دين حياة ودين اجتماع ودين اقتصاد ودين وطنية[2]" لا يقبل المساومة. و"بالنسبة إلى الشرع الإلهيّ، فالوضع يختلف في كلتا الديانتَين الإسلاميّة والمسيحيّة، فالإسلام لم يعطِ قطًّا ما لقيصر... بل كان الأمر على نقيض هذا، إذ حاول الاسلام أن يدمج ما لقيصر ذاته، نعني السيادة في السياسة والاجتماع والاقتصاد، في نظام دينيّ شامل"[3].

الإسلامَ

وِحـدَة

ما غفل عنه الكثيرون من المفكّرين والباحثين في موضوع الإسلام، أنّ جوهر الإسلام وحدة قبل كلّ شيء: الله الواحد الكلّ الأحد، ووحدة المجتمع في الدين. وبقدر ما كانت تتجلّى وحدة المسلمين في التاريخ، بقدر ما كانوا يسودون وينتصرون. وبقدر ما تفرّق المسلمون، بقدر ما تقهقروا.

---

١ ـ القوتلي حسين، مدير سابق لدار الإفتاء في لبنان، جريدة "السفير" البيروتيّة في ١٩٧٥/٨/١٨.

٢ ـ خالد الشيخ حسن، مفت سابق للجمهورية اللبنانية، المسلمون في لبنان والحرب الأهليّة، دار الكندي (بيروت،١٩٧٨) ص٢٤.

٣ ـ نصر، الإسلام، مرجع سابق، ص٨٩.

لم يكن في التجمّع الجاهليّ أيّ مفهوم مبدئيّ لوحدة القبائل. وجاءت الدعوة الإسلاميّة لتتوجّه إلى ضمائر العرب تنشد الدعوة التي توحّدهم، والناس كافّة، في إيمان أصيل وعقيدة مشتركة. ونرى الإسلام، في مختلف مراحل الدعوة وتعاليمها، هادفًا إلى الوحدة، وكان يهدر في سبيلها كلّ مظاهر التفرقة، ويطارد كلّ عوامل الخلاف حتّى يردّ المؤمنين به إلى حياة لا تعيش على دمائها الماضيات، بل تعيش على أمجادها المقبلات. ويقول باحث في هذا المجال[1]:

"ليس في وسعنا أن نفصل الحدث هنا عن وجهة الإسلام نحو الوحدة، وعمله فيها، منذ بدأت الدعوة. فنحن بسبيل من تصوّر الروح التي كان العرب قد انطلقوا بها، حين خرجوا من الجزيرة، تصوّرًا يمثّل لنا الجانب الاجتماعيّ الذي نحاول أن نجلوه. وليست المرحلة التي تسبق الفتح العربيّ على أهميّتها، بالتي نستطيع أن نفتّق القول فيها. فحسبنا أن نعدّد بعض الظواهر التالية في حياة الدعوة، مقتصرين على هذا التعداد، ثمّ نفصّل القول بعدُ في الظواهر التي اكتنفت حياة الفتوح.

"ففي حياة الدعوة تبدو مظاهر التوحيد التالية: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ إهدار الدماء التي كانت في الجاهليّة (خطبة الوداع)؛ الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة في نفي العصبيّة وإنكار الدعوة لها؛ تصفية أحقاد الجاهليّة.

"وقد اتّخذت هذه الظواهر، في حركة الفتوح، شكلاً عمليًّا جديدًا فوق الذي منحها إيّاه الرسول ﷺ. بمعنى أنّ حركة الانطلاق إلى خارج الجزيرة، كانت تطبيقًا وتمكينًا

---

١ ـ فيصل د. شكري، المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل، نشأتها، مقوّماتها، تطوّرها اللغويّ والأدبيّ، دار العلم للملايين، ط.٥ (بيروت،١٩٨١) ص٣٠.

لفكرة الرسول ﷺ وعمله في توحيد العرب ودعوة الناس، ومن أجل ذلك نلمح، في كثير من الأحداث، صورة من هذه الوحدة، وفي كثير من سير الحوادث أسلوب العمل لها. وتلقى في أعمال القوّاد والخلفاء هذه الاتّجاهات الرفيعة التي ترمي إلى صهر ما كان يحسّ الناس من فروق، وهدرِ ما كانوا يعتمدون عليه من عصبيّات، والتأليف بينهم تأليفًا تقوم فيه العقيدة مقام الدم، والمساواة مقام التفاخر، والتقوى مكان النسب، ووحدة الكلمة والاتّفاق مكان التشتّت والافتراق"[1].

ومن هنا لم تكن حركة الفتوح خيرًا من حيث انتشار الدعوة فحسب، ولكنّها كانت خيرًا كذلك من حيث أنّها كانت أسلوبًا للمزج بين القبائل واختلاطها، وتحطيم ما كان في الجاهليّة من حواجز تحوطها، وتجعل منها تلك الجماعة المغلقة. بل وكانت سبيلاً إلى التآخي بين أفراد المجتمع الجديد، لا في العقيدة فحسب، بل أيضًا في مواجهة الحياة واعتصار القوى في سبيل الدعوة والمشاركة في البذل والتضحية. فالجماعة الجديدة لا تشدّها مُثُلها العليا فقط، ولكن يشدّها أيضًا الكفاح المشترك من أجل هذه المثل وانتشارها. ولقد بدت الجزيرة، منذ أن انتفضت، منطلقة وراء حدودها، كأنّما أضحت أمّة واحدة، وكأنّما أُنسيت كلّ ما كان من خلافاتها، وغفلت عن كلّ ما كان من عصبيّاتها، وأزالت ما بينها من فَرق النسب والدم، والتقت في ظلال من الإخاء على دعوة واحدة تدعو إليها وتخرج من أجلها. فلم يعد يلمح المتتبّع لنشأة حركة الفتح وسيرها، تلك الجماعات الكثيرة التي كانت في الجاهليّة، وإنّما يرى جماعة واحدة تملأ عقيدتها ما كان بينها من فراغ، وتتيح لها غاياتها التي ملأت عليها نفسها، أن تتسكب وفق هذا النظام الجديد في مجتمع جديد وصفوف جديدة[2].

---

١ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل، مرجع سابق، ص٣٠ ـ ٣١.

٢ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل، مرجع سابق، ص٣١ ـ ٣٢.

المَلامِـحُ الأولَــى
للمجتمَع الإسلاَميّ

كانت حروب الرِدّة[1]، أولى الحادثات الكبرى التي هزّت المجتمع الإسلاميّ. وكـان نجاح الخليفة الأوّل في التغلّب على المرتدّين تصفية وامتحانًا وصقلاً وتثبيتًـا للإسـلام، ومدًّا لأطرافه، حتّى يدرك كلّ شواطئ البحر الذي يطوّق الجزيرة من أطرافها. كـانت تلك الحروب تصفية، لأنّها خلّصت الدولة الناشئة، في المدينة، من كـلّ الشـكوك التـي أثارها موت الرسول ﷺ والخوف من أن يكون في موت الباني تصدّع البنيـان. وكـانت امتحانًا لهؤلاء النفر من الصحابة والمؤمنين الذين تبعوا النبيّ ﷺ وأخـذوا عنـه، فكأنّمـا أراد اللّه أن يبتليهم ليبيّن مكان العقيدة من نفوسهم، ولتكون هذه الإبانة صـورة للإيمـان الـذي يمـلأ شـغاف النفس ويسـيطر علـى كـلّ منازعهـا. وكـانت صقـلاً لكلّ مقوّمـات الجماعة الإسـلاميّة فـي نظمهـا وفكرتهـا ووحدتهـا، فوضعـت النظـم موضـع التطبيـق، ووضعت الفكرة موضع التنفيذ، ووضعت الوحدة موضع الغـرض الأسمى فـي الحيـاة الجديدة. وكانت أخيرًا تثبيتًا للإسلام ومدًّا له، فقد بدا أنّ عمـل المرتدّيـن زعزعـة لهـذا الإسلام، وأنّ أطرافًا من الجزيرة لم تكن لُقّنت الدين كما لقّنته المراكز القريبة من مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، فكان لا بدّ من هذه الحركة قبـل أن ينطلـق العـرب مـن هنـا وهناك إلى الشام والعراق. وقد خلّفت هذه الحادثة آثارها فـي محاولـة تشـكيل المجتمـع الإسلاميّ. فإنّ تتبُّع الروايات التاريخيّة التي نُقلت إلينا، يصوّر لنا هذا المجتمع، وكأنّما اقتسمته طبقتان: طبقـة الذيـن ارتـدّوا عـن الإسـلام، وطبقـة الذيـن ثبتـوا علـى الإسـلام

---

[1] ـ حروب الرِدّة: عدّة معارك كانت نتيجة طبيعيّة لحركة المروق من الإسلام والانفلات من ربقـة أحكامـه، واجهـت الخليفـة الأوّل أبا بكر في مطلع عهده، أهمّها معركة عقرباء أو حديقة الموت التي قُتل فيها مسيلمة.

وحاربوا أهل الردّة، وتتميّز كلتا الطبقتَين، في أوائل تاريخ الفتوح في عهد الخلفاء الثلاثة، بألوان من الثقة بها أو الحذر منها:

ففي عهد الخليفة الأول، وقد كان أثر الجرح الذي خلّفه هؤلاء المرتدّون في جسم الدولة الناشئة لم يندمل بعد، شهدت السياسة الإسلاميّة لونًا من الحَذَر الحَذِر والدقّة الدقيقة في تقبّل المرتدّين واندماجهم في المجتمع الإسلاميّ، ويحدّثنا الشعبي أنّ أبا بكر "كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردّة حتّى مات"[1]. بل إنّ الخليفة الأول جعل ذلك جزءًا من سياسته الداخليّة وبرنامجه في الحكم فكتب إلى عمّاله:

لا تستعينوا بمرتدّ في جهاد عدوّ[2].

وكتب إلى خالد بن الوليد وعياض بن غنم:

ولا يَغزوَنّ معكم أحدٌ ارتدّ حتّى أرى رأيي[3].

وهكذا تكوّنت، في أطراف المجتمع الإسلاميّ، هذه الطبقة الجديدة: طبقة تذبذبت في إيمانها ذات مرّة، في فورة من الفورات التي تبقّت في أعماقها الجاهليّة، فكان لا بدّ من عقابها هذا العقاب الجماعيّ، وكان لا بدّ أن تُحرم نعمة السعادة أو روعة الشهادة، وكان لا بدّ لخليفة الرسول ﷺ أن يسير فيها سيرة صاحبه الكريم في الثلاثة الذين خُلّفوا.. ولكنّ الرسول ﷺ أوحى له أن يعفو عن الثلاثة، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت. أمّا الخليفة الصدّيق فقد استمرّ طيلة حياته، في كلّ غزواته وجهاده، لا يثق بهم، لا يُشركهم في جيش ولا يجمّرهم في بعث بل أن يوليهم عملاً. ويحاول وجوه

---

١ ـ الطبري أبو جعفر محمّد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، (١٨٧٩ ـ ١٨٨١) ١: ٢٤٥٧.

٢ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٠١٤.

٣ ـ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٠٢١؛ راجع الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

المسلمين وقادتهم أن يثنوه عن خطّته وأن يغيّروا من رأيه، فيخرج إليه المثنّى[1] ليخبره خبر المسلمين والمشركين وليستأذنه في الاستعانة بمَن قد ظهرت توبته وندمه من أهل الردّة ممَّن يستطعمه الغزو[2]، فيظلّ الصدّيق عند خطّته التي انتهجها "فلا يشهد الأيّام مرتدّ"[3].

وتظلّ هذه حالة المرتدّين: جماعة معاقَبَة تكفّر عن سيّئاتها بهذا اللون من النبذ والحرمان، حتّى إذا وُلّي عمر بن الخطّاب، وقد قوي أمر المسلمين وامتدّت قوّتهم وغابت في ضباب رقيق من الماضي ذكريات الارتداد عنهم والانقضاض عليهم، اتّجه بالمرتدّين وجهة جديدة. فلم يشأ الخليفة الثاني أن تظلّ هذه القوى معطّلة تفنى في قلقها وتذوب في أساها، ولم يشأ أن يحرم المجتمع الإسلاميّ ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدّين من اندفاع ورغبة في التكفير، فأذِنَ أن يشاركوا في الحرب، ورضي لهم أن يكونوا في الجند، ثمّ مضى خطوة أخرى فأذِن لهم أن يولوا بعض المراتب في الجيش، ولكنّه لم يُطمعهم في كثير... لا يطمعهم، كما يقول الشعبي، في الرياسة[4]، وإنّما يحدّ سلطاتهم بما دون المائة، ويكتب إلى سعد[5] "أن لا يولي رؤساء أهل الردّة على مائة"[6] ويضطرّ سعد، ليلة الهرير، تقيّدًا بسياسة الدولة نحو هذه الطبقة من الناس،

---

١ ـ المثنّى بن حارثة الشيباني (ت١٣هـ/ ٦٣٥م): من مشاهير القادة في عهد الخليفة أبي بكر، تعاون مع خالد بن الوليد في فتوح عدة واستشهد في إحدى المعارك.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢١٢٠.

٣ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٠٢١.

٤ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٤٥٨.

٥ ـ سعد بن أبي وقّاص (ت٥٥هـ/ ٦٧٥م): قرشيّ زهريّ، صحابيّ، خامس السابقين إلى الإسلام، أحد العشرة المبشّرة؛ راجع الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

٦ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٣٢٧.

أن يبعث قيس بن المكشوح، وكان من أولئك الرؤساء الذي نهي عنهم أن يوليهم المائة، في سبعين رجلاً[1] فحسب.

ومضى عهد الخليفة الثاني، والمرتدّون في هذا الحيّز الضيّق من المدى الإسلاميّ الواسع في المشاركة الاجتماعيّة، يعانون هذه الأزمة العميقة في نفوسهم، وهي أزمة مصدرها أنّهم يحبّون أن تضيع هذه البقعة الحمراء في الفيض المتدفّق من العمل الصالح، وأن تعوّض الخطيئة السابقة بالحسنات الكثيرة اللاحقة، ولذلك اندفعوا في الفتوح اندفاعًا مشرّفًا، وأقبلوا على الموت إقبالاً لا يعرف الهيبة، وانتدبوا فما كان أسرع ما انتدبوا. ويحدّثنا الطبري أنّ المثنّى أقبل على أبي بكر "يخبره أنّه لم يخلف أحدًا أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم"[2]، وأنّ عمر "ندب أهل الردّة فأقبلوا سراعًا من كلّ أوب فرمى بهم الشام والعراق"[3]. ومع ذلك فقد ظلّت هذه الطبقة، في عهد عمر، حشوة الناس، على حدّ تعبير الشعبي: "وكان رؤساء أهل الردّة في تلك الحروب حشوة الناس"[4]، لم تستطع أفعالهم المحدثة أن تقدّمهم فتضعهم في مقام الذين ثبتوا على الإسلام[5].

ويظلّل المسلمين عهدُ عثمان، ويقفز المرتدّون قفزة واسعة تنتهي بهم إلى الاندماج في المجتمع الإسلاميّ، وتنسدل أطراف من النسيان طويلة الذيل على قصّة الردّة. ويتعاون على ذلك عناصر ثلاثة: من فعل الزمن، وصلاح حال المرتدّين، وحلم

---

١ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٣٢٨.

٢ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢١٢٠.

٣ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢١٦٥.

٤ ـ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٤٥٨.

٥ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل، مرجع سابق، ص٤٢.

عثمان. ثمّ تكون الفتن في عهده من القسوة والشدّة بحيث تُنسى معها الفتن السابقات، ويُسقط عثمان عن هذه الطبقة آخر آثار العقوبات التي فرضها أبو بكر وكسر حدّتها عمر، "فيأذن باستعمال المرتدّين استصلاحًا لهم"[1]. ولكنّ الرواة يحدّثوننا في تتمّة الخبر أنّ ذلك لم يصلحهم، وزادهم فسادًا ما سادهم من طلب الدنيا، وأنّهم عضلوا بعثمان...

وحسبنا أن نلاحظ أنّ المجتمع الإسلاميّ في هذه الحادثة التي تلت وفاة الرسول ﷺ أوشك أن ينشعب في هاتَين الطبقتَين: طبقة الذين ثبتوا على الإسلام، وطبقة الذين شابت حياتهم قصّة الارتداد، وأنّه كان لذلك آثاره الواضحة في استعمال هذه الطبقة المرتدّة وفي الاستعانة بها، وفي إدماجها في المجتمع وانطواء المجتمع عليها. فإذا ذكرنا أنّ الارتداد شمل أكثر أطراف الجزيرة وأجزاء من وسطها، وأنّه لم يسلم منه إلاّ هذه المواطن التي شهدت نشأة الدعوة وازدهارها، إذا ذكرنا ذلك، أدركنا عمق الآثار التي خلّفتها الردّة في التمييز بين هاتَين الطبقتَين من طبقات المجتمع الإسلاميّ. غير أنّ الإسلام لم يقتصر على الجزيرة، بل جاوزها. ولم يعش المسلمون في هذا النطاق الذي كانوا يعيشون فيه، بل خرجوا إلى الأقطار التي غلبوا عليها، وشاركهم عقيدتهم بعضُ السكّان في تلك الأقطار، ولذلك لم يحتفظ المجتمع في الحياة الإسلاميّة بالتميّز بين طبقة الذين ارتدّوا والذين ثبتوا، فقد اتّخذت كتلته، بمَن انضاف إليها، أشكالاً جديدة، واضطرب هذا التوازن الذي قام عليه، فكان لا بدّ من محاولات أخرى في صياغته وتوازنه[2].

---

١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٦٦٨.

٢ - فيصل، المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل، مرجع سابق، ص٤٣.

هذا المعطى الجديد في توسّع المجتمع الإسلاميّ في نهاية الخلافة الثانية، بالشكل الذي انتهت عليه، مع مقتل عثمان[1]، كان لا بدّ من ينعكس على اختيار الخليفة الجديد أوّلا، وعلى ثبوته في الولاية ثانيًا.

المجتَمعُ الجَديدُ في الشـّـــــأم

عندما بويع الإمام عليّ عليه السلام في المدينة خليفة على المسلمين بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان، كان قد تكوّن في الأمصار مجتمعات إسلاميّة جديدة، سوف يقلب وجودها المعادلة السابقة في شأن مبايعة الخليفة. ذلك أنّ تلك المجتمعات كانت قد أصبحت تشكّل قوى كبرى، لا يمكن إلاّ أن تكون لها كلمتها، المباشرة أو غير المباشرة، في الميزان. وهكذا نلاحظ أنّ واقعة صفّين بين الخليفة المبايع في المدينة من جهة، وبين والي الشام معاوية من جهة أخرى، قد كانت في الواقع، وبحسب كافّة المدوّنات، معركة بين أهل العراق إلى جانب عليّ عليه السلام، وأهل الشأم إلى جانب معاوية[2]. وقد كانت النصرة، وإن بنتيجة التحكيم، لأهل الشام.

يقول باحث محدث[3] في نشأة المجتمع الإسلاميّ في هذه المنطقة، إنّ دراسته ليست مجرّدة للعلائق بين المسلمين الوافدين وبين السكّان الأصليّين، ولا تعرُّفًا مطلقًا للذي كانت عليه الأوضاع الإداريّة والماليّة والسياسيّة...فهذه كلّها، إنّما هي على نحو

---

١ ـ راجع: الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٣ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٥٩.

يساعد على التعرّف إلى ولادة هذا المجتمع الجديد الذي ستعيش فيه العربيّة ويتنفّس فيه أدبها، وكيف كانت الإستجابة له وما مدى هذه الاستجابة. وكيف كانت ألوان وطبيعة الصلات الأولى التي نشأت بين المسلمين وبين السكّان، لنتعرّف إلى ما كان من أمر التعريب، سواء في ذلك التعريب اللغويّ أو صلة القرابة القديمة، وإلى ما كان من أثر الإسلام وانتشاره وإقبال السكّان عليه، سواء كان هذا الإقبال بطيئًا أو سريعًا...

يقول الباحث:

أدرك المسلمون، منذ وطئوا هذه الأرض الجديدة، أنّ أمان الناس على أنفسهم وأموالهم أوّل ما يجب أن يشيع في نفوس السكّان وأن يملأ عليهم آفاقهم، فلا يعيشون في رجة الخوف أن تُجتاح أموالهم أو على موجة القلق أن تُنتزع أرواحهم، ولا ينقلبون إلى أرضهم إذا أصبحوا أو إلى بيوتهم إذا أمسوا قلقين مضطربين... فتحريرهم من هذا الخوف وإنقاذهم من هذا القلق يأتي في مقدّمة ما تهدف إليه الحركة الإسلاميّة، حتّى يؤوب إليهم أمنهم وتثوب إليهم طمأنينتهم، وحتّى يعيشوا في أجواء مسالمة لا يفسدها الرعب. وحين تتوافر لهم هذه الأجواء فإنّما تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والإعجاب بما يؤمنون به، وقد يكون الإعجاب طريقًا للمشاركة والوحدة. ومن أجل هذا كان أوّل ما كان في كتب الصلح المختلفة أن يعطي القائد أو الخليفة للسكّان الأمان على أنفسهم وأموالهم. جاء ذلك في كتاب خالد إلى أهل الشام[1] وفي كتاب عمر إلى أهل بيت المقدس، وفي كلّ الكتب التي كتبها غير عمرو وغير خالد في مدن الشمال في الجزيرة وفي مدن الجنوب في فلسطين. وبذلك استطاع هؤلاء السكّان أن يتنفّسوا

---

١ ـ ذكرنا في الجزء السابق (١٧) نصّ العهد الذي أعطه خالد بن الوليد لأهل دمشق إذ دخلها، وقد أعطاهم أمانًا على انفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء دورهم؛ راجع الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة؛ وراجع: البلاذري ابو بكر، فتوح البلدان، نشرة دي غويه، (ليدن،١٨٦٦).

في جوّ حُرّ، فليس للمسلمين من غرض فيهم، في أنفسهم ولا في أموالهم، لن يجنّدوهم ولن يتّخذوا منهم الأسرى ولن يحتازوا أموالهم.. إنّ لهم كلّ ما تتيح الإنسانيّة للناس من آماد الأمان، في كلّ شؤونهم. وقد كانت الأنفس والأموال إذن، في عُرف المسلمين، آمنة. الأموال كلّها مدنيّة تتّصل بالأرض والمنازل، ودينيّة تّصل بالكنائس والصلبان. والأنفس كلّها ضعيفها وقويّها، سقيمها وبريئها، وسائر ملّتها، فلهذه الأنفس جميعًا مكانها في المجتمع الجديد لا يُضطهد ضعيفها ولا يُهمل مريضها ولا تُنسى فيه حقوق ولا وجائب: "أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها"[1]. ولقد تدرّج كتاب الصلح الذي كتبه عمر لأهل إيلياء في ذلك تدرّجًا رائعًا بارعًا، فهو لم يقتصر على أن منح الأمن لسكّان البلاد وحدهم، لكنّه مضى في تسامح طلق، حتّى إنّه منح هذا الأمان لمَن شاء من الروم أن يبقى. ثمّ مضى خطوة أخرى في مثل هذا التسامح العريض فمنح هذا الأمان لمَن كان بينهم من أهل الأرض[2].

نشير إلى اجتهاد لنا حول هذا الموضوع[3]، وهو ما اتّضح لنا من فحوى كتاب الأمان الذي كتبه أبو عبيدة بن الجرّاح لأهل بعلبك، من أنّ الفاتح العربيّ المسلم قد أعطى أهل البلاد خيارات شبيهة بتلك التي كان قد أعطاهم إيّاها الرومان قبل سبعة قرون، والفارق بين هذه وتلك، أنّ الرومانيّ خيّرَ ابن البلاد بين اكتساب الجنسيّة الرومانيّة عن طريق تعلّم اللاتينيّة والخدمة في الجيش، وبين الإبقاء على الجنسيّة الأساسيّة مع دفع الجزية وعدم التمتّع بالمواطنيّة الممتازة؛ بينما الفاتح العربيّ، وهو

---

١ ـ من عهد عمر لأهل بيت المقدس، الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٤٠٥.

٢ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٥٩ ـ ٦١.

٣ ـ مفرّج طوني، لبنان الأصيل ليس طائفيًا، منشورات بيوغرافيا (بيروت، ١٩٩٩) ص٦٣ ـ ٦٥.

القائم بفتح دينيّ، قد خيّرَ ابن البلاد بين اعتناق الإسلام والحصول على المواطنيّة الممتازة، وبين الإبقاء على الدين الذي يعتنقه مع دفع الجزية والخراج وعدم التمتّع بالمواطنيّة الممتازة. وإذا كان كثيرون من أهل البلاد قد فضّلوا الخيار الأوّل مع الرومان، فلم يكن الأمر مختلفًا كثيرًا مع الفاتح العربيّ، ذلك أنّ المسيحيّين من أهل البلاد قد رأوا في الفاتح العربيّ منقذًا من الاحتلال الأجنبيّ، كما رأوا فيه قريبًا وابن عمّ، ورأوا في الإسلام ملّة مسيحيّة أخرى من الملل المتعدّدة التي كانت منتشرة في البلاد. فالله الأحد هو المعبود، وعيسى هو روح الله، ومحمّد ﷺ واحدٌ من رسله. بهذه البساطة استقبل أبناء البلاد المسيحيّون الفتح الإسلاميّ، وكثيرون منهم اختاروا الإسلام من دون تردّد. وعلى ما يروي المؤرّخون، نجد أنّ حلب قد سقطت في أيدي العرب سنة ٦٣٧، وأنطاكية سنة ٦٣٨، "بمساعدة أعوان من النصارى واليهود"[١]. وكذلك تمّ فتح حماة وسائر المدن في شمالي سورية وأواسطها. "لا بل إنّ بعضها رحّب بالفاتحين ترحيبهم بمخلّص ومنقذ"[٢].

وذهب سوانا[٣] في التعمّق بموضوع الروم في تلك الحقبة، فرأى "أنّ المسلمين لم يكونوا معهم، بعد أن وضعت الحرب رحاها، لا قساة ولا عتاة. وهم الذين جابهوهم بالحرب وقابلوهم بالقوّة. إنّهم كذلك لا يريدون عداوتهم ما دام غرضهم البعيد أن يتألّفوهم في دعوتهم وأن يضمّوهم إلى فكرتهم وأن يطووهم في دينهم. ويشبه أن يكون كلّ الذي فعلوه معهم أنّهم ألجموا فيهم قواهم المستعمرة الطاغية وردّوهم إلى الإيمان

---

١ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ منذ أقدم العصور التاريخيّة إلى عصرنا الحاضر، نشر مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص٢٩٢.

٢ ـ المرجع السابق.

٣ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص٦١ ـ ٦٢.

بكرامة الإنسان ومساواته، أعني أنّهم حقّقوا معاني التحرير التي جاؤوا بها.. ولذلك فإنّهم لم يُخرجوهم من سورية أسرى مقيَّدين، ولم يُدعوهم أرقّاء مستعبَدين، وإنّما تركوا لمَن شاء منهم الخروج أن يخرج، يحمل صورة للحرب والسياسة والخصومات لم يعهدها العالم من قبل في مثل هذا التسامح النادر، فقالوا في صلح إيلياء: "وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص. فمَن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتّى يبلغوا مأمنهم، ومَن أقام بيننا فهو آمن، وعليه مثل ما على إيلياء من الجزية"[1].

ووقف كتاب الصلح مثل هذا الموقف أيضًا ممَّن كان في إيلياء من أمم الأرض جميعًا، لم يهمل شأنهم ولم يدعهم فريسة لهذا الانقلاب، وإنّما أتاح لهم من الأمان ما أتاح لغيرهم: وهبهم هذه الحريّة التي وهبها للروم وللسكّان وآمنهم، فلهم أن يلحقوا بأرضهم أو يظلّوا في مكانهم أو يلتحقوا بالروم: "ومَن كان بها من أهل الأرض من قبل مقتل فلان فمَن شاء منهم قعد، عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومَن شاء سار مع الروم ومَن شاء رجع إلى أهله"[2].

لقد تمثّل الأمان الذي أتاحه الإسلام في هذه الصور الكثيرة: أمانًا على الأنفس كلّها وعلى الأموال كلّها.. ولم يكن أمانًا كسيحًا تغلّه القيود، بل كان أمانًا واسع الجوانب، بدا في إطلاق الناس وأموالهم وشؤونهم، وبدا كذلك في حريّة المهاجرة لهم: المهاجرة إلى هذه الأرض أو تلك، أرض الأعداء وأرض الأصدقاء، وشمل أنواعًا من الناس: الروم الطارئين أو مَن كان من أمم الأرض الزائرين.. بل لقد شمل أهل إيلياء أنفسهم "... فمَن أحبّ أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويُخَلّي بيَعَهُم وصُلُبَهم فإنّهم آمنون على

---

١ ـ من عهد عمر لأهل بيت المقدس: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٤٠٥.

٢ ـ نصوص مقتطفة من صلح عمر لأهل بيت المقدس: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٤٠٥ ـ ٢٤٠٦.

أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتّى يبلغوا مأمنهم".. هم جميعًا سواء في أن يفيدوا من هذه الحرية، إن شاؤوا خرجوا وإن شاؤوا بقوا، يبقون آمنين ويخرجون آمنين"[1].

وعلى أنّ الإسلام دين، فإنّه وقف من المسيحيّة في الشام موقف التحبّب والودّ. فقد كان يرى أنّ تفهّم الإسلام والإحاطة بالدعوة التي تقدّس الأديان السابقة، وتؤمن بالأنبياء الذين تقدّموا محمّدًا ﷺ، والتي ترى ذلك شرطًا في صحّة عقيدتها، تفهّم هذا الإسلام كفيل أن يكون مرحلة في التطوّر الدينيّ نحو تقبّله واعتناقه، والاندماج في أصحابه، ولذلك أمّن الناس في عقائدهم كما أُمّنوا في أنفسهم وأموالهم... فلقد كان شعار الإسلام أن لا إكراه في الدين، فلم يضطرّهم إلى عقيدته اضطرار القويّ، ولم يدفعهم دفع الملجئ، على حين كان من سيرة العالم آنذاك أن لا يتيح هذه الحريّة للناس في أن يؤمنوا بالذي يشاؤون إلاّ في أضيق الحدود.. أمّنهم على عقائدهم، وأمّنهم كذلك على كلّ ما يتّصل بهذه العقائد من مقدّسات وصلبان وكنائس، ووقف بذمّته بينها وبين "أن تسكن أو تهدم أو ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم"...[2]، وأباح لهم أن يستمتعوا بما يعتقدون في مدى واسع من الحريّة فلا يتطلّع إليهم أحد بإكراه ولا ينالهم من أحد إجبار "ولا يُكرهون على دينهم ولا يُضار أحد منهم"[3]...

في هذه السياسة التي سار عليها المسلمون، وفي هذه العهود التي كتبوها كانوا يضعون أسسًا لمجتمع جديد في هذه البلاد، وتبدو معالم هذا المجتمع من خلال شروط

---

١ - فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٦٢.

٢ - نصوص مقتطفة من صلح عمر لأهل بيت المقدس: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مرجع سابق، ١: ٢٤٠٥.

٣ - المرجع السابق.

هذه العهود، تستمتع بالحريّة الخصبة والطلاقة العريضة. فلم يكن مجتمعًا ضيّقًا ولا منطويًا، وليست له الانعزاليّة التي كان يحرص عليها المستعمرون، بل كان مجتمعًا طلقًا حرًّا يسع الناس جميعًا من كلّ أمّة، ويؤوي إليه الناس جميعًا من كلّ ملّة، يبيح المشاركة فيه لمَن شاء هذه المشاركة ويتيح الخروج عنه لمَن أراد الخروج. يشارك آمنًا ويخرج آمنًا. إنّ عهود الصلح والسياسة التي رسمتها لتحمل ولادة هذا المجتمع الجديد. لذلك لن يكون عجيبًا أن يشهد هذا المجتمع حركة واسعة في التعريب، وأن يكون بعد ذلك مركز الدولة وموضع عاصمتها وموطن عصبيّتها[1].

المجتَمعُ الجَديدُ
في العـــــراق

في العراق، انقسم السكّان في موقفهم من حركة التحرير الإسلاميّة في طبقتَين: الطبقة المسالمة وهي تضمّ أكثر الفلاّحين الذين لم ينهضوا عن أرضهم ولم يشاركوا في قتال أو صدّ؛ والطبقة المقاتلة وتشمل الفرس ومَن مال ميلهم من السكّان من المقاتلة وأصحاب النفوذ الذين تولّوا نزال المسلمين في المواقع المختلفات. ومن الممكن أن نضيف إلى هاتَين الطبقتَين طبقة أخرى هي طبقة السكّان العرب[2].

حقّقت حركة الفتوح للعراق بما كان من إمداد متواصل اقتضته المقاومة، واختلاط متشابك أسعف عليه الخطر المشترك، نوعًا من امتزاج القبائل امتزاجًا كان جديرًا أن

---

١ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.

٢ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص٧٧ ـ ٧٨.

يؤتي ثماره في ما بعد. وكان لا بدّ في مثل نظام التعبئة التي سار عليها المسلمون، وانقسام الجيش إلى أصحاب الخيل والرجالة والضاربين بالسيوف والضاربين بالرماح والذين يقفون في القلب والذين يملأون الجناحَين والذين يكونون رداءً من هنا وهناك والذين يكونون في الحرب على مقدّماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها وأفرادها وقوّادها... كان لا بدّ، في مثل نظام الجيش هذا، من أن تفسح الصلاتُ القبليّة مكانَها لصلات أخرى. ولقد رأينا سعدًا في القادسيّة يمضي في التعبئة على نظام آخر أشدّ مزجًا وتشابكًا: فهو يعشّر الناس ويعرّف على كلّ عشرة رجلاً، ويؤمّر على أهل الرايات رجالاً من أهل السابقة، ويؤمّر على الأعشار رجالاً من الناس[1]. وينظر في ذلك إلى كلّ هذه الكتلة نظرته إلى جماعة واحدة، لا يلحظ ما كان لها قبلُ من تمايُز وما كان فيها من انقسام، ولا يولي هذا التمايز أو الانقسام مكانًا أو رعاية.

فالشعور بالعصبيّات الصغرى كان يهزل ويضؤل، وصداها كان يضمحلّ ويضيع. والروح القبليّة تبدو مصفرّة شاحبة إلى جانب روح الجماعة التي تبدو مضيئة نيّرة، كأنّما انتصرت هذه الروح على ما كان يشوبها من تجزّؤ وكأنّما حقّقت انتصارها، لا على أعدائها من الفرس فحسب، بل على ذاتها أيضًا، حين نزلت عن رموزها الخاصّة لتتمّي هذا الرمز العام، وحين سمت عن الحدود القبليّة الضيّقة وانخرطت في تنظيم جديد يلفّ الناس جميعًا، ويمزج بين قبائل الشمال وقبائل الجنوب، بين الربعيّ والمضريّ وبين الأزديّ والقيسيّ، فيؤلّف منهم هذا الكلّ المنسجم الذي يتحرّك حركة واحدة وفي اتّجاه واحد ولغرض واحد[2].

---

١ - الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٢٢٤.

٢ - فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٩٧.

وكانت الجماعة الإسلاميّة مدعوّة لأن تمضي في هذا الائتلاف، وأن تستمرّ في معاناة هذه الحقبات الرائعة التي تمثّلت أسمى صور توحّدها، والتي توهّجت فيها أقوى مشاعر إلفتها، والتي ارتفعت فيها إلى أقدس ما كانت تريده لها دعوتها وفكرتها. ولكنّها ولو استجابت، أحيانًا، إلى هذه الدعوة ومضت فيها، وانساقت في هذا التوهّج والسموّ، فكانت تهبّ عليها، أحيانًا من جديد، رياح من أرواح الجاهليّة فتعرقل تقدّمها وتهزم طلائعها وتطفئ ما بين يديها من مصابيح. وإذا كانت الحركة الإسلاميّة قد دعت إلى إهدار الحواجز القبليّة وحاولت ذلك، وإذ كانت هجرة تلك الجماعة قد تمثّلت في هذه الصورة التي امتزجت فيها القبائل جميعًا في إطار واحد من الغرض المشترك، فقد وُفّقت الدعوة في المراحل التالية، أحيانًا، إلى ما كانت تحاوله، ومضت الجماعة في امتزاجها، وفي أحيان أخرى عانت بعض الانحراف عنه، وحاولت القبليّة أن تخالطها من جديد فضلّت السبيل إليه، واضطّرب مسيرها نحوه[1].

إنعكاسَاتُ الوضعِ الجدِيد
عَلَى مَصِيرِ الخِلافَة

هذا الوضع المستجدّ على الخارطة الإسلاميّة البشريّة والجغرافيّة، كان لا بدّ له من أن يُحدث تداعيات مباشرة، وغير مباشرة، على مصير الخلافة بعد عثمان. فلأوّل مرّة من تاريخ مبايعة الخلفاء، نجد تمرّدًا يأتي من خارج نطاق الصحابة والأنصار والمرتدّين في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، نجده مقبلاً من الشأم. وحين أراد الخليفة الجديد: عليّ عليه السلام القضاء على ذلك التمرّد، كان عليه أن يزحف إلى نطاق الشأم،

---

١ ـ فيصل، المجتمعات الإسلاميّة، مرجع سابق، ص ٩٧.

مجيّشًا بمقاتلين من العراق، ليقاتل معاوية ورجاله الشأميّين. وإذا كان التحكيم في النهاية هو الذي قرّر مصير الخلافة، فلا شكّ في أنّ ما سبق التحكيم من معارك أتعبت الفريقَين، كان مفاعله أيد عراقيّة من جهة، وشأميّة من جهة أخرى. فمنذ ذلك التاريخ: أواسط القرن السابع، أصبح للمسلمين في كلّ مكان، كلمتهم في صنع القرار. وإن كان مصدر القرار في النهاية، من وحي القرآن. بيد أنّ مبدأ الوحدة البشريّة في الإسلام، مبدأ وحدة الإسلام، قد تعرّض للاهتزاز منذ واقعة صفّين وبالتالي التحكيم. وقد كان ذلك أوّل غيث التفكّك في الإسلام الذي، ليس بوسع الباحث أن يرى أنّ لولاه، لكان الإسلام مرشّحًا لأن يستمرّ في استيعاب البشر إلى ما لا حدود له على كرتنا بما فيها من أجناس وأعراق. وسيستشري الانقسام في حقب ومجتمعات وأجناس ومعتقدات، إلى حدود يصعب حصرها، غير أنّ نتائج ذلك الاستشراء كانت مثبّطة لزخم انطلاقة الإسلام، وما زالت.

إستعرضنا في الجزء السابق من هذه الموسوعة عهود الإسلام منذ نشأته، وصولاً إلى نهاية عهد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفّان. وفي الجزء التالي (١٩) مسألة خلافة عليّ بن أبي طالب عليه السلام وملابسات التحكيم ونشوء الشيعة. وانطلاقًا من هنا، نستأنف سيرة الإسلام انطلاقًا من عهد معاوية.

الفَصلُ الثَّاني

السُنَّة وظُهورُ الفِرَق

الإنقِسام؛ مَقتَــل عَليّ؛

السُنَّة وأهلُها؛ المَذَاهبُ والشّيَع؛

الخوَارج؛ الشيعة؛

أسبَابُ نشوءِ الفرَق في العَهد الأمَويّ؛

القدريّة؛ المعتَزلة؛ المرجئة.

الإنقِسَام

ما أن ارفضّ مجلس التحكيم إثر وقعة صفّين على خلاف، في كانون الثاني (يناير) ٦٥٩، حتّى وفى معاوية بوعده لعمرو بن العاص، فولاّه مصر[1]. بعد أن بايع أهل الشأم معاوية "الذي انصرف إلى أهله خليفة". في هذه الأثناء، اجتمع حوالى أربعة آلاف من الخوارج في الحروريّة - أو حاروراء - بالقرب من الكوفة، وسمّوا عبد الله بن وهب الراسبيّ خليفة، وبايعوه. ومنذ ذلك الحين، بات الخوارج يلقّبون بالحروريّة. وقد جعلوا شعارهم: "لا حكم إلاّ لله".

وبذلك، بات في الإسلام، للمرّة الاولى، أكثر من خليفة. بل أصبح هنالك ثلاثة خلفاء: الخليفة الشرعيّ عليّ بن أبي طالب. والخليفة المتمرّد، معاوية. وخليفة الخوارج، عبد الله بن وهب الراسبيّ.

فبينما كان انصار بني أميّة في الشأم ومصر، يرون أن تكون الخلافة في قريش وأنّ البيت الأمويّ أحقّ بها، وبينما كان شيعة عليّ بن أبي طالب ﵇ في العراق يرون أن تكون الخلافة في قريش، وأنّ عليًّا ﵇، وأولاده من بعده، أحقّ المسلمين بها، كان الخوارج، وهم خصوم الفريقَين، يستحلّون دماءَ أنصارهما، ويرون أنّ كل أفراد الجماعتَين خارجون على الدّين. وكان هؤلاء الخوارج يمثّلون الديموقراطيّة

---

١ - راجع الجزءين السابع عشر والتاسع عشر من هذه الموسوعة.

الإسلاميّة، إذ كانوا يرون أنّ الخلافة حقّ لكلّ "مسلم عربيّ حرّ"، ثمّ عدّلوا شرطهم إلى "الإسلام والعدل" بدل "العروبة والحريّة"، خاصّة بعد أن انضمَّ إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب، أكثرهم من الفرس. كما قالوا إنّه "إذا اختير الخليفة فلا يصحّ أن ينزل عنها"، إشارة إلى قبول عليّ عليه السلام بالتحكيم. وإذا ظلم استحلّوا عزله أو قتله، إشارة إلى موقفهم من مقتل عثمان[1]. كما "أبى الخوارج الأخذ بكرامة الأولياء، وبما يرافق ذلك من مراسم خاصّة وزيارات إلى مدافن الصالحين، وحرّموا الطرق الصوفيّة على اختلافها"[2].

عند هذه المستجدّات، كان لا بدّ من أن يصطدم عليّ عليه السلام بالخوارج، قبل أن يعود الى تحكيم السيف بينه وبين معاوية. خاصّة بعد أن كان هؤلاء قد بدأوا ما يشبه الثورة على عليّ عليه السلام، إذ بعد مبايعتهم الراسبيّ، شنّوا هجومًا على المدائن "وقتلوا عامل عليّ عليه السلام عليها: عبد خبّاب، ذبحًا، وبقروا بطن امرأته الحامل، وقتلوا غيرها من النساء، وطاردوا الأنصار والمهاجرين"[3].

إنتقل عليّ عليه السلام على رأس خمسة وثلاثين ألف مقاتل ونزل الأنبار[4]، حيث التأمت إليه العساكر، فخطب في الناس وحثّهم على الجهاد وقال:

> سيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قُدمًا فإنّه طالما سعوا في إطفاء نور الله وحرّضوا على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن معه، إلاّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمرني بقتل

---

١ - راجع: مظهر سليمان، قصّة الديانات، مكتبة مدبولي (القاهرة،١٩٩٥) ص ٤٩٥ - ٤٩٦.

٢ - بولس جواد، التحوّلات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عودة (بيروت، لا.ت.) ص ١٠٣.

٣ - راجع: المسعودي، المسعودي، مروج الذهب (القاهرة، ١٩٦٥) ٣: ١٥٥.

٤ - الأنبار: مدينة قديمة كانت تقع على الفرات من العراق.

القاسطين[1]، وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم؛ والناكثين[2]، وهم الذين فرغنا منهم؛ والمارقين[3] ولم نلقهم بعدُ؛ فسيروا إلى القاسطين فإنّهم أهمّ علينا من الخوارج. سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبّارين يتّخذهم الناس أربابًا ويتّخذون عباد الله خولا ومالهم دُوَلا".

غير أنّ الجموع أبوا إلاّ أن يبدأوا بالخوارج[4].

سار عليّ عليه السلام بجيوشه حتّى وصلوا النهروان، الواقعة بين بغداد وواسط. وكعادته قبْل كلّ قتال، حاول عليّ عليه السلام أن يثني الخوارج عن موقفهم، فبعث إليهم رسولاً يدعوهم إلى الرجوع وقد خرجوا، إلاّ أنّ جوابهم كان عنيفًا:

إن تبْت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك، وإن أبيت فاعتزلنا حتّى نختار لأنفسنا إمامًا؛ فإنّا منك براء[5].

واذ لم ييأس عليّ عليه السلام من إقناعهم، راح يردّ الرسول بكلام يدعو إلى التعقّل، ويعود الرسول بجواب رافض لا يخلو من التحدّي. بينما راح الخوارج يتقدّمون نحو موقع جند عليّ عليه السلام، حتّى أعطى أوامره بالهجوم عليهم، وكانت "واقعة النهرَوان" التي كاد عليّ عليه السلام أن يبيد فيها الخوارج، وقيل إنّه لم يسلم منهم سوى عشرة أنفار من أصل أربعين ألفًا. وإنّه لم يُقتل لعليّ عليه السلام سوى عشرة[6]. إلاّ أنّ عددًا لا بأس به من

---

١ ـ **القاسط**: جمعها القسّاط والقاسطون، الذي جار وحاد عن الحق. والذين يعنيهم هنا عليّ عليه السلام ، لا بد من أنّهم جماعة معاوية.

٢ ـ **الناكث**: هو الذي نقض العهد، ولا بد من أن يكون عليّ عليه السلام قد عنى بالناكثين هنا، مَن دحرهم في يوم الجمل.

٣ ـ **المارق** وجمعها المارقون والمرّاق: من مرق من الدين. أي من خرج من الدين، والمقصود هنا: الخوارج.

٤ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ١٥٥ ـ ١٥٦.

٥ ـ راجع: المسعودي، مرجع سابق، ٣: ١٥٦؛ اليعقوبي، طبعة دار صادر (بيروت، لا.ت.) ٢: ١٩٢.

٦ ـ راجع: الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٨٣؛ شرح نهج البلاغة، ١: ٢٠٥؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٥٧ ـ ١٥٨؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ١٩٣.

الخوارج، على ما يبدو، لم يكن في صفوف المقاتلين، وقد يكون هؤلاء هم الذين سلموا، وواصلوا الانتشار في ما بعد، سواء في أيّام الدولة الأمويّة أو الدولة العبّاسيّة[1].
أمّا موقعة النهروان، فقد جرت سنة ٦٥٨.

بعد حسم مسألة الخوارج، فشل عليّ عليه السلام في اقناع القوم بالتوجُّه لمحاربة معاوية. فلمّا انتهت المعركة، خطب عليّ عليه السلام قائلاً:

إنّ الله قد أحسن إليكم وأعزّ نصركم، فتوجَّهوا من فوركم هذا إلى عدوّكم.

فقالوا: يا أمير المؤمنين لقد كلّت سيوفنا ونفدت نبالنا ونصلت أسنّة رماحنا، فدعنا نستعدّ بأحسن عدّتنا.

وقد كان صاحب هذا الكلام، الأشعث بن قيس. وإذ يئس عليّ عليه السلام من إقناعهم، راحوا يتسلّلون عائدين إلى ديارهم بما غنموه، ولم يبقَ منهم بالمعسكر سوى نفر قليل[2].

مقتَل عَلِيّ

قبل ذلك التاريخ، كان معاوية قد تمكّن من اثنَين من أشدّ كبار أنصار عليّ عليه السلام، هما: محمّد بن أبي بكر، والأشتر. وقد قُتل الأوّل في معركة "المسناة" التي وقعت بينه وبين جند معاوية، والثاني قضى مسمومًا في منطقة "الفسطاط" بمصر، بتناوله عسلاً

---

١ - راجع: مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩٥.

٢ - راجع: الطبري، مرجع سابق، ١: ٣٣٨٥، ١: ٣٤١٨ وما يليها؛ المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٥٨ - ١٥٩؛ وشرح نهج البلاغة، ١: ٢٦٤ وما يليها.

من يد رجل كلّفه بذلك معاوية. وكان مقتل الرجلَين سنة ٣٨ هـ / ٦٥٨ م، وإذا لم يكن هنالك بين عليّ عليه السلام ومعاوية من حرب شهيرة سوى معركة صفّين، فإنّ معاوية استمرّ يوجّه الغارات على عمّال عليّ عليه السلام والمناطق التي كانت تبايعه، وكان على عليّ عليه السلام أن يواجه تلك الغارات بخطط دفاعيّة يقظة، وكان عليه أن يتحمّل كلّ هذا، بانتظار الانقضاض على معاوية. ولكنّ حقد الخوارج لن يمكّنه من ذلك.

ففي صبيحة ٢٤ كانون الثاني (يناير) سنة ٦٦١[1]، بينما كان عليّ عليه السلام في طريقه إلى المسجد في مدينة الكوفة، سدَّد إليه أحد الخوارج طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت في جبهته، تنفيذاً لمؤامرة حاكها الخوارج، كانت تقضي بقتل عليّ عليه السلام ومعاوية وعمرو بن العاص. إلاّ أن عليًّا عليه السلام وحده، قُتل، ولم يوفَّق المكلّفان بقتل الآخرَين في إنجاز مهمّتهما[2].

وباستشهاد عليّ عليه السلام، ينتهي عهد الخلفاء الراشدين، الذين كُنّوا بذلك، لأنّهم عاصروا الرسول ﷺ وصاحبوه.

وبانتقال الخلافة، من الراشدين، إلى من سيليهم، يبدأ ظهور الفرَق الإسلاميّة، ويبقى خطٌّ مستقيم رافضًا البدع والاجتهادات، أصحابه هم: أهل السنّة.

---

١ ـ اليعقوبي جعلها في أوّل ليلة من العشر الأواخر من رمضان سنة ٤٠ هـ.

٢ ـ لتفاصيل مقتل عليّ عليه السلام: راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة؛ وراجع: المسعودي، مروج الذهب، مرجع سابق، ٣: ١٦٤ وما يليها؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢١٢.

السُنّة وأهلُها

قبل مقتل عليّ (عليه السلام) بأشهر، كان أهل الشام قد أعلنوا خلافة معاوية في بيت المقدس (إيلياء) سنة ٦٦١. وإثر مقتل عليّ (عليه السلام)، قام أهل العراق، أنصار عليّ (عليه السلام)، بمبايعة الابن البكر للخليفة الراحل: الحسن، وأعلنوه الخليفة الشرعيّ، نصًّا وتعيينًا. ولكنّ معاوية كان يعلم أنّ الحسن لم يكن يميل إلى الحكم بقدر ما كان يميل إلى أمور الدنيا. فكتب إليه يقول:

أمّا بعد، فأنت أولى بهذا الأمر وأحقّ به لقرابتك. ولو علمت أنّك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمّة وأكيَد، لبايعتك. فسَلْ ما شئت.

وكان معاوية أرسل إليه صحيفة بيضاء وكتب إليه:

أنِ اشترِط في هذه الصحيفة التي ختمتُ أسفلها ما شئت فهو لك...

وبعد مساومات ومراسلات طلب الحسن أن يعطيه معاوية عطاء كبيرًا بلغ الملايين من الدراهم، وخراج الكوفة، وخراج "دارا بجرد" في فارس[1].

وكانت نهاية خلافة الحسن، بعد ما يقارب الشهرَين، إذ "لمّا رأى أنْ لا قوّة به، وأنّ أصحابه قد افترقوا عنه.. صالح معاوية، وصعد إلى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: "أيّها الناس، إنّ الله هداكم بأوّلنا وحقن دماءَكم بآخرنا، وقد سالمت معاوية، وإنْ أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين"[2].

---

١ ـ راجع: حتّي د. فيليب، صانعو التاريخ العربي، نشر دار الثقافة (بيروت، ١٩٦٩) ص ١٧١ وراجع: الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢١٥.

وإذا كان الشيعة قد ناصبوا الأمويّين العداء طوال العهود الأمويّة، يخطىء مَن يعتبر أنّ الأمويّين كانوا يمثّلون السنّة، أو أهل السنّة، في ذلك الوقت. وقد يكون هذا الأمر بحاجة لبعض التوضيح، خاصة بالنسبة لغير المسلمين. وهذا يفرض شرح معنى السنّة، والتعريف بأهلها.

يرى الإسلام أنّ على الإنسان أن يخدم الله وأن يعبده، لأنَّ الله خلق الإنسان، وهو مصدر كلّ قوّة وسلطان. ولكنّ هذا الإنسان لا يعرف كيف يخدم الله ولا كيف يعبده إن لم يكن يعرف مشيئة الله وإرادته. هذه المشيئة وهذه الإرادة الإلهيّة يعلنهما الأنبياء، وأعظم الأنبياء وخاتمهم هو الرسول العربيّ محمّد ﷺ. ولا يوحَى بالإرادة الإلهيّة ليؤمن بها المؤمن، بل لتكون فرضًا يجب إطاعته والعمل بموجبه. وعصيان أوامر الله ونواهيه إثم ومعصية، تفوق في خطورتها الجرائم المدنيّة، يحاسَب عليها المرء في العالم الآتي. وليس الشرع نيرًا يُثقل كاهل المؤمن، بل إنّه امتياز يُمنحه الإنسان. وإذا عمل بموجبه نال الثواب. وليست الشريعة الإسلاميّة مجرّد شريعة موحى بها من الله، بل إنّها كلمة الله المجسّدة في القرآن الكريم غير المخلوق. إنّه كان مع الله منذ البدء، وفي اللوح المحفوظ، إلى أن أوحى الله به إلى رسوله ﷺ ليبلّغه الإنسان. والقرآن الكريم تامّ، أزليّ، عالميّ، شامل، يصلح لكلّ إنسان في كلّ عصر وزمان. وهو شريعة سماويّة كلّيّة. وليس للدولة أن تسنَّ الشرائع بل عليها أن تطبّق الشريعة السماويّة، لأنّ الشريعة وُجدت قبل أن توجد الدولة، وقبل أن يُخلق الإنسان. وهذه الشريعة تحدّد العلاقة بين العبد وخالقه، كما أنّها تحدّد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان. والشريعة هداية من الله تُهدي المجتمع للوصول إلى الحياة السعيدة التي يريدها الله لمخلوقاته... ولقد كان النبيّ ﷺ في حياته، وبصفته رسول الله، يقوم بالمهامّ الثلاث: التشريع والقضاء والتنفيذ. في حالة كهذه، لا يمكن أن تقوم مشكلات يصعب حلّها. ولكن بوفاته

انقطع الوحي، ولم يرث الخلفاء من بعده وظيفة التشريع التي هي من حقّ النبوءة.

إذا كان الوحي، عند الإسلام، قد انقطع بوفاة الرسول ﷺ، ولم يرث الخلفاء من بعده وظيفة التشريع التي هي من حقّ النبوّة، فإنّ هؤلاء الخلفاء، بصفتهم رؤساء دولة، إنّما كانوا يقومون بوظيفة القضاء والتنفيذ[١]... وبالتالي، تغيّرت الحال ولم تعد الأمّة أهل المدينة المنورّة، بل أصبحت الأمّة أمّة عالميّة. "فشعر أولو الأمر أنّهم بحاجة إلى مصادر إضافيّة تُستمدُّ منها القوانين التي لم ينصّ عليها القرآن الكريم. وفضلاً عن هذا، فإنّ القرآن الكريم لم يُلمّ بكلّ التفاصيل المتعلّقة بالفروض والشعائر وطريقة القيام بها. فالصلاة فرض على المسلم، ولكن ليس هناك نصّ على الآيات التي يجب على المصلّي أن يردّدها في صلاته، ولا على عدد الركعات أو السجود، فاتّبع المسلمون سنّة نبيّهم ﷺ في هذه الأمور، وأخذوا من سلوكه في حياته مثلاً أعلى لهم. وكان رضاه عن عمل أو عادة يحمل المسلمين على قبوله، وبهذا أصبح لدى الصحابة والجيل الأوّل من التابعين، تقليد يتّبعونه.

"على أنّه عندما توفّي الصحابة والتابعون، شعر أولو الأمر بضرورة جمع أحاديث الرسول ﷺ وتدوينها، وأصبح الحديث مصدرًا ثانيًا من مصادر الشرع. ومهما يكن من أمر، فإنّ عدد آيات القرآن التي تختصّ بالتشريع محدود، وكذلك عدد الأحاديث. على أنّ ما يطرأ من مشكلات في الحياة ليس له حصر. إذن يتوجّب على أولي الأمر أن يلجأوا إلى مصادر أخرى يستمدّون منها القوانين لمواجهة الأمور الطارئة. منها إدراج أقوال الصحابة والتابعين لهم، وحتّى تابعي التابعين، وأفعالهم في الحديث. ولكنّ هذه

---

١ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

الأقوال والأفعال محدودة ضيّقة الإطار. فلجأوا إلى مصدر أغنى من هذا المصدر الأخير، وهو ما يُعرف بالرأي. في هذه الأثناء كان عدد الأحاديث التي جُمعت قد بلغ درجة قصوى، ولم يكن قد وُضع بعد علم يُعنى بالحديث من حيث الإسناد، ولم يكن بعد هنالك مجموعات للحديث مدوّنة مُعترف بها. فكان لكلّ مدينة من مَرو ونيسابور في الشرق، إلى القيروان في الغرب، فإلى قرطبة في الأندلس، عالِم في الشريعة وله أتباع. وكان في متناول علماء الشرع آراء الجيل السابق في قضايا الفقه، لكي يهتدوا بهديها. ولكن لم يكن لديهم مجموعات لهذه الآراء المدوّنة... ولم يكن قد برز بعد عالِم شرع اكتسب شهرة على نطاق الأمّة الواسع ليُتّبع... ولكنّ هذه الاتّجاهات في قضايا الشرع التي كانت تعبيرًا عن الأوضاع المحليّة، أخذت تتنافس في سبيل الاعتراف بها، والأخذ بها على نطاق واسع"[1].

وسط هذا التضارب، راحت الفرق تنشأ في الإسلام بدءًا من عهد معاوية، بعد أن انتقلت الخلافة، للمرّة الأولى، من "الرّاشدين"، وهم أولئك الذين كانوا من أقرب أهل الصحابة. فكان الشيعة، أوّل مَن اجتهد من هؤلاء، بعد السبئيّة والخوارج. وإذا كانت السبئيّة قد تطرّفت في اعتبار عليّ ﷺ، والخوارج قد جعلوا الحكم لله فقط، والشيعة قد اجتهدوا في أمر التشريع، فإنّ السنّة في ذلك الوقت، كانوا المحافظين الذين صمدوا في القرآن وسنّة الرسول ﷺ، رغم المعاناة الفقهيّة التي استمرّت زمنًا ليس بقصير، حتّى ظهور الفقهاء في بداية القرن الثامن الميلاديّ، أي في بداية القرن الثاني للهجرة.

وبينما كانت المذاهب والبدع تبرز إلى الوجود في عهد أوّل خليفة من بعد الراشدين: معاوية، كان المحافظون، الذين سيُعرفون في ما بعد بأهل السنّة، يصرّون

---

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.

على اعتبار أنّ القرآن غير المخلوق، هو المصدر الأخير للتشريع كلّه... فكلّ قانون وكلّ شرع مصدره القرآن، نصًّا وضمنًا: هذا هو رأي السنّة. ثمّ تُعتبر السنّة، بعد القرآن الكريم، مصدرًا من مصادر التشريع. والسنّة، هي المأثور عن حياة الرسول وأخلاقه وأعماله غير التي عليها في القرآن نصّ معيّن. وقد حدّد، في ما بعد، أحد اشهر فقهاء الإسلام: الشافعيّ، حدّد السنّة على "أنّها التصرّف أو السلوك الأمثل، الذي سلكه النبيّ ﷺ في حياته".

وإذا كان هذا هو موقف المحافظين، موقف أهل السنّة، فماذا كان في المذاهب والشيع؟

المَذَاهِبُ والشِّيَع

يمكن تقسيم الفرق والمذاهب التي ظهرت في بداية الإسلام، زمنيًّا، إلى قسمَين: تلك التي ظهرت قبل نهاية خلافة الراشدين، وتلك التي ظهرت في عهد الأمويّين.

أمّا الأولى، فتضمّ السبئيّين، والخوارج، والشيعة، وقد كان لهذه الفرق والمذاهب، علاقة بعليّ عليه السلام. وسواء كانت هذه العلاقة سلبيّة أم إيجابيّة، فإنّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بحسب المدوّنات، لم يسعَ إلى تأليف أو إنشاء أيّ من الفرق أو المذاهب. وبما أنّنا قد خصّصنا جزءًا من هذه الموسوعة للمذاهب الشيعيّة، فسيقتصر هنا البحث على ما يتطلّبه سياق موضوع السنّة. وإذ كنّا جئنا في الفصل السابق، على ذكر ظروف ظهور السبئيّة، ومعتقدها، سنحاول أوّلاً، في ما يلي إعطاء لمحة عن ملابسات موضوعَي نشوء الخوارج، والشيعة، ومعتقدَيهما، خاصّة بالمقارنة مع السنّة.

الخوَارج

إنّ الفارق الأساسيّ بين معتقد الخوارج، والسنّة، هو في أنّ السنّة، كما ذكرنا، يتّخذون من سنّة الرسول ﷺ، ومن أحاديثه، ومن أقوال الصحابة والتابعين لهم، ومن الرأي، مصادر للتشريع. أمّا الخوارج، فقد امتازوا بشدّة تمسّكهم بالقرآن واتّباع أحكامه وتنفيذ أوامره، دون سواه. وقالوا إنّ العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان. وليس الإيمان هو الاعتقاد بالله ورسالة محمّد ﷺ فحسب... فمَن اعتقد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمّدًا رسول الله، ثمّ لم يعمل بما يفرضه الدين، وارتكب الكبائر، فهو كافر.

وبلغة اليوم، يمكن وصف الخوارج، بالأُصوليّين بامتياز. ذلك أنّ خوفهم من عذاب الله يوم القيامة، يثير في نفوسهم الحماس للحقّ وشدّة التمسّك به، والامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه... وقد غالوا في أفكارهم حتّى عدّوا مرتكب أيّة هفوة مهما صغرت، كافرًا. وتشدّدوا في معاملة المخالفين لهم، حتّى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني. ولم يتورّعوا عن ارتكاب أشدّ الأعمال قسوة، برغم ما كان من ظهورهم بمظهر العباد الزهّاد وتورّعهم من تافه الأمور. كما كانوا يأتون بأفظع المنكرات كأنّهم لا يدينون بإله ولا يعرفون شفقة ولا رحمة. إلاّ أنّ بعض فرق الخوارج، قد مال إلى الاعتدال. فقد تفرّق الخوارج أنفسهم إلى فرق عدّة، كاد عددها يصل إلى عشرين فرقة. وقد كانت مقالات بعض فرق الخوارج، هي السبب في اتّهامها بالخروج على الإسلام. وكان من بينها فرقتان بارزتان هما: اليزيديّة، وهم أتباع يزيد بن أبيه، الذي زعم أنّ الله سيرسل رسولاً من العجم ويُنزل عليه كتابًا ينسخ القرآن؛ والميمونيّة، وهم أتباع ميمون العجرويّ الذي أباح الاتّصال ببنات الابن وبنات أولاد الأخوة والأخوات، كما أنكر سورة يوسف ولم يعدّها من

القرآن، وزعم أنّها قصّة من القصص، وقال هؤلاء إنّه لا يجوز أن تكون قصّة العشق من القرآن فاستبعدوها[1].

إلا أنّ أساس نشوء الخوارج، يعود إلى خلاف سياسيّ كما سبق وذكرنا. إذ إنّ هؤلاء، هم الذين خرجوا عن الولاء لعليّ ﷺ، يوم كان خليفة، بسبب قبوله بالتحكيم. وقد تطوّر أمرهم في ما بعد إلى تحوّلهم إلى أصحاب اجتهاد دينيّ.

الشيعة

أساس الشيعة، هو اعتقادهم بأنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ، أحقّ بالخلافة، وبأنّ أبا بكر، وعمر، وعثمان، أخذوا حقّ الإمامة المقدّس من عليّ ﷺ.

وكان الأمر قد بدا سهلاً لهم حين تذمّر المسلمون من سياسة عثمان بن عفّان، وطالبوا بتحويل الخلافة إلى أهل البيت. وقد أشعل نار ثورتهم أبو ذرّ الغفاريّ. ويعتبر بعض أخصام الشيعة، أنّ أبا ذرّ، قد حُرّض من قِبَل ابن سبأ، منشىء السبئيّة، بينما ينكر الشيعة هذا الأمر، ويصرّون على عدم وجود أيّة صلة بين السبئيّة والشيعة.

غير أنّ مقتل عليّ ﷺ، وتنازُل ابنه الحسن عن الخلافة لعدم تمكّنه من الوقوف بوجه معاوية، بدّلا المعادلة، ووضعا أولئك الذين شايعوا عليّاً ﷺ، أمام مسار مذهبيّ طويل.

ويذكر بعض المحقّقين أنّه قد تبيّن بأنّ تأثير عليّ ﷺ، ميتاً، كان أشدّ منه وهو على قيد الحياة. إذ لم يلبث أن غدا في نظر مشايعيه إمامهم الأكبر، ووليّ الله عليهم.

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٤٩٦ ـ ٤٩٧.

وإذ راحت الهوّة تتّسع بين أنصار عليّ ﷺ، من جهة، والخلافة الأمويّة من جهة ثانية، فقد تمكّن الشيعة من توطيد نظامهم. وكان الفارق الأساسيّ بين الشيعة والمحافظين، مسألة الإمامة. فالشيعة، بالإضافة إلى تشبّثها بأنّ إمامة عليّ ﷺ وأبنائه هي الإمامة الحقّة الوحيدة، فإنّها تجعل الواسطة بين الله والإنسان، إنسانًا، هو الإمام، بينما لا يُقرّ المحافظون بغير كلام الله المنزَل، أي القرآن، واسطة في هذا المجال.

وعلى ذلك، فالسنّيّ يعبّر عن عقيدته بأنّه يؤمن بالله الواحد الصمد، ويؤمن بنزول القرآن المحفوظ في السماء منذ الأزل. أمّا الشيعيّ فيزيد فقرة أخرى لاستكمال التعبير عن الإيمان، إذ يقول إنّه يؤمن بأنّ الإمام الذي اختاره الله، وبثّ فيه شيئًا من روحه القدسيّ، هو الهادي إلى الحقّ والمرشد إلى سبيل الخلاص.

وبينما الخليفة في نظر السنّة، هو الرئيس الزمنيّ لجماعة المسلمين، وهو أمير المؤمنين وحامي الشريعة، ولا يخصّه السنّة بسلطة روحيّة[١]، فإنّ الشيعة التي تحصر الإمامة في أسرة عليّ ﷺ، لا تكتفي باعتبار الإمام الرئيس الأوحد للمجتمع الإسلاميّ، بل تجعله إلى ذلك الرئيس الروحيّ والزعيم الدينيّ. وتذهب إلى أنّه يستمدّ سلطانه من النصّ المقدّس. وهكذا، يصبح لسليل محمّد ﷺ، من ذريّة عليّ ﷺ وفاطمة ابنة الرسول ﷺ قوّة خارقة تصل إليه عن طريق الوراثة[٢]، بها يغدو فوق البشر، وعن طريقها يتميّز بالعصمة. على أنّ بعض نصوص السنّة المتأخّرة قد نسب العصمة من الإثم والخطأ

---

١ ـ راجع: النسقي، عمدة عقيدة أهل السنة، نشر كورتن (لندن،١٨٤٣) ص ٢٨ ـ ٢٩.

٢ ـ راجع: المسعودي، مرجع سابق، ١: ٧٠.

إلى الأنبياء دون سواهم، وأخصّهم محمّد ﷺ. وتمادى غلاة الشيعة في تأليه الإمام حتّى أنّهم اعتبروه تجسيدًا للألوهيّة[1]...

ثمّ إن الشيعة بدورها، سوف تنقسم في ما بعد إلى فرق عدّة، كما سيأتي في المجلد الذي خصّصناه لهذه الفرق.

أسبَابُ نُشوءِ الفرَق
فـي العَهـد الأمَـويّ

بانتقال الخلافة من أصحاب الرسول، إلى سواهم، مع نهاية عهد عليّ عليه السلام وبداية عهد معاوية بن أبي سفيان، وبتحوّل مركز خلافة المسلمين من المدينة، موئل هجرة الرسول ﷺ وأصحابه، إلى دمشق، حيث تعدّد الأديان والأجناس والتيّارات الفكريّة، أصبحت الظروف مهيّأة مرّة أخرى لظهور التيّارات الجديدة في الإسلام. وإذا كان لظهور التيّارات الأولى، في نهاية عهد الراشدين، سبب رئيسيّ في اتّساعها، هو دخول قوميّات فارسيّة وعراقيّة إلى مجتمع المدينة والجزيرة عمومًا، فإنّ أسبابًا مماثلة ستلعب دورها في ظهور التيّارات والفرَق في عهد الأمويّين بعد انتقال الخلافة، معهم، إلى دمشق.

فإذا كان الوضع في الجزيرة العربيّة متّصفًا بنوع من الإنغلاق على التيّارت الفكريّة غير الإسلاميّة، فإنّ الوضع أصبح مختلفًا في مركز الخلافة الجديد: دمشق،

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، نشر دار الثقافة، بالاشتراك مع مؤسّسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر (بيروت،١٩٥٩)، ٢: ١١٩ ـ ١٢٠؛ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٧.

حيث سُمح لمَن لم يعتنقوا الإسلام بأن يتعاطوا الشأن العامّ في البلاد. حتى إنّ الخلفاء الأمويّين، وأوّلهم معاوية، قد أدخلوا المسيحيّين السوريّين في الجيش، واستعان معاوية بآل سرجون السوريّين المسيحيّين الذين تولّوا شؤون بيت المال، وظلّت هذه الوظيفة وراثيّة بينهم[1].

على وجه العموم، يمكن القول: "إنّه عندما بادر السوريّون والعراقيّون والفرس والقبط والبربر إلى الدخول في الإسلام، وامتزجوا بالعرب عن طريق الزواج، زال الحاجز الذي كان يفصل بين الفريقين، وغدا المسلم، كائناً ما كانت جنسيّته الأصليّة، يُقبل على تعلّم العربيّة، فيُعتبر في جملة العرب. على أنّ العرب أنفسهم لم يصطحبوا من الجزيرة شيئاً من العلم أو الفنّ أو التقليد الفكريّ أو التراث الثقافي، إنّما جاؤوا بعنصرَين جديدين من عناصر الثقافة، هما اللغة العربيّة والدين الإسلاميّ، أمّا في ما سوى ذلك، فقد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الاعتماد على الشعوب التي غلبوها على أمرها. فإذا نحن تحدّثنا، مثلاً، عن الطبّ والفلسفة أو الرياضيّات عند العرب، فلسنا نعني ضرورة أنّها من نتاج عربيّ مستقلّ، أو أنّها نمت وازدهرت برعاية سكّان الجزيرة العربيّة؛ بل نقصد أنّها أودعت كتباً عربيّة ألّفها علماء من السوريّين والفرس والعراقيّين والمصريّين والعرب، من مسيحيّين ويهود ومسلمين، بعد أن استمدّوا أصولها من منابع يونانيّة وآراميّة وهنديّة وفارسيّة، ونميّز ذلك من المصادر"[2].

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١١٤ ـ ١١٥؛ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٦٨.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٠٤.

وهنا، يبدو لنا أنّ أكثر الباحثين الذين ركّزوا في معالجاتهم على جهة تأثير الإسلام في المذاهب الفكريّة والروحيّة لأهل الأمصار التي تمّ فتحها، قد أغفلوا شأن تأثير تلك المذاهب... في الإسلام. ومن هذا التأثير الأخير، نشوء المذاهب الإسلاميّة، في عهد الأمويّين، على أرض الشام.

فقد ظهرت في العصر الأمويّ حركات دينيّة فلسفيّة عديدة، غلب عليها اسم الفرَق. ذلك أنّ احتكاك المسلمين بالنصارى في سورية أثار ضربًا من التأمّل الدينيّ والنقاش الفكريّ، انتهى بظهور عدد من تلك الفرق، من أشهرها القدريّة، والمعتزلة، والمرجئة.

القدريَّة

تُعتبر القدريّة أقدم الفرَق الفلسفيّة في الإسلام. وقد جاءَت تسميتها: القدريّة، نسبة إلى "القدرة" وذلك معارضةً للجبريّة، من معنى "الجبر والإلزام"[1]. ذلك أنّ ظهور القدريّة كان ردّة في وجه تعليم الإسلام الصارم الذي يقول بالجبر المطلق، مستخرجًا ممّا نصّ عليه القرآن من أنّ قدرة الله لا تُحدّ[2]. فكان علماء القدريّة يقولون إنّ للإنسان قدرة على أعماله، وفي هذا مناقضة مباشرة لقدرة الله كما وصفها القرآن الكريم: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]. وفي القرآن الكريم

---

١ ـ راجع: الأيجي، كتاب المواقف، نشر سورنسون (ليبزغ،١٨٤٨) ص ٣٣٤، ٣٦٢.

٢ ـ راجع: سورة آل عمران: ٢٦؛ الحجر: ٢١؛ الشورى: ٢٩؛ الزخرف: ٩ ـ ١٠.

٣ ـ آل عمران: ٢٦.

آيات تعلّم الناس أنّه مهما أصاب الإنسان، مهما يحدث في السماء أو الأرض فبقضاء من الله، ومحفوظ في كتاب[1]. إلاّ أنّ أصحاب هذا المذهب لم يستطيعوا أن يوفّقوا بين معتقدهم ومسؤوليّة الإنسان وإلزامه الأدبيّ. كانوا يقولون:

إنّ الله قادر ولكنّه عادل، والله العادل لا يجازي الإنسان على عمل قام به، ما دام هذا العمل مكتوبًا أو مقدّرًا له.

مثل هذه القضايا الدينيّة أزعجت عقول اللاّهوتيّين المسيحيّين زمنًا طويلاً. وقد بدا وقع هذا الجدل على الإسلام في دمشق، ثوريًّا. ففي هذه المدينة، ولأول مرّة، أُفسح للعقل أنّ يدخل في أمور العقيدة المنزَلة. أمّا في المدينة، فإنّ علماء الدين كانوا يعملون بعيدين عن التيّارات الفكريّة، وفي مجتمع لم يكن قد تمرّس بعد بأمور العلم والمعرفة؛ ولا ينطبق هذا الوصف على دمشق، فقد كان القديّس يوحنّا الدمشقيّ[2] يُعتبر بمثابة العامل الرئيسيّ في نقل المعارف المسيحيّة والفكر الإغريقيّ إلى المجتمع الإسلاميّ. فمن جملة مؤلّفاته كتاب في حوارٍ قام بينه وبين عربيّ حول ألوهيّة المسيح وحرّيّة الإرادة الإنسانيّة. وكان الغرض من وضع هذا الكتاب أن يكون دليلاً يهتدي به المسيحيّ عند قيام جدل أو حوار بينه وبين المسلم[3]. وهكذا يتّضح ما كان للمسيحيّة من تأثير مباشر في ظهور مذهب القدريّة عند الإسلام.

---

١ ـ راجع: سورة الحديد: ٢٢، ٧٧.

٢ ـ القدّيس يوحنا الدمشقي (نحو ٦٧٥ ـ ٧٤٩): وُلد في دمشق، من آباء ومعلّمي الكنيسة، حفيد منصور ابن سرجون رئيس ديوان الماليّة على عهد معاوية، قاوم بدعة محطّمي الصور أو الأيقونوكلاست، ألّف في اللاّهوت والفلسفة والخطابة والتاريخ والشعر والألحان الدينية، مهّد بمؤلفاته إلى نشأة تعليم الفلسفة واللاهوت في أوروبا، تُرجم بعض مؤلفاته إلى العربيّة، منها كتابة "منهل المعرفة".

٣ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٢٥.

المعتَزلة

أمّا المعتزلة، فكانت نشأتهم عندما اختلف واصل بن عطاء[1] المتوفّي سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م. مع أستاذه الفقيه الحسن البصريّ[2]، في مسألة المؤمن العاصي الذي ارتكب ذنبًا كبيرًا، أيُسمّى مؤمنًا أم كافرًا؟ وقال واصل إنّ مثل هذا الشخص لا يُعتبر مؤمنًا، ولا يُسمّى كافرًا، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتَين. واعتزل واصل ناحية بعيدة عن المسجد يشرح رأيه لأتباعه، فكان أن سُمّوا معتزلة[3].

وكانت المعتزلة لا تأخذ بالعقيدة، التي تقول إنّ القرآن أزليّ، لأنّ هذا يتعارض مع وحدانيّة الله. كانوا يتساءلون: كيف يتسنّى لنا أن نؤمن بأنّ الله هو الكائن الوحيد الأزليّ، خالق الاشياء، ثمّ نضع إلى جانبه كلمة غير مخلوقة؟ وكانوا يفاخرون بأنّهم "أهل التوحيد والعدل"[4].

بالرغم من أنّ المعتزلة قد نشأت في البصرة، فإنّها كانت متأثّرة بشكل واضح، بالقدريّة التي نشأت في دمشق. حتّى أنّ بعض البحّاثين وقعوا بالخلط بين القدريّة والمعتزلة، فقالوا "إنّ هؤلاء المعتزلة سمّوا بالقدريّة"[5].

---

١ ـ **واصل بن عطاء** (ت١٣١ هـ / ٧٤٨ م): لقبه أبو حذيفة، رأس متكلّمي المعتزلة وأكبر أركان هذه النحلة، وإليه تُنسب "الواصلية"، وُلد بالمدينة وانتقل إلى البصرة حيث اتّصل بالحسن البصريّ وعمرو بن عبيد، لُقّب بالغزّل لتصدّقه على فقيرات معامل الغزل، له "السبيل إلى معرفة الحق" و"والخطب في التوحيد والعدل".

٢ ـ **الحسن البصريّ** (٢١ ـ ١١٠ هـ / ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م): لقبه أبو سعيد، تابعيّ من مشاهير الثقاة، وُلد في المدينة وأقام في البصرة وفيها توفّي، لقي عثمان بن عفّان وعبد الله بن عبّاس، كان فريدًا في معرفة الأحكام الشرعيّة والتدريس والوعظ والحديث، أثّر تأثيرًا عظيمًا في جيله من المسلمين، له مكانة عظيمة في التصوّف.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٠٠ ـ ٥٠١.

٤ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص ١١٢٥ راجع: البغدادي، أصول الدين (استنبول،١٩٢٨) ١: ٣٣٥؛ النوبختي، فرق الشيعة، نشر ريتر (استنبول،١٩٣١) ص٥.

٥ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٠١.

وقد تكوّنت عقيدة المعتزلة من خمسة أصول:

١ ـ التوحيد: إذ قالوا إنّ الله ليس كالأشياء والأجسام، وإنّه ليس بجزء ولا عنصر ولا جوهر، بل هو الخالق لهذه الأشياء جميعًا، وإنّه لا يحصره المكان ولا تحويه الأقطار.

٢ ـ العدل: ومعناه أنّ الله لا يُحبّ الفساد ولا يخلق أفعال العباد، بل إنّهم يفعلون ما أُمروا به ونُهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم، لأنّه لم يأمر إلاّ بما أراد، ولم يَنهِ إلاّ عمّا كره. وإنّه وليّ كلّ حسنة أمر بها، بريء من كلّ سيّئة نهى عنها. وإنّ الله لو شاء لجبر الخلق على طاعته ومنعهم عن معصيته، غير أنّه لم يفعل وهو قادر. وعلى ذلك فإنّ من الظلم أن يعاقب الإنسان على عمل ساقه القدر الإلهيّ.

٣ ـ الوعيد: وهو أنّ الله لا يغفر لمَن ارتكب الكبائر إلاّ بالتوبة. وأنّه لصادقٌ في وعده ووعيده لا مبدّل لكلماته.

٤ ـ المنزلة بين المنزلتَين: وهو أنّ الفاسق مرتكب الكبائر ليس بمؤمن ولا بكافر، بل يُسمّى فاسقًا...

٥ ـ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهو أنّ ما ذكر على سائر المؤمنين واجب على حسب استطاعتهم في ذلك بالسيف فما دونه، ولا فرق بين جهاد الكافر والفاسق. ويقول المعتزلة أيضًا بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح. كما يقولون إنّ الإمامة اختيار من الأمّة، لأنّ الله لم ينصّ على رجل بعينه، وإنّ اختيار الإمام مفوّض إلى الأمّة[١].

---

١ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٠٠ ـ ٥٠١.

لم تقتصر خطورة المعتزلة على أنّها مجرّد انشقاق عن السنّة، ولكنّها تعدّت ذلك إلى تحوّلها دين الدولة، في عهد الخليفة المأمون، الذي اتّخذ سنة ٨٢٧ إجراء على غاية من الخطورة والثوريّة. ذلك في أنّه اعتنق مذهب المعتزلة. وفي رسالة خطيرة بعث بها إلى عمّال الولايات أعلن رأيه في أنّ القرآن مخلوق، وجعل الأخذ بهذا الرأي محكّمًا لمعرفة سلامة العقيدة من فسادها. ثم ألحق هذا بأمر أصدره يقول فيه إنّ كلّ قاض لا يأخذ بهذا الرأي لا يمكن أن يحتفظ بمنصبه ولا يمكن أن يعيّن في القضاء. وقد جاء في الرسالة: "فاجمع مَن بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك. فابدأ بامتحانهم في ما يقولون وتكشيفهم عمّا يعتقدون في خلق الله القرآن واحداثه. وأعلمهم أنّ أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق في ما قلّده الله واستحفظه من أمور رعيّته بمَن لا يوثق بدينه وخصوص توحيده وبتعيينه"[١].

ولكي يضع أوامره هذه موضع التنفيذ، أنشأ محكمة تفتيش كانت الأولى من نوعها في الإسلام."ومن مهازل القدر أنّ حركته هذه التي كانت تهدف إلى تحرير الفكر، أصبحت أداة للقضاء على حريّة الفكر"[٢].

واستمرّت المحنة، كما كانوا يسمّونها، في عهد خلافة أخيه المعتصم[٣] (٨٣٣ ـ ٨٤٢). غير أنّ المتوكّل[٤]، ابن المعتصم وخليفته، انقلب عليها ووضع نهاية لها

---

١ ـ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر (ليدن ١٨٧٩) ٣: ١١٥ ـ ١١٦.

٢ ـ حتّي، صانعوا التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٢٦.

٣ ـ **المعتصم بالله**: هو محمّد بن هارون الرشيد، الخليفة العبّاسيّ الثامن (٢١٨ ـ ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ ـ ٨٤٢م)، وُلد ١٩٧هـ/ ٧٩٥م، كان أميًا، تولّى حكم مصر قبل خلافته، استعان بالجنود الأتراك، قضى على الزّط الذين عاثوا فسادًا بين البصرة وبغداد وأجلاهم إلى قيليقيا، قضى على حكم بابك في أذربيجان بفضل قائده الافشين، أنزل بالبيزنطيّين هزيمة نكراء واحتلّ عمورية، بنى سامراء.

٤ ـ **المتوكّل على الله** (٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ/ ٨٢١ ـ ٨٦١م): هو جعفر بن محمّد المعتصم، الخليفة العبّاسيّ العاشر (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، ابن المعتصم من جارية فارسيّة، حارب المعتزلة، حاول نقل عاصمته إلى دمشق غير أنّه عاد إلى سامرّاء حيث اغتاله القادة الأتراك بالاشتراك مع ابنه الأكبر المنتصر، كان موته بداية انحطاط الخلافة العبّاسيّة.

سنة ٨٤٨. وكان في رأس قائمة الضحايا الذين لاقوا حتفهم في المحنة، إمام بغداد أحمد بن حنبل، صاحب المذهب السنّيّ الحنبليّ. فقد وقف حنبل، الذي اشتهر بمحافظته الشديدة وبتزمّته في عقيدته، بوجه بدعة المعتزلة. فشدّه المأمون بالحديد وألقي به في السجن مدّة سنتين. واستمرّ اضطهاده في زمن المعتصم. وكان يُجلد، غير أنّه أبى أن يعود عن رأيه. وكان يرفض أن يرى حرفًا واحدًا يسقط من مذهب السلف الصالح. وعندما توفّي سنة ٨٥٥ مشى في جنازته ٨٦٠ ألف نسمة يبكونه ويترحّمون عليه، فكان موكب جنازته شاهدًا على تعلّق الناس بهذا الزعيم الدينيّ الذي كان يمثّل العقيدة السليمة، عقيدة السلف. وعدد الذين يزورون قبره في بغداد تبرّكًا يفوق عدد الذين مشوا في جنازته أضعافًا وأضعافًا، ممّا يدلّ على مكانته في نفوس الناس إلى يومنا هذا. ويشكّل الوهّابيّون القسم الأكبر من أتباع مذهبه[١].

المُرجئة

لقد فتحت حركة القدريّة، ومن بعدها المعتزلة، باب النّيل من صلابة موقف أهل السنّة، بعدما كانت الحركات السابقة، من سبئيّة وخوارج، قد فرّقت المعتقد في نهاية خلافة الراشدين.

في هذا الطور من مسار الإسلام، بعد القدريّة والمعتزلة، جاءت حركة المرجئة كخطوة جديدة في اتّجاه النّيل من صلابة السنّة. وكان الركن الأوّل في تعليم المرجئة، إرجاء الحكم على أصحاب الكبائر، وعدم التسليم بإخراجهم من حظيرة

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

الإيمان[1]. ذلك لأنّهم اعتقدوا أنّ الأعمال ليست شرطًا في صحّة الإيمان. وإنّما نشأ هذا الموقف من أجل تبرير موقف الخلفاء الأمويّين الذين اتُّهموا بالتهاون في تطبيق الشريعة المقدّسة. فقد ذهب أرباب هذا الرأي إلى أنّ الأمويّين مسلمون ولو اسميًّا. ولمّا كانوا، بحكم الواقع، قادة الإسلام السياسيّ، فقد وجبت لهم الطاعة على جميع المسلمين. وقالوا إن عليًّا عليه السلام ومعاوية كليهما من عبيد الله، فالحكم بشأنهما لله وحده. "وفي هذا الجوّ السمح الذي خيّم على هذه الحركة الفكريّة، نشأ الإمام الكبير أبو حنيفة (ت٧٦٧) مؤسّس المذهب الأوّل من المذاهب الفقهيّة الأربعة في الإسلام"[2].

إنّ قيام عقيدة تقول بإرجاء الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث، وبعدم إدانة أيّ مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها، وبأنّه لا تعزّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الفكر طاعة... وبأنّه لا يكن تكفير إنسان، أيًّا كان، ومهما ارتكب من المعاصي، ما دام قد اعتنق الإسلام ونطق الشهادتَين، وبترك أمر حسابه أو عقابه إلى الله وحده... كان من الطبيعيّ أن يدفع أصحاب هذه العقيدة إلى ترك الفروض التي أوجبها الدين من صلاة وزكاة وصوم، وأن يضعوا واجبات الإنسان نحو ما يحيط به من الناس فوق أداء الفروض التي جاء بها القرآن[3].

لم يكن ظهور هذه الفرق في الإسلام ذا تأثير كبير في صميم الدين الاسلاميّ، لأنّ الأكثريّة الساحقة من المسلمين بقيت تدين بالسنّة، وكان باقي الفرق، مجتمعًا، لا يشكّل

---

١ ـ راجع البغدادي، مختصر الفرق بين الفرق، نشر فيليب حتّي (القاهرة ١٩٢٤) ص٦٥ ـ ٩٤.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١١٨.

٣ ـ مظهر، قصّة الديانات، مرجع سابق، ص٥٠٠.

سوى أقليّة ضئيلة، أثّرت بعض الشيء في استقرار المجتمع الإسلاميّ وفي زخم انتشاره، ولكنّها، لم تستطع أن تؤثّر في المنحى الدينيّ الأساسيّ، وإن كان سيظهر في ما بعد، عدد آخر من الفرق التي سيبتعد بعضها كثيرًا عن دين محمّد ﷺ.

الفَصلُ الثَّالث

فِي ظِلّ خِلافَةِ الأمَوّيين

تَأسيسُ الخلافَةِ الأمَوَّيَة؛ حُروبُ مُعَاويَة؛

في عَهدِ يَزيــد؛ معاويَة الثانِي؛ مَـروان بن الحكَم؛

عبـد الملِك بن مروَان؛ في عهدَي الوَليد وأخيـه هشَــام؛

التقسيمَات والإدارَة؛ عمَر الثَّاني؛ آخِر الأمويّين.

تأسيسُ الخلافةِ الأمويّة

بمعارضـة الحجـاز والعـراق، تسـنّم أول الخلفـاء الأمويّيـن: معاويـة بـن أبـي سفيان، سدّة الخلافة. ومعه انتقل مركز الخلافة، بعد اغتيال عليّ بن أبي طالب ﷺ، إلـى دمشـق. وإذا كـانت دولـة الخلفـاء الأمويّيـن كسـابقتها المباشـرة، دولـة الخلفـاء الراشدين، من حيـث هـي دولـة عربيّـة إسلاميّة، إلاّ أن تبـدّل مركـز الخلافـة، إضافـة إلـى نوعيّـة الخلفـاء أنفسـهم، قـد حـوّل الدولـة مـن تيوقراطيّـة إسـلاميّة وإقليميّـة فـي عهد الراشـدين، إلـى دولـة عربيّـة، أكثر منهـا دينيّـة إسلاميّة، حيـث كـان لسـورية الآراميّة المسيحيّة تـأثير كبـير فـي شـخصيّة الدولـة واتّجاهاتهـا الفكريّـة، إضافـة إلـى أنّ واجهـة الدولـة قد أصبحـت: البحـر المتوسّـط، الواصـل بينهـا وبيـن أوروبّـة المسيحيّة.

فلقد أضحت دولة الخلفاء الأمويّين مملكة عربيّة. وأصبح الخليفة الأمـويّ منشـغلاً بالأمور السياسيّة أكثر ممّا هو مهتمّ بالتوجيه الدينيّ. وبينما كان القصـد مـن الفتـح فـي بداية الإسلام، أسلمة النـاس، ففـي بدايـة العهد الأمـويّ، أصبحـت حمايـة الخليفـة، والجزية، الثمن لخضوع الرعايا[1].

---

[1] ـ راجع: - DEMOMBYNES LE *MONDE MUSULMAN ET BYSANTIN*, P.179 - 197; GAUDEFROY, وراجع: بولس، التحولات الكبيرة، مرجع سابق، ص١٠٦ ـ ١٠٧.

وبينما حصلت دمشق بسرعة، في عهد الأمويّين، على طابع مقدّس، بعد أن كانت التقاليد تحفظ الشهرة والأهميّة لأمكنةٍ أمّها الأنبياء، فتزايدت حركة الحجّ إلى العاصمة الجديدة، ممّا رفع بها إلى الأَوج فغدت، بخلال قرن من الزمن، المركز الدينيّ لعاصمة الخلافة، والقلب لواحدة من الدول الكبيرة التي عرفها العالم[١]، فقد بقيت سوريّة الآراميّة مسيحيّة بأكثريّة سكانّها حتّى زوال الخلافة الأمويّة؛ وكان الأمويّون متساهلين دينيًّا، لا بل إنّهم ما "كانوا يرغبون في أن يعتنق الإسلام غير العرب الأصليّين، أي عرب الجزيرة والمتحدّرين منهم. وفي سنة ٧٢٢ م. كان يقدّر عدد السكّان في سوريّة بأربعة ملايين، وعدد المسلمين بمائتي ألف. وكانت اللغة المستعملة هي السريانيّة"[٢]. وقد بقي الأساقفة في المناطق المسيحيّة، هم الذين يصرّفون أمور أتباعهم المدنيّة. وطوال حكم الأمويّين، قلّما حصل التمييز الرسميّ بين المسلمين وغير المسلمين، على عكس ما سوف يحصل في العهد العبّاسيّ، لاحقًا.

على أنّ الدولة الأمويّة قد لاقت من المتاعب الداخليّة بسبب الخصومات والاقتتال بين الأجنحة العربيّة، ما لم تلاقه من السكّان الأصليّين. وكانت أهمّ تلك الخصومات الصراع بين عرب الجنوب الذين عُرفوا بالكلبيّين، وشكّلوا الحزب اليمنيّ[٣]. وعرب

---

١ - ELISSEFF, *DIMASK*, "ENCYCL. DE L'ISLAM". NOUVELLE EDITION. II. P. 288.

٢ - بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ١٠٨؛ وقابل: CALLOT J.P., *SYRIES*, "ENCYCL. UNIVERSALIS", VOL. 15, P. 276.

٣ - **الحزب اليمنيّ أو اليمنيّة**: إسم أطلق على أحد حزبَي العرب في الجاهليّة والإسلام، أصلهم من جنوبي الجزيرة العربيّة، كانوا ينتمون إلى قحطان، نافسهم القيسيّة المنتمون إلى قيس عيلان من مضر وأصلهم من أواسط الجزيرة وشمالها، قامت المنازعات بين الحزبين في الشام والعراق ومصر وفارس وخراسان وأفريقية والأندلس، ثمّ انتقلت إلى لبنان في القرون الوسطى والحديثة، وتزاحم الفريقان على السيادة، اختلفت قوّتهما باختلاف الخلفاء والأمراء أو العمّال.

الشمال الذين شكّلوا الحزب القيسيّ[1]، ولم يستطع الإسلام أن يزيل تلك العداوة التي ستشكّل أحد أبرز الأسباب في دمار الدولة الأمويّة في العام ٧٥٠م.

حُروبُ مُعَاوِيَة

على صعيد الفتح، فقد استأنف معاوية، أوّل الخلفاء الأمويّين، حركة التوسّع التي انتهجها أسلافه، شرقًا وغربًا. فأخضع خُراسان[2] بين ٦٦٣ و٦٧١، واجتاح بخارى[3] في أقاصي تركستان[4]، سنة ٦٧٤، وفتح مَرو[5] وبلَخ[6]

---

١ ـ **الحزب القيسيّ أو القيسيّة**: إسم أطلق على أحد حزبَي العرب في الجاهليّة والإسلام نسبة إلى قيس عَيلان من مضر وأصلهم من أواسط الجزيرة وشمالها، نافسهم اليمنيّة. ـ راجع أعلاه.

٢ ـ **خُراسان**: كلمة مركّبة من "خور" أي شمس، و"اسان" أي مشرق، بلاد قديمة في آسية بين نهر أمودريا شمالاً وشرقًا وجبال هندوكوش جنوبًا ومناطق فارس غربًا، امتدّت أحيانًا إلى بلاد الصغد (ما وراء النهر) وإلى سجستان جنوبًا. تتقاسمها اليوم إيران الشرقيّة الشماليّة (نيسابور) وأفغانستان الشماليّة (هراة وبلخ) وتركمانستان (مرو)، غزاها الضحّاك ٦٥٦ وحشد فيها أبو مسلم الخراساني ودعاة العبّاسيّين ٧٤٨ الجيوش التي قضت على الخلافة الأمويّة في الشرق.

٣ ـ **بخارى** BUKHARA : مدينة في جنوب غرب الاتحاد السوفياتي السابق، في أوزباكستان UZBEC، اشتهرت بمساجدها ومدارسها في القرن الثاني عشر، أكثر سكّانها مسلمون.

٤ ـ **تركستان**: في آسية الوسطى بين سيبيريا وبحر قزوين وإيران وأفغانستان والهند ومنغوليا، كانت منقسمة بين الصين والاتحاد السوفياتي، دخلها المسلمون ابتداء من ٧٥١، القسم الصيني يؤلف مقاطعة سين كيانغ، والقسم السوفياتي السابق بات يؤلّف جمهوريّات تركمانستان (أوزباكستان، طشقند، تادجيكستان، القرغير، قازخستان) وكانت عاصمتها أشخباد.

٥ ـ **مَرو**: مدينة في تركمانستان، هي اليوم ماري، فتحها العرب ٦٥١، منها خرج أبو مسلم الخراساني، خرّب المغول سدّ المرغاب مصدر ثروتها الزراعيّة ١٢٢١.

٦ ـ **بلَخ**: مدينة كانت ذات شأن في العصور القديمة والوسطى، هي اليوم قرية صغيرة في أفغانستان، فتحها الأحنف بن قيس ٦٥٣، جعلها أسد بن عبدالله القسري ٧٢٥ عاصمة مقاطعة خراسان، اجتاحتها قبائل جنكزخان فدمّرتها ١٢٢٠.

وهَراة[1]؛ وغربًا، أنشأ في أفريقية مدينة القَيروان[2] سنة ٦٧٠، وجعلها قاعدة حربيّة في وجه البربر[3]، وباعتناق هؤلاء الإسلام، وانضوائهم تحت لواء الجيش العربيّ، أصبحوا من أبرز المستخدَمين في الحملات التي تابعت الزحف إلى شمالي أفريقية، وعملت في ما بعد على فتح إسبانيا[4]. وكان معاوية قاتَل البيزنطيّين، وحاول مرّتَين إخضاع القسطنطينيّة نفسها، ولكنّها لم تسقط، وبقيت في أيدي البيزنطيّين حتّى أيّام الأتراك. وعجز العرب عن تثبيت أقدامهم في آسية الصغرى[5]، أو عن عبور مضيق

---

١ - هَراة: مدينة في شمال غربي أفغانستان، يُنسب بناؤها إلى الإسكندر، شهيرة بجامعها العائد إلى القرن الخامس عشر.

٢ - القَيرَوان: مدينة في تونس، هي اليوم مركز ولاية القيروان، أنشأها في عهد معاوية عقبة بن نافع ٦٧٠، عاصمة الأغلبة في القرن التاسع، والفاطميّين إلى جانب المهديّة حتّى احتلال القاهرة ٩٧٣، شهيرة بمسجدها، كانت دارًا للصناعة ومحطًّا للقوافل وسوقًا للتجارة، مركز زراعي وسياحي. والقَيرَوان CYRÉNAÏQUE: منطقة صحراويّة في جمهوريّة ليبيا العربيّة، كثيرة الواحات، يرتفع فيها شمالاً الجبل الأخضر، من مدنها بنغازي.

٣ - البَربَر BERBÈRES: إسم يُطلق على سكّان أفريقية الشماليّة، من برقة إلى المحيط، الذين كانوا يتكلّمون لهجات أعجميّة قبل استعرابهم أو لا يزالون، يرجع أصلهم إلى فئات عرقيّة مختلفة استقرّت في البلاد قبل الميلاد وعرفت بعض الازدهار (مملكة نوميديا، مملكة موريتانيا) اختلط بهم الفينيقيّون واليونان اختلاطًا عابرًا، لم يرتاحوا تمامًا إلى حكم روما ولا إلى الدين المسيحي فمالوا إلى التمرد مع الأوّل وإلى البدع مع الثاني (دوناتيّة)، سهّلوا غزو الفاندال لأفريقية ولم يسالموا البيزنطيّين، دخل أكثرهم الإسلام مع عقبة بن نافع ورافقوا الجيش العراقي في فتوحاته إلى إسبانيا بقيادة أحدهم طارق بن زياد، تبعوا الخوارج وأعلنوا العصيان على العباسيّين، توزعوا ممالك وسلالات فكان منهم الأغالبة والرستميّون والمرابطون والموحدون ثمّ زالت دولهم في أواخر القرن الثالث عشر، فاختلط أهل المدن منهم بالعرب واعتصم الآخرون في جبال الأوراس والأطلس وفي الريف وبلاد القبائل والصحراء حيث لا يزالون حتى اليوم وقد حافظوا على عاداتهم ولهجاتهم.

٤ - بولس، التحولات، مرجع سابق، ص١١٠.

٥ - آسية الصغرى: شبه جزيرة بأقصى غرب آسية، تُسمّى أيضًا الأناضول، يحدّها البحر الأسود شمالاً، والبحر المتوسّط جنوبًا، وبحر إيجه غربًا، ويصل البحر الأسود ببحر إيجه بحر مرمرة ومضيقا البسفور والدردنيل، ويقرب الساحل الجنوبي لآسية الصغرى تمتدّ جبال طوروس، بينما يتألف باقي شبه الجزيرة من هضبة تعلوها الجبال وتكثر فيها البحيرات، وكانت آسية الصغرى ملتقى الحضارتين الشرقيّة والغربيّة في العصور القديمة، إذ يربطها نهرا دجلة والفرات بالعراق، وتربطها سواحلها باليونان، ظهرت المستعمرات اليونانيّة على السواحل بعد تدهور الحيثيّين وبذلك اتّصل اليونانيّون بكلّ من ليديا وفيرجيا وطروادة، وأدى غزو الفرس لآسية الصغرى إلى الحروب الفارسيّة، وأدمج الإسكندر الأكبر الإقليم في أمبراطوريّته وبعد وفاته قسمت إلى ولايات

الدردنيل[1]، لذلك وجّهوا جهودهم إلى التوسّع شرقًا وغربًا، حيث كانت المقاومة على أقلّها. وهكذا استأنف الإسلام في أواخر أيّام معاوية مسيره إلى الأمام[2]. وممّا يجدر ذكره، أنّ معاوية، بنى أوّل أسطول بحريّ في الإسلام، قبل تولّيه الخلافة، وبه دخل الإسلام الحروب البحريّة حوالى سنة ٦٤٩.

يجب ألاّ تُعتبر الحروب التي جرت بين معاوية، ومَن تلاه من الأمويّين، من جهة، والشيعة من جهة أخرى، على أنّها حروب بين السنّة والشيعة. إنّما هي كانت بين الخلفاء الأمويّين بفرعَيهم: المروانيّ والسفيانيّ من جهة، والشيعة من جهة أخرى. ولم تكن بداية العهد الأمويّ، مَرضيًّا عنها من قبَل الإسلام المحافظ، الذي أنكر على معاوية تحويل الخلافة، وهي التي جعلها التقليد بعد الدين، حكمًا دينيًّا، إلى نوع من الحكم المدنيّ، فاعتُبر معاوية أوّل ملك في الإسلام[3]. وكان العرب يكرهون هذا اللقب، إنّما يطلقونه، على السلاطين الأعاجم. وقد أخذوا على معاوية أيضًا أنّه أحدث الكثير من البدع المنكرة، منها "المقصورة" التي أنشئت للمحافظة على حياة الخليفة، بعد المحاولة الفاشلة التي استهدفت معاوية وهو يؤدّي فريضة الصلاة. والمقصورة كناية عن خلوة داخل المسجد للخليفة دون سواه. ومن المآخذ أيضًا، أنّ الخليفة بات يلقي خطبة الجمعة وهو جالس، ولم يقبلوا عذر معاوية في ذلك، وهو أنّه

صغيرة وحّدها الرومان من جديد ولكنها كانت موضع هجوم شبه مستمرّ من الغزاة في ظلّ الأمبراطوريّة البيزنطيّة، سقطت بيد العرب والأتراك السلاجقة واستعادها الغرب موقّتًا على أيدي الصليبيّين، استولى عليها الأتراك العثمانيّون في ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، دخلت بعد ذلك ضمن الأمبراطوريّة العثمانيّة.

١ ـ الدردنيل DARDANELLES : مضيق يقع بين شبه جزيرة البلقان وآسية الصغرى، يصل بحر إيجه ببحر مرمرة، نظّمت المرور فيه معاهدة مونترو ١٩٣٦.

٢ ـ حتّي، العرب، تاريخ موجز، ص ٨٣، ٨٥، ٨٦.

٣ ـ راجع: ابن خلدون، المقدّمة، (القاهرة) ص ١٦٩ وما يليها.

أصبح في سنيه الأخيرة بدينًا جدًّا كبير البطن. وكان لاتّخاذه سرير الملك ردّة فعل مشمئزّة من المحافظين[1].

وبينما لم يعيّن الرسول عند مماته خليفة له، وكذلك الخليفة الثالث عمر بن الخطّاب، الذي أوصى بمجلس شورى، يتوافق على خليفة بخلال ثلاثة أيّام، وقد اكتفى الخليفة الثاني أبو بكر بتسمية عمر، خليفة، فإنّ أوّل الخلفاء الأمويّين، معاوية، قد سجّل سابقة خطيرة في الإسلام، مثبّتًا بذلك أنّه قد حوّل نظام الخلافة إلى نظام مُلك. كان ذلك بتعيينه ابنه يزيد خلفًا له، قبل وفاته بحوالى ستّة أشهر. أي أنّ معاوية قد عيّن لأوّل مرّة في تاريخ الخلافة، وليًّا للعهد، وراح يستقدم الوفود من الأمصار ويأخذ منهم البيعة له، ومَن لم يكن مواليًا من تلك الوفود، أخذه بالتملّق أو بالإكراه أو بالرشوة[2]، وكلّ ذلك مخالف للسنّة... وللإسلام.

---

١ - راجع: اليعقوبي، مرجع سابق،٢: ٢٦٥؛ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر (ليدن ١٨٧٩)، مرجع سابق، ٢: ١٧٠؛ المبرّد، الكامل، نشر WIPPÉAN WRIGHT (لندن،١٨٦٤) ص ٥٥٢؛ الدينوري، الأخبار الطوال، نشر (ليدن،١٨٨٨) ص٢٢٩.

٢ - راجع: ابن عساكر، التاريخ الكبير (دمشق) ٤: ٣٢٧ - ٣٢٨؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد (القاهرة، ١٣٠٢ هـ) ٥: ٣٠٦ وما بعدها.

في عَهدِ يَزيـــد

ما أن تولّى يزيدُ بن معاوية، الشابّ المستهتر، من بعد أبيه معاوية، الحاكم الحازم، في العام ٦٨٠، حتّى تشجّعت الأحزاب المعارضة لحكم الأمويّين مـن شيعة علـيّ ﷺ على الانتفـاض والتمـرّد. فعمـد الحسين، ثـاني أبنـاء علـيّ ﷺ وفاطمـة بعـد الحسن، مدفوعًا بنداءَات العراقيّين المتكرّرة، إلى إعـلان نفسه الخليفـة الشرعيّ بعـد الحسـن، ووالده عليّ ﷺ[1]. فكانت واقعة كربلاء، على بعد ٢٥ ميلاً عن الكوفـة شمالاً بغـرب، حيث دارت الدائرة على الحسين وأتباعه، فقُتل حفيد الرسول ﷺ، وتمزّقت جماعتـه، وأُرسل رأس الحسـين إلـى يزيـد فـي دمشـق، فأعـاده إلـى أخـت الحسـين وابنـه اللذَين أخـذاه ودفنـاه فـي كربـلاء[2]... حيـث وُلـد المذهب الشيعيّ؛ وكـان دم الحسين، علـى مـا تبيّن فـي مـا بعـد، أفعـل فـي إذكـاء مذهب الشيعة حتّـى مـن دم علـيّ ﷺ نفسه. وصـار الاعتقاد بإمامة ﷺ عليّ، وخلافة ذريّته من بعده، فـي المذهب الشيعيّ، نظير الاعتقاد بنبوّة محمّد ﷺ عند أهل السنّة وسائر المسلمين. وغدا يوم كربلاء، وثـأر الحسين، صيحـة الاسـتنفار عنـد الشيعة، الذيـن صـار هدفهـم الأوّل، تقويـض الحكـم الأمويّ.

لم يُنهِ القضاء على الحسين النزاع على الخلافة بين المسلمين، ذلك أنّه كان نزاعًـا مثلّث الأركان، سياسيًّا وقَبَليًّا، وإن كان متنّاها عقائديًّا. فإنّ عبـد اللـه بـن الزبَير، بـرز الآن مُطالبًا بالخلافة، وهو ابن الزبير بن العوّام، ابن عمّة النبيّ ﷺ، الذي كان صحابيًّـا

---

١ ـ راجع: الدينوري، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ الفخري بن طقطقي، نشر ديرنبرغ (باريس،١٨٩٤ ـ ١٨٩٥) ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤؛ راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٢ ـ راجع: الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

من العشرة المبشّرة، وقد قاتل في جميع غزوات النبيّ ﷺ. فالتفّت الحجاز حول عبد الله، ونادت به أمير المؤمنين. عندها خفّ يزيد إلى إرسال حملة تأديبيّة لإخضاع الثائرين في عاصمة الخلافة الأصيلة: المدينة، وكانت الحملة تضمّ عددًا كبيرًا من نصارى الشام... نشب القتال في آب (أغسطس) ٦٨٣. ويذكر بعض المؤرّخين أنّ جنود يزيد قد استباحوا المدينة وانتهكوا حرمتها، فلجأ ابن الزبَير إلى مكّة المكرّمة، على اعتبار أنّها ذات حرمة، وأنّ أرضها مقدّسة. وهذا لم يمنع جنود يزيد من اللحاق به، ولم ينجُ الحرم المقدّس من الإصابة بالمنجنيق، واتّصلت النار بالكعبة فأحرقتها برمّتها، وكذلك الحجر الأسود، أقدس الآثار الإسلاميّة. فقد "تصدّع ثلاثة[١] وبدا بيت الله مجرّدًا من كسوته... كأنّه الثكلى قد شقّت الجيب"[٢].

وفي ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ٦٨٣، توقّف القتال الذي كان قد نشب في ٢٤ أيلول (سبتمبر)، إذ توفّي في دمشق يزيد، بعد أن "قتل الحسين بن عليّ عليه السلام وأهل بيت الرسول في سنته الأولى، واستباح حرم رسول الله وانتهك حرمته في السنة الثانية، وسفك دماء في حرم الله وأحرق الكعبة في السنة الثالثة من ولايته"[٣]، ولم تكن ولايته سوى ثلاث سنوات. علمًا بأنّ يزيد بن معاوية، لم يحجّ إلى مكّة المكرّمة، بل أقام الحجّ في سنوات ولايته عمرو بن سعيد بن العاص، والوليد ابن عتبة.

---

١ ـ راجع: اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٥٣؛ الدينوري، مرجع سابق، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥؛ الطبري، مرجع سابق، ١: ٢٢٢٠.

٢ ـ الطبري، مرجع سابق، ٢: ٤٢٧.

٣ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٥٣.

معاويَة

الثانِـي

ما إن مات يزيد، حتّى انسحب جيش الأمويّين فجأة من الحجاز، حيث نودي على الأثر، بابن الزبَير خليفة. وشملت المناداة جنوبيّ الجزيرة والعراق، فسارع ابن الزبَير إلى تعيين الضحّاك بن قيس الفهريّ، زعيم الحزب القيسيّ، واليًا على الشام، وهو من عرب الشمال الذين طالما قاوموا الأمويّين.

في هذه الأثناء، كان قد تسنّم سدّة الخلافة الأمويّة بعد يزيد، ولده معاوية (الثاني) الذي فاجأ الناس بموقف نبيل، غير متوقّع، عندما خطب بهم قائلاً:

> ... إنّا بُلينا بكم وبُليتُم بنا، فما نجهل كراهتكم لنا وطعنَكم علينا، ألا وأنّ جدّي معاوية... نازع الأمر مَن كان أولى به منه في القرابة برسول الله ﷺ، وأحقّ في الإسلام، سابق المسلمين، وأوّل المؤمنين، وابن عمّ رسول ربّ العالمين ﷺ... فركب منكم ما تعلمون، وركبتم منه ما لا تنكرون... ثمّ قلّده أبي وكان غير خليق للخير!، فركب هواه، واستحسن خطأه، وعظم رجاؤه، فأخلفه الأمل، وقصر عنه الأجل، فقلّت منعته، وانقطعت مدّته، وصار في حفرته رهنًا بذنبه، وأسيرًا بجرمه...

ثم بكى وقال:

> إنّ أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه وقبح منقلبه، وقد قتل عترة الرسول ﷺ، وأباح الحرمة، وحرق الكعبة، وما أنا المتقلّد أموركم، ولا المحمّل تبعاتكم، فشأنكم أمركم، فوالله لئن كانت الدنيا مغنمًا لقد نلنا منها حظًّا، وإن تكن شرًّا فحسب آل أبي سفيان ما أصابوا منها.

فقال له مروان بن الحكَم: "سِنّها فينا عمريّة"[1].

---

١ ـ المقصود، أن يسميّ لهم نفرًا كأهل شورى ليعيّنوا خليفة من بعده.

قال:

ما كنت أتقلّدكم حيًّا وميتًا، ومتى صار يزيد بن معاوية مثل عمر؟ ومن لي برجل مثل رجال عمر؟[1]

كان كلام معاوية بن يزيد هذا، وهو على فراش الموت، بعد تسنّمه سدّة الولاية بأقلّ من شهرَين. وقد تُنوزع في سبب وفاته، "فمنهم مَن رأى أنّه سُقي شربة، ومنهم مَن رأى أنّه طُعن، ومنهم مَن رأى أنّه مات حتف أنفه".

وفي أثناء دفن معاوية الثاني في دمشق، وهو ابن الثانية والعشرين، صلّى عليه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، "ليكون له الأمر من بعده؛ فلمّا كبّر الثانية، طُعن فسقط ميتًا قبل ان يُتمَّ الصلاة؛ فقدم عثمان بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فقالوا: ـ نبايعك ـ قال: ـ على أن لا أحارب ولا أباشر قتالا ـ؛ فأبوا ذلك عليه، فسار إلى مكّة المكرّمة ودخل في جملة ابن الزبَير. ولم يتقدّم إذ ذاك أحد من السلالة السفيانيّة الأمويّة" فانتقلت الخلافة، أو انتقل المُلك، إلى أوّل المروانيّين من بني أميّة: مروان بن الحكَم.

مَـــروان
ابن الحكَم

رشّح مروان بن الحكَم نفسه للخلافة، "فاجتمع الناس بالجابية من أرض دمشق، فتناظروا في ابن الزبَير وفي ما تقدّم لبني أميّة عندهم، وتناظروا في خالد بن يزيد بن معاوية، وفي عمرو بن سعيد بن العاص بعده، وكان روح بن زنباع الجذاميّ يميل مع مروان، فقام خطيبًا، فقال:

---

١ ـ اليعقوبي، ٢: ٢٥٤؛ قابل: المسعودي، مروج الذهب، ٣: ٢٧١.

يا أهل الشأم! هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، والطالب بدم عثمان. والمقاتل لعليّ بن أبي طالب يوم الجمل وصفّين، فبايِعوا الكبير، واستتبِيبوا للصغير، ثم لعمرو بن سعيد.

... فبايَعوا لمروان بن الحكم، ثمّ لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد[١].

وإذ كان ابن الزبير، الذي بويع خليفة في الحجاز، قد عيّن الضحّاك، زعيم القيسيّة*، على الشام، تحرّك اليمنيّون*، فتداعوا إلى نصرة "الخليفة المسنّ الشرعيّ مروان بن الحكَم، وأنزلوا بالضحّاك وجماعته هزيمة نكراء. كان ذلك في شهر تمّوز (يوليو) ٦٨٤ في مرج راهط، وهو سهل إلى الشمال الشرقيّ من دمشق... وكانت معركة مرج راهط: "صفّين" أخرى، في مصلحة الأمويّين، وهي آخر معركة وقعت في الفتنة الأهليّة الثالثة في الإسلام"[٢].

عبد الملِك
بن مروَان

لم تكن هزيمة الضحّاك في الشام، لتقضي على الزبَير، الذي كانت خلافته لا تزال ناشطة في الحجاز. فسارع الخليفة الأمويّ الجديد، عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) الذي كان قد تولّى بعد أبيه مروان الأوّل (٦٨٤ ـ ٦٨٥) إلى تسيير حملة بقيادة

---

١ ـ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٢٥٦.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٥٨.

الحَجّاج بن يوسف[1]، على رأس جيش من عشرين ألف مقاتل. وقد ضرب حصارًا حول مكّة المكرّمة استمرّ ستّة أشهر ونصف، بدْؤه في ٢٥ آذار (مارس) ٦٩٢. "ولم يكن الحجّاج أكثر تحرّجًا في رمي المدينة المقدّسة بالمنجنيق من زميله السابق... لكنّ ابن الزبَير واصل النضال مدفوعًا بتحريض من أسماء: ابنة أبي بكر، وأخت عائشة؛ إنّما كان قتالاً يائسًا، انتهى بذبحه، وإرسال رأسه إلى الشأم. أمّا جثمانه فقد صُلب مقلوبًا، ثم دُفع إلى أمّه. وهذه أولى حوادث الصلب في المدوّنات الإسلاميّة".

كان ابن الزبَير آخر علَم من أعلام الإسلام الأوّلين، وبوفاته تمّ الأخذ بثأر عثمان، وتحطّمت قوّة الأنصار إلى الأبد. وبه سلّم الإسلام بوضعه الجديد. وتهيّأ للاعتبار السياسيّ أن يسود الاعتبار الدينيّ في سلطان الدولة سيادة تامّة. ومنذ ذلك الحين، غدا مقام مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة في التاريخ مقامًا ثانويًّا، وأصبح تاريخ الجزيرة أحفل بتأثير العالم الخارجيّ فيها منه بتأثيرها في العالم الخارجيّ، ذلك أنّ "الجزيرة الأمّ، كانت قد استنفدت نفسها". وقد بسط الحجّاج بن يوسف سلطة الدولة المروانيّة الأمويّة على الحجاز واليمن واليمامة، بينما بقي العراق في حالة غليان، إذ أصبحت أرضه موئلاً للزبيريّة والشيعة والخوارج. وكان هؤلاء الأخيرون الأشدّ تمرّدًا، فجعلوا الشرق في غليان دائم، وقد انتشروا من العراق إلى فارس، واجتاحوا الأهواز[2]

---

١ ـ **الحَجّاج بن يوسف الثّقفي** (ت٩٥هـ/ ٧١٤م): قائد وخطيب عربيّ، وُلد في الطائف، اشتهر بولائه للبيت الأمويّ، ولاّه عبد الملك بن مروان إمرة جيشه فقضى على ابن الزبير وابن الأشعث وتولّى مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة والطائف والعراق، أسّس مدينة واسط في العراق وبها توفّي، وسّع حدود الأمبراطوريّة العربيّة حتّى آسية الوسطى، قضى على الخوارج، عُني بشؤون الريّ والإصلاح النقديّ، اشتهر بالخطابة والشدّة في الحكم.

٢ ـ **الأهواز**: منطقة في غربي إيران على الخليج، هي اليوم غنيّة بالنفط، من مدنها عبادان والأهواز.

وكرمان[1]، واحتلّوا الرَّيّ[2]، وحاصروا أصفهان[3]، وأعملوا النهب والسلب، بعد ان انقسموا إلى عدّة فرق دينيّة متطرّفة. والتقت حركتهم في فارس بحركة الموالي الناشئة المعارضة للعرب الأسياد. وهم أولئك "الفرس الذين اعتنقوا الإسلام على اعتبار أنّه قد ساوى بين جميع الذين انضمّوا إليه، لكنّهم سرعان ما أصيبوا بخيبة، وشعروا أنّهم كانوا مخدوعين".

على أنّ إناطة أمر العراق وفارس من قبَل الخليفة الأمويّ بالحجّاج بن يوسف، سنة ٦٩٤، والتي لم تكن أقلّ خطورة من أمر الحجاز، قد وضعت حدًّا لكلّ خروج على الأمويّين. فقد تمكّن الحجّاج من فرض هيبة الدولة بالقوّة، وقد بلغ ما زهقه من أرواح، بحسب مؤرّخي الحقبة، حوالى ١٢٠ ألفًا. وعندما توفّي في سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م، وُجد في سجونه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة[4]. وإذ كانت فارس داخلة في ولايته، استطاع قائده "المهلّب[5]" أن يقضي على أشدّ فرق الخوارج خطرًا وتطرّفًا، وهم الأزارقة، أتباع نافع بن الأزرق[6]، الذي تطرّف بتعليمه إلى حدّ اعتبار

---

١ ـ كرمان: إقليم قديم في إيران، يقع جنوب غربي صحراء لوط بين مكران وفارس، شرع بفتحه الربيع بن زياد قائد أبي موسى الأشعري وأتمّه ابن مسعود.

٢ ـ الرّيّ: مدينة قديمة في شمال ايران جنوب شرقي طهران، فتحها العرب في زمن عمر على يد عروة بن زيد الخيل ٢١ هـ/ ٦٤٢م، فيها وُلد هارون الرشيد.

٣ ـ أصفهان أو أصبهان: مدينة في إيران بين شيراز وطهران، أعطت عددًا كبيرًا من الأدباء، اتّخذها عبّاس الأوّل له في القرن ١٧ وبنى فيها المسجد المعروف، تشتهر بتجارة الحرير والطنافس.

٤ ـ أنظر: المسعودي، التنبيه والإشراف، نشر دي غويه (ليدن،١٨٩٣) ص ٣١٤؛ الطبري، مرجع سابق، ٢: ١١٢٣.

٥ ـ المهلّب بن أبي صُفرة (ت٨٣هـ/ ٧٠٢م): أمير من القادة، ولّي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير، حارب الخوارج الأزارقة نحو ٢٠ سنة حتّى تغلّب عليهم، ولّي خراسان لعبد الملك بن مروان وتوفّي فيها.

٦ ـ نافع بن الأزرق (ت٦٥هـ/ ٦٨٥م): زعيم الأزارقة الخوارج، اجتاح قرى السواد ونهب وسبى، قتل في وقعة دولاب أيّام خلافة عبد الله بن الزبير.

كلّ مَن ليس "خارجيًا" هو ملحد، حتّى ولو كان مسلمًا. وقد أحلّ الحجّاج دم الأزرق ودم زوجته وأولاده[1]. وقد وصل قوّاد الحجّاج، إلى ما وراء فارس: إلى وادي الأندلس. وكان الحجّاج شديد الاعتماد في عاصمته: "واسط[2]" التي بناها في بغداد، على حامية من الجيش الشاميّ، كانت شديدة الولاء له، وكان بها شديد الوثوق[3].

في عهدَي الوَليد
وأخيه هشَام

بلغت الأمبراطوريّة الإسلاميّة أوسع حدودها في عهد خلافة الوليد (٧٠٥ ـ ٧١٥) وأخيه هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣) إبني عبد الملك بن مروان، فكانت تفوق باتّساعها مساحة الأمبراطوريّة الرومانيّة في أوسع حدودها. ففي هذا العهد تمّ للعرب نهائيًا إخضاع ما وراء النهر[4]، وإعادة فتح شماليّ أفريقية وفرض الاستقرار فيها، والاستيلاء من ثمّ على شبه جزيرة أيبيريا[5]. وقد امتدّت الأمبراطوريّة الإسلاميّة إذ ذاك من شواطئ

---

١ ـ الشهرستاني، الملل والنحل، نشر كورتن (لندن،١٨٤٦) ص ٨٩ ـ ٩٠؛ الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٠٠٣ وما يليها.

٢ ـ واسط: مدينة في العراق بين البصرة والكوفة، أنشأها الحجّاج بن يوسف الثقفي ٧٠٢ ـ ٧٠٥، كانت قاعدة العراق العجميّ في العهد الأمويّ.

٣ ـ راجع حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٤٦٣؛ تفاصيل حملة الحجّاج على العراق في المجلّد التاسع عشر من هذه الموسوعة.

٤ ـ نهر سيحون: وهو جاكسارتس، وحديثًا سردرايا، وهو الحدّ الطبيعيّ والسياسيّ والجنسيّ الفاصل بين الإيرانيّين والترك، وكان عبوره أوّل تحدّ مباشر من العرب للشعوب المنغوليّة، ومن الإسلام للديانة البوذيّة.

٥ ـ شبه جزيرة أيبيريا: إسم أطلق على شبه جزيرة إسبانيا والبرتغال.

المحيط الأطلسيّ وقمم البيرينيه[1]، حتّى الأندلس[2] وحدود الصين. وهذا ما لم تبلغه الأمبراطوريّة الإسلاميّة قبلاً، وما لن يكون لها من بعد.

---

١ - البيرينيه PYRÉNÉES : سلسلة الجبال الفاصلة بين فرنسا وإسبانيا، تمتد على طول ٤٣٥ كلم بين الأطلسي والمتوسّط، ذروتها "بيك دانيتو" ٣,٤٠٤م.

٢ - الأندلس ANDALUCIA : إسم عُرف به جنوب إسبانيا بعد أن احتلّها الواندال فأخذ عنهم إسمه: واندالوسيّا، ثمّ أطلقه العرب على شبه جزيرة أيبيريا عامّة بعد أن دخلوها، استقلّت الأندلس عن العبّاسيّين وكوّنت إمارة قرطبة في عهد الخليفة الأمويّ الأندلسيّ عبد الرحمن الأوّل ٧٥٢، تلاشت الإمارة فعقبها دويلات حكمها ملوك الطوائف ١٠٣١ ومن بعدهم المرابطون ثمّ الموحّدون، هزمهم الإسبان في وقعة العقاب ١٢١٢، بعدها انحصر سلطان العرب في مملكة غرناطة ١٢٣٦ ـ ١٤٩٢ لعُرفت بالأندلس بالمعنى المحصور، والأندلس اليوم ولاية في إسبانيا الجنوبيّة تتألّف من ثمانية أقضية، فيها جبال سييرّا نيفادا وذروتها ٣,٤٧٨م.

التقسيمَات والإدارَة

كانت الأقسام الإداريّة في الخلافة الأمويّة تعتمد النظام البيزنطيّ في المناطق الغربيّة، والنظام الفارسيّ في المناطق الشرقيّة. وكان أهمّ تلك المناطق، تسع:

١ - بلاد الشام ومحيطها وتضمُّ سورية وفلسطين ولبنان والأردن؛ ٢ ـ الكوفة وسائر العراق؛ ٣ ـ البصرة مضمومة إليها فارس وسجستان وخراسان والبحرين وعُمان، وربّما نجد واليمامة أيضًا؛ ٤ ـ أرمينيا؛ ٥ ـ الحجاز؛ ٦ ـ كرمان، ملحقة بمنطقة الحدود الهنديّة؛ ٧ - مصر؛ ٨ - أفريقية؛ ٩ - اليمن وسائر القسم الجنوبيّ من الجزيرة العربيّة.

وقد وُزّعت هذه المناطق التسع على خمس ولايات هي:

ولاية العراق، وقد اشتملت على الجانب الأعظم من فارس وشرقيّ الجزيرة العربيّة، وقاعدتها مدينة الكوفة؛ وولاية الحجاز وقد ضمّت اليمن والإقليم الأوسط من الجزيرة العربيّة؛ وولاية الجزيرة (القسم الشماليّ من أرض ما بين النهرين)، وقد أُلحقت بها أرمينيا وآذربيجان وأقسام من شرقيّ آسية الصغرى وولاية مصر، مع منطقتَي الصعيد والدلتا؛ وأفريقية، مشتملة على شماليّ أفريقيا وغربيّ مصر؛ ثمّ الأندلس وجزر المتوسّط، وقاعدتها مدينة القيروان[1]. وكان لكلٍّ من هذه الولايات الخمس، نوع من الحكومة الإقليميّة، تُدير شؤون الولاية السياسيّة والدينيّة والماليّة. وكان الوالي يعيّن العمّال على المناطق، ويتحمّل مسؤولية أعمالهم تجاه الخليفة، كما

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٨٦.

أنّه كان يضطلع بأعباء الشؤون السياسيّة والإداريّة والعسكريّة. على أنّ المشرف على جباية الموارد كان أحيانًا موظّفًا خاصًّا يُدعى صاحب الخراج، وكانت صلته بالخليفة رأسًا. أمّا مورد الدولة الرئيسيّ فكان الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة. وكانت النفقات الإقليميّة تسدّد من الموارد المحليّة، ولا يرسَل إلى خزانة الخليفة إلاّ الوفر الباقي على صورة رصيد.

وكان القضاة يعيَّنون من قِبَل الولاة، الذين كانوا يختارونهم مبدئيًّا، من بين العلماء الذين تفقّهوا بالقرآن والحديث. وكان القضاة يتولّون القضاء في أمور الرعايا المسلمين جبرًا، وغير المسلمين اختيارًا، إذ كان بوسع غير المسلمين أن يتقاضوا عند رؤسائهم الدينيّين إذا كانت الدعاوى على غير علاقة بمسلم.

وكان في ما أنشأ معاوية ديوان الخاتم، وهو مكتب حكوميّ مهمّته استخراج نسخة عن كلّ وثيقة رسميّة قبل ختمها وإرسالها في سبيلها[١]، وتُجمع هذه النسخ في ملفّات خاصّة.

أمّا الجيش الأمويّ فبقي منظّمًا على غرار الجيش البيزنطيّ: خمس فرق هي: القلب والميمنة والميسرة والطليعة والساقة، حتّى جاء مروان الثاني، آخر الخلفاء الأمويّين (٧٤٤ ـ ٧٥٠) وأبطل هذا التنظيم، وآثر عليه نظام الكراديس (واحدتها كردوسة)[٢]، وهي وحدات صغيرة مُتراصّة سريعة الحركة. وكانت قوى الجيش الرئيسيّة المقيمة في دمشق، تتألّف من أهل الشام ومن العرب الذين نزحوا إلى الشام

---

١ ـ الطبري، مرجع سابق، ٢: ٢٠٥ ـ ٢٠٦؛ الفخري، مرجع سابق، ص ١٤٩.

٢ ـ الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٩٤٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، نشر ترنبرغ (ليدن،١٨٧١) ٥: ٢٧٦؛ ابن خلدون، كتاب العبر، ٣: ١٦٥، ١٩٥.

وتوطّنوها. وقد احتفظ السفيانيّون الأمويّون بجيشٍ عدده ستّون ألفًا، بلغت نفقاته السنويّة ستّين مليون درهم، لكنّ يزيد الثالث الذي حكم في العام ٧٤٤ قد أجرى بعض التخفيضات، لذلك عُرف بالناقص، وفي عهد خلفه إبراهيم، الذي حكم في العام نفسه، وكان آخر الأمويّين، كان عدد أفراد الجيش لا يزيد عن الإثني عشر ألفًا[١]. كذلك كان أكثر ملاّحي الأسطول العربيّ من السوريّين، أمّا نظام هذا الأسطول، فقد كان منقولاً عن النظام البيزنطي[٢].

عمَر الثّاني

كانت حياة الخلفاء الأمويّين في دمشق حياة بذخ وترف بالقياس إلى حياة الخلفاء الراشدين. وحده عمر من الخلفاء الأمويّين (٧١٧ ـ ٧٢٠) كان متعبّدًا، وكان هدفه الأسمى أن يتأثّر خطى جدّه لأمّه، ثاني الخلفاء الراشدين، الذي حمل اسمه. فإنّ الخليفة عمر بن عبد العزيز الأمويّ، المعروف بعمر الثاني، وهو الخليفة الأمويّ الثامن، كان يرتدي الثياب المرقّعة، ويختلط برعاياه اختلاطًا كان يعسر معه على مَن قصده لرفع ظلامته إليه، أن يميّزه من بينهم[٣]. أمّا بالنسبة لسائر الخلفاء الأمويّين، فإنّ صلات الناس بهم أخذت تخضع لضرب من البروتوكول. وبدأ يشيع استعمال الأثواب

---

١ ـ تاريخ أبو الفداء، ١: ٢٢٢؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٨٩.

٢ ـ راجع: البلاذري، فتوح البلدان، نشر DE GOEGE M.J. (ليدن،١٨٦٦) ترجمة د. فيليب حتّي (نيويورك،١٩١٥) ص ١١٧؛ LE STRANGE GUY, *PALESTINE* UNDER THE MOSLEMS (BOSTON,1890) P. 342.

٣ ـ أنظر ابن الجوزي، سيرة عمر بن عبد العزيز (القاهرة،١٣٣١) ص ١٧٣ ـ ١٧٤، ١٩٥ وما يليها.

الرسميّة المطرّزة من قبل الخلفاء، وصارت كلّ مقتنيات البلاط تزخر بالمرصّعات والزخارف، وعرفت لياليهم السمر ومجالس الأُنس، حتّى إنّ بعضهم كان يتعاطى الخمور، وأخصّ هؤلاء يزيد بن معاوية الذي عُرف بـ "يزيد الخمور"[1]. كذلك كان الوليد يعاقر الخمرة يومًا بعد يوم، بينما هشام كان يكتفي بالشرب مرّة واحدة في الأسبوع، أمّا عبد الملك، فكان يشرب الخمر علنًا مرّة واحدة في الشهر، لكنّه كان يُكثر منها حتّى يضطر إلى تناول المقيّئات[2]. إلاّ أنّ أكثر هؤلاء تعلّقًا بالخمر والمجون، كان الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) الذي كان يسبح في بركة من الخمر ويشرب منها حتّى يهبط سطحها[3]. وقيل إنّه فتح القرآن يومًا فوقعت عينه على الآية: ﴿واستَفْتَحُوا وخابَ كُلُّ جبّارٍ عَنيدٍ﴾[4] فغضب غضبًا شديدًا، ورمى الكتاب الكريم بنباله حتّى مزّقه[5].

كذلك فإنّ سيّدات البلاط الأمويّ كُنّ يتمتّعن نسبيًا بقسط وافر من الحريّة. وقد غدا نظام الحريم، وما رافقه من استخدام الخصيان، عرفًا سالكًا في عهد الوليد الثاني[6].

إنّ عمر بن عبد العزيز، لم يشذّ عن سائر الخلفاء الأمويّين في موضوع التقوى والورع فحسب، إذ كان ذلك المُحاول أن يسير على خطى الخلفاء الراشدين، بينما سار

---

١ ـ راجع: العقد الفريد، ٣: ٤٠٣؛ أنساب الأشراف، نشر GOITEN (القدس،١٩٣٦) ٤: ٣٠؛ النويري، نهاية الارب في فنون العرب (القاهرة،١٩٢٥) ٤: ٩١.

٢ ـ أنظر: العقد الفريد، ٣: ٤٠٤.

٣ ـ النواحي، حلبة الكميت (القاهرة، ١٢٩٩) ص ٩٨.

٤ ـ ابراهيم: ١٥.

٥ ـ الأصفهاني، الاغاني، ٦: ١٢٥.

٦ ـ راجع: الأغاني، ٤: ٧٨ ـ ٧٩، ٦: ٣٣، ٣٦ وما يلي، ١١: ٤٩.

أكثر باقي الأمويّين على الدرب النقيض، بل تميَّز عنهم أيضًا في موضوع معاملة أهل الذمّة. ففي وقت كان الأمويّون من أكثر الخلفاء تساهلاً مع المسيحيّين، جاء عمر ليضع القيود الشديدة على هؤلاء الرعايا، بسنّه قوانين حظّر بموجبها على النصارى تقلّد الوظائف في مناصب الدولة، وحرّم عليهم لبس العمائم، وألزمهم بجزّ نواصيهم، وبأن يرتدوا ملابس خاصّة، ويشدّوا أوساطهم بأحزمة من جلد، ويركبوا مطاياهم دون أن تُسرج؛ ثمّ منعهم من بناء الكنائس، ومن رفع أصواتهم في الصلاة. وقصّر عقوبة المسلم إن هو قتل نصرانيًّا، على الديّة، وقضى برفض شهادة النصرانيّ على المسلم... وقد سرى بعض هذه القيود على اليهود، ومنها تحريم تقلّد المناصب في الدولة. إلاّ أنّ بعض هذه القيود لم يطبَّق بعد عمر[1].

أخير الأمويِّين

وصف المؤرّخون الخلفاء الأربعة الأخيرين في عهد الخلافة الأمويّة بأنّهم كانوا عاجزين. هؤلاء الأربعة هم: الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤) ثم يزيد الثالث (٧٤٤) فإبراهيم (٧٤٤) وأخيرًا مروان الثاني (٧٤٤ ـ ٧٥٠) وهو آخر الخلفاء الأمويّين.

فقد كان الوليد الثاني أكثر اهتمامًا بالشعر والموسيقى منه بشؤون الحكم[2] وقد بلغ الخطأ بهذا الخليفة أنّه أوصى بالخلافة من بعده لولدَين له من إحدى جواريه.

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ١٠٠ ـ ١٠١.

٢ ـ الأغاني، مرجع سابق، ٤: ١٠١ وما يليها.

فكان يزيد الثالث أول خليفة أمُّه أمَة[1]، فتميّز عهده بكثرة الاضطرابات في الأمصار. وقد اضطرّ أخوه إبراهيم الذي ولّي الخلافة من بعده مدّة شهرَين فقط، إلى أن يتنازل عنها لنسيب بعيد، هو مثلهما: ابن لجارية مملوكة، وهو مروان الثاني (٧٤٤ ـ ٧٥٠)[2].

وعندما تسنّم هذا الأخير سدّة الخلافة، كانت الفوضى قائمة في جميع أنحاء الدولة، إذ كان نشب صراع شديد بين مبدأ انتقال الخلافة بالوراثة الذي ابتدعه معاوية، والعرف القبليّ الراسخ الذي يجعل الولاية للأكبر سنّاً... ثمّ إنّ الوليد الثاني كان قد استبعد عرب الجنوب: جماعة الحزب اليمنيّ الذين كانوا الركيزة الأساسيّة في صراع الأمويّين ضدّ الشيعة. وهكذا جاءَت أيّام مروان الثاني لتشهد ظهور مُطالبٍ بالخلافة من آل أميّة في الشام. أضف إلى ظهور مُطالب آخر من الخوارج قام بحركة تمرّد في العراق. وأقدم بعض زعماء خراسان على الانتفاض ضدّ الخليفة. وإذ كان عرب الجنوب قد ثاروا، اضطرّ مروان إلى نقل حكومته إلى حرّان[3]، حيث يستطيع الاعتماد على مساندة القيسيّة، خاصّة في مواجهة الأعنف والأخطر: العلويّين (الشيعة) والعبّاسيّين.

---

١ ـ راجع: الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٨٧٤.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٥٠.

٣ ـ حرّان CARRHAE: مدينة قديمة في بلد ما بين النهرَين (تركيا) قاعدة بلاد مضر.

الفَصلُ الرَّابع

فِي ظِلّ خِلافَةِ العبَّاسِيّين

الإنْقِلاَب؛ أبو العبَّاس الخليفةُ الحَازم؛

أطول الخلافَات؛ الدولَةُ العبَّاسيَّة دولةٌ سنيَّة؛

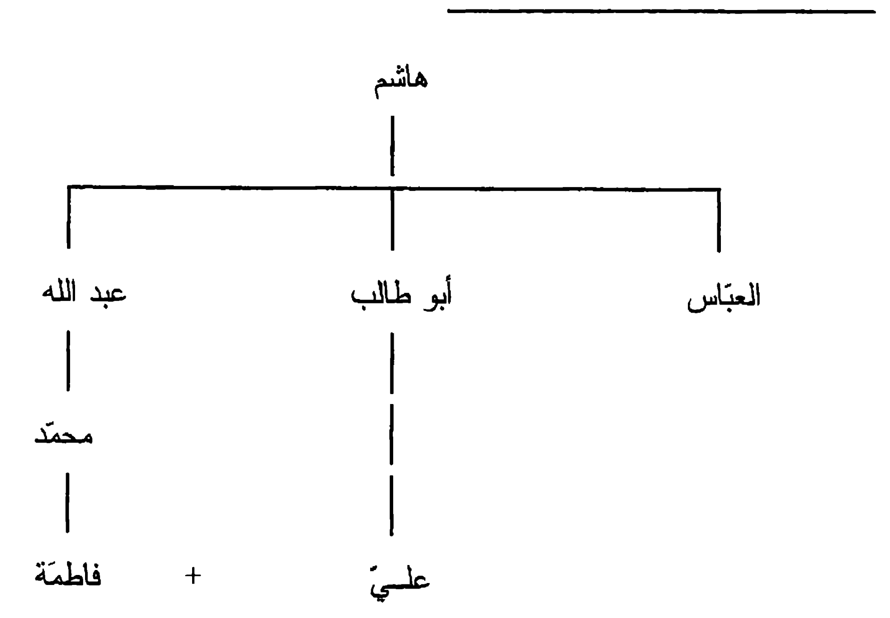
تدابِير التشدُّد وتَداعيَاتُها؛ عبرَةٌ مِن مذهَب الأوزاعي ومواقفه؛ المفَارقَة؛

إنهيَار سُلطةِ العبَّاسيِّين.

الإنقلاب

مع إطلالة العام ٧٥٠، كانت العوامل قد تضافرت لانهيار الحكم الأمويّ. وما كان يلزم من أجل الانقضاض على الخلافة التي أنشأها معاوية قبل حوالى تسعين سنة، سوى قيادة مقبولة من جميع الأطراف، وأهل لملء ذلك المركز الخطير.

وكان من بين المطالبين بالخلافة لأنفسهم، إضافة إلى بعض الأمويّين من خصوم مروان الثاني، ومن جملة الثائرين على خلافة الأمويّين، إضافة إلى الشيعة،



شكل شجري، يوضّح صلة النسب بين العباسيين والرسول

والعراقيّين، وجماعة من أتقياء أهل السنّة، كان هنالك العبّاسيّون. ذلك أنّهم ينتمون أصلاً إلى سلالة عمّ الرسول ﷺ، وبذلك يكونون "الأحقّ بالخلافة".

وكان، في هذه الحقبة، حفيدُ حفيدِ للعبّاس، عمِّ الرسول ﷺ، اسمه: عبد الله أبو العبَّاس[1]. وعَرف عبد الله هذا كيف يستقطب تأييد أكثر القوى المناهضة للأمويّين، بما فيها تلك القوى الكبرى من المسلمين غير العرب، وبخاصّة الفرس منهم، بسبب ما لاقوه من معاملة سيّئة على أيدي الأمويّين، أقلّ ما يقال فيها إنّها كانت بعيدة عن المساواة، ما كان قد جعل أهل خراسان يسيرون وراء الحركة الشيعيّة بإقبال. وبذلك بات الفرس وأهل خراسان مستعدّين لأيّة انتفاضة من شأنها أن تبدّل في الوضع القائم.

بثّ أبو العبّاس الدعاية لنفسه في مختلف الأقطار، بعد أن اختار قاعدة لعمله قرية "الحميمة" الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت، والتي كانت ممرًّا لقوافل المسافرين والحجّاج الوافدة من جميع أقطار العالم الإسلاميّ. فجعلها أبو العبّاس مركزًا يدرَّب فيه المرشّحون لأعمال الدعاية على مبادىء "الجماعة" وأساليبهم، ثم يوجَّهون من هناك في مهامّ سريّة إلى الأمصار[2]. وكان من بين هؤلاء، أبو مسلم الخراساني[3]،

---

١ ـ **عبد الله بن محمّد أبو العبَّاس السفّاح**: أوّل الخلفاء العبّاسيّين (١٣٢ ـ ١٣٦هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥٤م)، وُلد ونشأ في الشراة بين الشام والمدينة ١٠٤هـ/ ٧٢٢م، قاد الثورة على الأمويّين بعد وفاة أخيه إبراهيم ٧٤٨، بويع له بالخلافة في مسجد الكوفة ٧٤٩، أمر بإبادة الأمويّين وانتصرت جيوشه على مروان الثاني في معركة الزاب، اتّخذ الأنبار عاصمة له فجدّدها وأقام فيها القصور فدعيت بالهاشميّة نسبة إلى هاشم جدّ الأسرة، توفّي بالجدري.

٢ ـ راجع: الفخري، مرجع سابق، ص ١٩٢ ـ ١٩٣؛ الطبري، مرجع سابق، ٣: ٣٤؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٢: ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

٣ ـ **أبو مسلم الخراساني** (ت١٣٧هـ/ ٧٥٥م.): قائد كبير كان أحد أقطاب الحركة الدينيّة السياسيّة التي أدّت إلى انهيار الدولة الأمويّة وقيام الدولة العبّاسيّة، حارب تحت راية العبّاسيّين فاحتلّ مرو ١٣٠هـ/ ٧٤٨م. والكوفة، قتله المنصور الخليفة العبّاسي الثاني.

"المولّى ذو الأصل المبهم"[١]، الذي جعله العبّاسيّون عاملاً لهم في خراسان. وهناك، في شهر حزيران (يونيو) سنة ٧٤٧، لبس أبو مسلم السواد حِدادًا على رجل من ذريّة عليّ عليه السلام، قُتل على يد أهل السلطة، وما لبث أن رفع أبو مسلم العلم الأسود، الذي سرعان ما غدا شعارًا للعبّاسيّين. وإذ التهب الحماس في صفوف الناقمين من أهل خراسان، سار أبو مسلم على رأس جيش مؤلّف من الأزد[٢] عرب اليمن، والفلاّحين الفرس، ودخل مرو* عاصمة خراسان* دخول المنتصرين، حيث أسقط والي الأمويّين فيها نصر بن سيّار[٣]، ومن ثمّ سقطت نهاوند[٤]، ومدن فارسيّة أخرى، في وقت كانت قد قامت حركة العصيان من قبل اليمنيّة في فلسطين وامتدّت إلى حمص. كما أنّ الخوارج، كانوا قد ثاروا في العراق من جديد[٥]. ومن مدن فارس، انتقلت الثورة إلى العراق، حيث سقطت الكوفة بسهولة، وهناك بويع بالخلافة في مسجدها الكبير[٦] في

---

١ ـ الفخري، مرجع سابق، ص ١٨٦.

٢ ـ **الأزد**: من كبريات قبائل العرب، تنتسب إلى كهلان من قحطان وتفرّعت إلى نحو عشرين قبيلة، هجروا اليمن بسبب تصدّع سدّ مأرب، ومنهم ستّة أرهاط: ١ ـ رهط ثعلبة العنقاء ومنهم الأوس والخزرج، نزلوا المدينة وتسمّوا بعد الإسلام بالأنصار؛ ٢ ـ رهط حارثة بن عمرو وخزعوا عن إخوانهم أي تخلّفوا عنهم فسمّوا خزاعة؛ ٣ ـ رهط عمران بن عامر، ذهبوا إلى عمان وأسلموا ثمّ ارتدّوا فوجّه إليهم أبو بكر حذيفة بن محصن فقاتلهم فعادوا؛ ٤ ـ رهط أزد شنوأة نزلوا تهامة وتبدّوا؛ ٥ ـ رهط جفنة بن عمرو تعاقدوا على ماء يسمّى غسّان وهم الغساسنة، أسّسوا دولة في مشارف الشام وتنصّروا، أسلم منهم آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم زمن عمر بن الخطّاب، ثمّ بسبب لطمة ارتحل إلى القسطنطينيّة؛ ٦ ـ رهط لخم وهم المناذرة أو آل نصر الذين أقاموا دولة في العراق.

٣ ـ **نصر بن سيّار** (ت١٣١هـ/ ٧٤٨م): أمير قائد وشاعر عربيّ، اشترك في فتوحات آسية الوسطى مع قتيبة بن مسلم، عيّنه هشام حاكمًا على خراسان فقضى على الثورات الداخليّة وأقرّ الأمن ولكنّه لم يقوَ على وقف الدعاية العباسيّة ضدّ البيت الأمويّ، أجبره أبو مسلم الخرساني على الفرار.

٤ ـ **نهاوند**: مدينة في إيران جنوبي همذان، عندها كانت معركة حاسمة بين جيش الفتح العربي بقيادة النعمان بن مقرّن والفرس، سقط النعمان فيها قتيلاً فخلفه حذيفة بن اليمان وانتزع النصر للمسلمين ٦٤٢.

٥ ـ راجع الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٩٤٢ ـ ١٩٤٩.

٦ ـ راجع: الطبري، مرجع سابق، ٣: ٢٧ ـ ٣٣؛ اليعقوبي، مرجع سابق، ٣: ٤١٧ ـ ٤١٨.

٣٠ تشرين الأوّل (أكتوبر) ٧٤٩ لأبي العبّاس.

بالرغم من أنّ الخليفة الأمويّ الرابع عشر، مروان الثاني، حاول أن يقاوم بكلّ طاقته، إذ سار على رأس اثنَي عشر ألف مقاتل من حرّان* شرقًا حتّى بلغ الزاب الأعلى[1] في كانون الثاني (يناير) ٧٥٠، فالتقى على الضفّة اليسرى لذلك الفرع من دجلة بقوى الثورة يقودها عبد الله بن عليّ[2]، أحد أعمام الخليفة الجديد وأحد المتحدّرين من عمّ الرسول ﷺ. فقد انهار جيش الخليفة الأمويّ الأخير: مروان الثاني، بعد قتال تسعة أيّام. وأخذت المدن الشاميّة، من ثمّ، تفتح أبوابها، واحدة بعد الأخرى لعبد الله وجيوشه الخراسانيّة والعراقيّة. وحدها مدينة دمشق حاولت أن تقاوم، ولكنّها سقطت بعد أيّام قليلة من الحصار في ٢٦ نيسان (إبريل) ٧٥٠. وإذ فرّ مروان، تعقّبته فصيلة حتّى أدركته في مصر، وقتلته "خارج كنيسة في بوصير[3] في ٥ آب (أغسطس) ٧٥٠، وأُرسل رأسه مع شارات الخلافة إلى أبي العبّاس"[4].

وإذ أجمع الرأي على وجوب إبادة الأمويّين نهائيًّا من الوجود، كُلّف عبد الله بن عليّ* بتلك المهمّة، وقد استخدم أعنف الأساليب في ذلك، ولم يُعفَ حتّى عن الأموات

---

١ ـ الزاب الأعلى أو الزّاب الكبير: نهر في العراق ينبع في تركيا، من روافد دجلة يصبّ فيه عند المخلط قرب الموصل، عنده انتصر العبّاسيّون على مروان الثاني بعد معركة دامت تسعة أيّام، فقضوا على الدولة الأمويّة ٧٥٠، وعنده جرت المعارك الحربيّة بين العرب والبيزنطيّين.

٢ ـ عبد الله بن عليّ (ت١٤٧هـ/ ٧٦٤): أمير عبّاسيّ، عمّ الخليفتَين السفّاح والمنصور، انتصر على مروان الثاني في معركة الزاب وفتك بالأمويّين، طالب بالخلافة أيّام المنصور فهزمه أبو مسلم الخراساني عند نصّيبين فاستسلم ومات سجينًا.

٣ ـ بو صير أو أبو صير: إسم عدّة أماكن في مصر، منها: قرية من أعمال الجيزة فيها أهرام وآثار؛ وناحية تبعد عن الإسكندريّة ٤٥كلم اشتهرت في عهد البطالسة، فيها هيكل لأوزيريس؛ وبلدة في محافظة بني يوسف، وفي هذه البلدة هزم العباسيّون الجيش الأمويّ وقتل مروان الثاني.

٤ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٥٣ ـ ١٥٤.

من الأمويّين، فنُبشت القبور وصُلبت الجثث، وطُرحت الأشلاء، وجُلدت الهياكل العظميّة. ومعروف أنّه "في ٢٥ حزيران (يونيو) ٧٥٠ أدبَ عبد الله مأدبة لثمانين من أمراء الأمويّين في أبي فطرس على نهر العوجا[١] بالقرب من يافا، وما إن بدأ الاحتفال حتّى انقضّ الجلاّدون على المدعوّين، وأخذوا يحصدون رؤوسهم، ثمّ تحوّل القائد وأعوانه إلى الموائد ليستأنفوا الاستمتاع بالطعام الشهيّ"[٢]. ولم ينجُ من بني أميّة سوى رجل واحد، هو عبد الرحمن بن معاوية، حفيد الخليفة هشام، الذي كان له من العمر تسعة عشر عامًا، وقد تمكّن من الفرار في ما يشبه حكايات الأساطير، حتّى حطّ رحاله في الأندلس عام ٧٥٥. وفي السنة التالية أقام نفسه سيّدًا على شبه الجزيرة الأيبيريّة من دون منازع، وحكم تلك البلاد التي كان قد افتتحها أسلافه[٣].

وبهذا، انتهت الخلافة الأمويّة وبدأ عهد الخلافة العبّاسيّة. وبحسب تعبير الجاحظ، إنتهت "دولة بني مروان الأمويّين التي كانت عربيّة أعرابيّة... وبدأت دولة بني العبّاس، الأعجميّة الخراسانيّة".

---

١ ـ نهر العوجا أو نهر العوجاء: أهمّ أنهار فلسطين الساحليّة، ٢٦ملم، ينبع من رأس العين في شمال شرقي حيفا ويصبّ في المتوسّط قرب يافا.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٥٥؛ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٥: ٣٢٩ ـ ٣٣٠؛ المبرّد، مرجع سابق، ٧٠٧؛ الأغاني، مرجع سابق، ٤: ١٦١، ١٩٢ ـ ١٩٦؛ الفخري، مرجع سابق، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤.

٣ ـ لمعرفة التفاصيل الواسعة حول عبد الرحمن، راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ٨٥ ـ ١٠٥؛ والجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

أبو العبّاس
الخليفةُ الحَازم

بزوال الخلافة الأمويّة وحلول الخلافة العبّاسيّة، حصلت تحوّلات كبيرة في دولة الإسلام. ليس أهمّها انقضاء سيادة الشام على دنيا الإسلام، بسبب اختيار العبّاسيّين أرض العراق مركزًا لهم، إذا ما قيس ذلك بزوال السلطة التي كانت، قبل زوال الدولة الأمويّة سنة ٧٥٠، لأهل الجزيرة العربيّة؛ غير أنّه بعد ذلك التاريخ، أصبح "تاريخ العرب مقتصرًا في المكان على الجزيرة العربيّة.

أمّا البلدان التي كانت خاضعة لعرب الجزيرة والمتحدّرين منهم، في دولة عربيّة كبرى، قبل ٧٥٠، فقد بدأت بالتجزّؤ والاستقلال، في بداية عهد الخلفاء العبّاسيّين، لتصبح في ما بعد خاضعة لشعوبٍ وحكّام وأسياد وجيوش إسلاميّة غير عربيّة وغير متعرّبة، من فرس[1] وترك[2] وتركمان[3]

---

١ ـ الفُرس: من المرجّح أنّ الفرس القدامى كانوا قبيلة رحّالة تسربوا في زمن مجهول عبر جبال القوقاز إلى الهضبة الإيرانيّة، وفي القرن السابع ق.م. استقرّوا في إقليم فارس الحاليّ الذي كان يتبع الأمبراطوريّة الأشوريّة، وربطت الحكّام الفرس منذ العصور الأولى وشائج قربى بالميديّين الذين أقاموا دولة قويّة في القرن السابع ق.م.، وفي منتصف القرن السادس ق.م. ظهر قورش العظيم ونصب نفسه حاكم ميديا، وأقام بسلسلة فتوحات سريعة في الأمبراطوريّة الفارسيّة العظيمة.

٢ ـ أتراك أو ترك: إصطلاح يُطلق في معناه الواسع على الشعوب التي تتكلّم اللغة التركيّة في تركيا، وروسيا، وأفغانستان، وتركستان الصينيّة، وشرقي إيران، يبلغ عددهم حوالى ٧٢ مليون نسمة موزّعين من سيبيريا إلى الدردنيل، يربطهم الإسلام واللغة، وأكبر الظنّ أنّ الترك الأصليّين عاشوا أولاً في سيبيريا وتركستان، وتوسّعوا جنوبًا وغربًا، وأقاموا أمبراطوريّات عدّة في آسية كأمبراطوريّتي السلاجقة والعثمانيّين.

٣ ـ تركمان: قبيلة تركيّة أخضعها التتر، عُرفت منذ القرن الثاني عشر بهذا الإسم، يقطن التركمان في تركستان الغربيّة وإيران وما وراء القفقاس.

وأكراد[1] وشركس[2] وبربر* وغيرهم من المسلمين الأعاجم، الغرباء عن العنصر العربيّ وعن العنصر المتعرّب. ثمّ إنّ الجزيرة العربيّة ذاتها، منذ العام ٧٥٠، لم تعد مركز الثقل في الإسلام، رغم احتوائها على المدن الإسلاميّة المقدّسة"[3].

لم يتأخّر الخليفة العبّاسيّ الأول، أبو العبّاس، عن إعلان السياسة الحازمة التي سيتّبعها، إذ وصف نفسه في الخطبة التي افتتح بها عهده في الكوفة، بالسفّاح[4]. وراح السفّاح ينفّذ ما أعلنه، وفي الوقت ذاته، يطلق الدعاية للخلافة العبّاسيّة. فبعد أن أحاط نفسه برجال الدين وعلماء الشريعة، مضيفًا على الدولة الجديدة جوًّا حافلاً بالمؤثّرات الدينيّة، مقابل نزوع الدولة الراحلة إلى أبّهة الملك، وأخذ يتّشح في الاحتفالات الرسميّة ببردة الرسول ﷺ، صار المغالون من دعاة العبّاسيّين ينادون بأنّ الخلافة يجب أن تبقى في البيت العبّاسيّ إلى أن يتسلّمها منهم آخر الأمر عيسى ابن مريم عليه السلام.

---

٤ ـ الكرد والأكراد: شعب معظمه في الأساس قوم رحّل يشتغلون بتربية الأغنام والزراعة وصناعة السجّاد، تربطهم بالإيرانيّة صلات إثنيّة وثيقة، معظمهم مسلمون سنيّون، وهم شعب محارب لم يقبلوا الحكم الأجنبيّ طويلاً خلال كلّ تاريخهم، يسكنون كردستان في شرق تركيا وفي شمال سوريا وأرمينيا وشمال شرق العراق وشمال غرب إيران حيث يرتكزون في أذربيجان وخراسان، وبعضهم في فارس، وفي العراق حول الموصل وكركوك والسليمانيّة، وفي القوقاز الروسيّة يؤلف كرد أريفان والمدن المجاورة أقليّة صغيرة.

٢ ـ شركس أو جَركس: شعوب قطعت سابقًا شمال غربي القفقاس والشاطئ الشرقيّ للبحر الأسود، هاجر أغلبها إلى تركيا وسورية والأردن ولبنان.

٣ ـ راجع: بولس، التحولات الكبيرة، مرجع سابق، ص ١٤٣ وما يليها.

٤ ـ راجع: ابن مسكويه، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، نشر دي غويه ويونغ (ليدن،١٨٧١) ٢: ٥٢٦؛ الطبري، مرجع سابق، ٣: ١٣٢٠؛ الأغاني، مرجع سابق، ١٦: ٨٨؛ ياقوت، معجم البلدان، طبعة وستنفلد (ليبزك،١٨٦٧) ٤: ١٠٠٠؛ راجع أيضًا: المجلّد التاسع عشر من هذه الموسوعة.

أمام هذا الواقع، فإنّ الشيعة الذين كانوا اعتبروا أنّهم انتقموا لأنفسهم من الأمويّين، والذين كانوا يظنّون أوّلاً أنّ العبّاسيّين إنّما يقاتلون من أجلهم، زال الوهم الآن عن أذهانهم، واتّضح لهم أنّ ما عناه أبو العبّاس وجماعته بـ "أهل البيت" إنّما هم آل العبّاس، وليس بيت فاطمة وعليّ عليه السلام. وهكذا استمرّ الشيعة في اعتبار أئمّتهم وحدهم أصحاب الحقّ الشرعيّ في تسلّم مقدّرات الإسلام. وأصبح العبّاسيّون، بعد الأمويّين، في نظرهم، مغتصبي السلطة. وقد أفتى مالك بن أنس[1] المشهور بأمر الشيعة بأنْ حلّهم من عهد الولاء للعبّاسيّين. وعندما أقدم اثنان من أحفاد الحسن بن عليّ عليه السلام: محمّد وإبراهيم، على تزعُّم حركة ثوريّة ضدّ العبّاسيّين، بادر هؤلاء إلى سحقها بقساوة، فصلبوا محمّدًا الملقّب بالنفس الزكيّة، في كانون الأوّل (ديسمبر) ٧٦٢، وقطعوا رأس إبراهيم بعد شهرين قرب الكوفة وأرسلوا به إلى الخليفة العبّاسيّ[2].

وكان العبّاسيّون قد احتووا الفرس، حتّى اتّسمت خلافتهم بالسمة الفارسيّة، وطغت المراسم الفارسيّة على مظاهرها، وسيطرت الأفكار الفارسيّة على شؤون السياسة، وغلبت نسبة النساء الفارسيّات في دور الحريم، حتّى إنّ العديد من الخلفاء العبّاسيّين كانوا من أمّهات فارسيّات. وهكذا لم يكن العرب إلاّ عنصرًا واحدًا من العناصر العديدة التي تألّفت منها الدولة. ثمّ إنّ العبّاسيّين حلّوا مشكلة الفرس بأن أنشأوا منصبًا جديدًا في الدولة، كان الفرس أوّل مَن شغله، هو منصب الوزارة، الذي يأتي مباشرة

---

١ ـ مالك بن أنس الأصبحي أبو عبد الله (٩٣ ـ ١٧٩هـ/ ٧١٢ ـ ٧٩٥م): أحد الأئمّة الأعلام، مؤسّس المذهب المالكيّ المنسوب إليه وهو أحد المذاهب الفقهيّة الأربعة في الإسلام، وُلد وتوفّي بالمدينة، أصله من أمراء حِميَر، له "الموطأ" الذي هو أساس المذهب، و"الردّ على القدريّة"، و"الرسالة إلى الرشيد"، و"المدوّنة الكبرى".

٢ ـ الدينوري، الأخبار الطوال، نشر VLADDIMIR GUIRGASS (ليدن،١٨٨٨) ص ٣٨١؛ الطبري، مرجع سابق، ٣: ٢٤٥ ـ ٢٦٥، ٣١٥ ـ ٣١٦.

بعد منصب الخلافـة. "وأقبل الخراسانيّون من ثمّ على الانخراط في فرقة الحرس المنوطة بالخلافة، وهكذا تضاءَل مجد الأرستقراطيّة العربيّـة وانهار صرح العروبة، لكن الإسلام استمرَّ في سيره المظفّر بزيّ جديد، هو النزعة الإيرانيّة"[1].

أطـــولُ
الخلافَات

من جهة أخرى، فإنّ الدولة العبّاسيّة، وهي الخلافة الثالثة بعد خلافة الراشدين وخلافة الأمويّين، وقد أسَّسها السفّاح* (٧٥٠ ـ ٧٥٤) وأخوه المنصور[2] (٧٥٤ ـ ٧٧٥) كانت أطول الخلافات الإسلاميّة عهدًا وأوسعها شهرة، فقد كان الخلفاء الخمسة والثلاثون الذي تعاقبوا على الخلافة من بعد الخليفة الثاني جميعًا من سلالته العصبيّة. نقول بأنّ هذه الدولة، بخلاف الدولة العربيّة الأمويّة التي كان فيها الزمنيّ طاغيًا على الروحيّ، كانت ذات سلطة إسلاميّة إيرانيّة آسيويّة، تُشدّد على سلطة الخليفة الروحيّة. وقد انتصرت بذلك على يد العبّاسيّين، الفكرة الإيرانيّة الداعية للاتّحاد التامّ بين الدين والدولة[3].

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٥٨ ـ ١٥٩؛ وراجع DEMOMBYNES G. *LE MONDE MUSULMAN ET BYZANTIN*, P. 269, 271, 272.

٢ ـ أبو جعفر المنصور: هو عبد الله بن محمّد، الخليفة العبّاسيّ الثاني ١٣٦ ـ ١٥٨هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥م، وُلد في الحميمة ٩٥هـ/ ٧١٤م، خلف أخاه السفّاح، انتصر على عمّه عبد الله بن علي المطالب بالعرش ثمّ أطاح بقائده أبي مسلم الخرساني، أخضع ثورات العلويّين: ثورة محمّد الملقّب بالنفس الزكيّة في المدينة وثورة ابراهيم أخي محمّد في الكوفة كما قضى على فتنة "المقنّع" في فارس والبربر في شمال أفريقيا، بنى بغداد ودعاها "دار السلام"، نظّم الشؤون الإداريّة والماليّة والبريد، توفّي محرمًا بالحجّ.

٣ ـ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص١٤٦.

وإذ كانت الكوفة العراقيّة، تعَدّ معقلاً شيعيًّا في ذلك الوقت، وعربيّة أكثر منها عراقيّة أو إيرانيّة، وقد كان سكّانها كثيري الحركة، والحماسة، وغير مخلصين للعهد العبّاسيّ الجديد، فقد نقل الخليفة المنصور سنة ٧٦٢ مركز الخلافة إلى قرية مسيحيّة صغيرة تقع على نهر دجلة، ذات اسم فارسيّ: بغداد، وترجمته "عطيّة الله"[1]. وقد حُوّلت هذه إلى مدينة، ودُعيت رسميًّا بدار السلام، وأُقيم حولها سور خارجيّ من جدارَين، وسور داخليّ بلغ ارتفاعه تسعين قدمًا، وجُعل بين السورَين خندق عميق. وبعد انتقال عاصمة الخلافة إلى بغداد، أصبحت البصرة[2] مرفأ العاصمة على الخليج العربيّ - الفارسيّ. وأصبح الخليج وشاطئه العربيّ منطقة تجارة بحريّة كثيرة الازدهار. إلاّ أنّ التسمية الرسميّة: "دار السلام" لبغداد، لم تطغَ على الإسم الفارسيّ القديم... فبقي مركز الخلافة العبّاسيّة معروفًا باسم بغداد. وإذ كانت بغداد مسرحًا للمغامرات الأسطوريّة الرائعة التي خلّدتها شهرزاد[3] في ألف ليلة وليلة، وقاعدة لعهدَين من أزهى العهود، هما عهد هارون الرشيد[4]

---

١ - اليعقوبي، كتاب البلدان، نشر دي غويه (ليون ١٨٩٢) ص ٢٣٥؛ البلاذري، مرجع سابق، ص٢٩٤.

٢ - البصرة: مدينة ومرفأ في العراق على شطّ العرب، قاعدة محافظة ومركز قضاء، أسّست في عهد عمر بن الخطّاب ٦٣٨، وأصبحت إحدى أهمّ المدن في العراق، عندها جرت معركة الجمل ٦٥٦، ازدهرت على عهد العبّاسيّين واضحت مع الكوفة مهدًا للدروس اللغويّة، أحرقها الزنج ٨٧١، ثمّ القرامطة ٩٢٣، بدأت بالانحطاط بعد ١٢٥٨، احتلّها الأتراك ١٦٦٨، ثمّ الإنكليز ١٩١٤، مسقط رأس الحسن البصري والأشعري، فيها اليوم حقول نفط.

٣ - شهرزاد: بطلة أقاصيص ألف ليلة وليلة، خليلة السلطان شهريار، قصّت عليه قصص ألف ليلة وليلة فصبر عليها إلى أن ولدت له ابنًا ولم يقتلها كما كان يفعل مع سابقاتها.

٤ - هارون الرشيد: الخليفة العبّاسيّ الخامس (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦ - ٨٠٩م.)، إبن المهدي والخيزران، وُلد بالريّ وتوفّي بسناباذ من قرى طوس (إيران)، جاء إلى الخلافة بعد اغتيال أخيه الهادي، حارب البيزنطيّين وهو لا يزال حاكمًا على المقاطعات الغربيّة وبلغ أبواب القسطنطينيّة، ثمّ حمل مرّات عليهم في أيّام خلافته، أقرّ الأمن في المقاطعات الفارسيّة وبين البربر في شمالي أفريقيا، اتّصل بملك فرنسا شارلمان، ازدهرت في عهده التجارة والآداب والعلوم ولعِب البرامكة دورًا هامًّا في عهده قبل أن يوقع بهم.

(٧٨٦ ـ ٨٠٩) وعهد المأمون[١] (٨١٣ ـ ٨٣٣)، فقد برزت في الأسطورة وفي التاريخ رمزًا منقطع النظير لمجد الإسلام. ولقد نسج عهد هذَين الخليفتَين حول السلالة برمّتها هالة من المجد لم يقدّر لها إلى الآن أن تتلاشى، وامتدّ أوجها ما بين عهد المهديّ[٢] (٧٧٥ ـ ٧٨٥) الخليفة الثالث، وعهد الواثق[٣] (٨٤٢ ـ ٨٤٧) الخليفة التاسع، ثمّ أخذت بعد الواثق بالانحدار حتّى خلافة المستعصم[٤] (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨) وهو السابع والثلاثون من خلفاء هذه السلالة. وفي عهده اجتاحها المغول ودكّوا معالمها.

لقد استمرّت ذريّة السفّاح والمنصور في الحكم أكثر من خمسة قرون، إلاّ أنّهم لم يكونوا دائمًا الحاكمين الفعليّين[٥]، ذلك أنّ العصر العبّاسيّ كان عصر تجزئة الأمبراطوريّة الإسلاميّة إلى خلافات، ومذاهب.

---

١ ـ **المأمون** (١٧٠ ـ ٢١٨هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٣٣م): هو عبد الله بن هارون الرشيد، وهو الخليفة العبّاسيّ السابع (١٩٨هـ/ ٨١٣م)، أمّه جارية فارسيّة، عهد إليه أبوه القسم الشرقيّ من الأمبراطوريّة، احتلّ بغداد وقتل الأمين، قضى على الخوارج في خراسان، حارب الأمبراطور البيزنطيّ تيوفيل وأجبره على قبول الصلح ٨٢٠، عُني بالثقافة والآداب والفلسفة والعلوم فأنشأ مكتبة "بيت الحكمة" في بغداد وأقام عليها سهل بن هارون فجمع إليها الكتّاب ينقلون ويعرّبون المؤلفات اليونانيّة القديمة، توفّي بالقرب من طرسوس.

٢ ـ **المهدي**: هو محمّد بن عبد الله المنصور، وُلد ١٢٧هـ/ ٧٤٤م، ثالث الخلفاء العباسيّين (١٥٨ ـ ١٦٩هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٥م) أنشأ الطرق العامّة وحسّن جهاز البريد فازدهرت التجارة في عهده، تعقّب الخوارج في خراسان ولاحق الزنادقة، حارب البيزنطيّين فتوغّلت جيوشه حتّى أنقرة والبوسفور.

٣ ـ **الواثق بالله**: هو هارون بن محمّد المعتصم، الخليفة العبّاسيّ التاسع (٢٢٧ ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤٢ ـ ٨٤٧م)، وُلد في بغداد ٢٠٠هـ/ ٨١٥م. ومات بسامرّاء، شغل بالإختلافات الكلاميّة.

٤ ـ **المستعصم**: هو عبد الله بن منصور، آخر الخلفاء العباسيّين في بغداد (٦٤٠ ـ ٦٥٦ هـ/ ١٢٤٢ ـ ١٢٥٨م)، وُلد ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م، خلف أباه المستنصر، عجز عن صدّ الزحف المغوليّ بقيادة هولاكو الذي قتله بعد أن احتلّ بغداد وأعمل السيف في رقاب أهلها وقضى على مكتبتها.

٥ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٥٩ ـ ١٦٠.

الدولَةُ العبَّاسيَّة

دولـــةٌ سنيَّـــة

لقد اختصر مؤرّخ بحّاثة محدث تعريف دولة الخلفاء العبّاسيّين (٧٥٠ ـ ٨٧٢) بأنّها دولة إسلاميّة سنيّة إيرانيّة عاصمتها بغداد، الخليفة فيها من أصل عربيّ، واللغة الرسميّة والأدبيّة عربيّة، أمّا الطبقة الحاكمة فإيرانيّة بغالبيّتها، والقوّات العسكريّة إيرانيّة وتركيّة ومرتزقة. محور الدولة العراق، واتّجاهها نحو إيران والعالم الآسيويّ[١].

إنّ ما يهمّنا من هذا التعريف، هو أنّ هذه الدولة، كانت: سنيّة. فلأوّل مرّة في التاريخ، تُعرّف دولة، أو خلافة، بأنّها سنيّة...

فما هي الأحداث التي شهدها العصر العبّاسيّ، والتي من شأنها أن تختصّ بالمنحى السنّيّ، لا بل بالصفة السنيّة لهذه الدولة؟

إنّ أهمّ ما من شأنه أن يطبع الخلافة العبّاسيّة بالطابع السنّيّ، أمران.

الأوّل: أنّ هذه الخلافة قد تحوّلت بسرعة إلى المفهوم السنّيّ للدولة، حيث يكون الخليفة "ظلّ الله على الأرض، ويكون الحكم الزمنيّ للموظّفين الكبار، الذين يلتزمون طاعته، باسم الدين".

والثاني: أنّ الدولة العبّاسيّة قد شهدت نشوء خلافة شيعيّة مناهضة لها، وأصبح العالم الإسلاميّ واقعًا تحت حكمَين، أو موزّعًا على خلافتَين تتقاسمانه في الوقت نفسه: الخلافة السنيّة العبّاسيّة، والخلافة الشيعيّة الفاطميّة.

---

١ ـ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ١٣٩.

ومن الواضح أنّ الدولة العبّاسيّة اتّبعت في حكمها سياسة إسلاميّة أقرب للأصوليّة بكثير من تلك التي اتّبعتها سابقتها: الخلافة الأمويّة، التي لم تعرف ذلك التشدّد إلاّ في ولاية عمر بن عبد العزيز، القصيرة الأمد (٧١٧ ـ ٧٢٠) ما عرّض العبّاسيّين للعديد من القلاقل، استعرضناها في دراستَي الشيعة والدروز من هذه الموسوعة.

تدابير التشدُّد وتَدَاعيَاتُهـا

ممّا يجدر ذكره، أنّ العهد العبّاسيّ قد شهد نقمة للمسيحيّين في منطقة الشام، قلّما عرفتها الأمبراطوريّة العربيّة. وكان من أبرز معالم تلك النقمة، حركة العصيان التي قام بها بعض نصارى لبنان سنة ٧٥٩، إذ لجأت جماعة منهم إلى السلاح لمنع المزيد من مصادرات الأرزاق، وانقضّت من قاعدتها في المنيطرة في أعالي لبنان، قاصدة العامل العبّاسيّ في بعلبك، ناهبة عددًا من قرى المسلمين. بيدَ أنّ هذه العصابة تعرّضت لما يشبه الإبادة على يد الجند العبّاسيّ، ثم عمد العامل العبّاسيّ في دمشق إلى الانتقام من المسيحيّين، وشرّدهم في المناطق السوريّة على اختلافها[١]. إثر ذلك، رفع الإمام الأوزاعي[٢] الفقيه المشهور في بعلبك وبيروت، إحتجاجًا إلى الحاكم جاء فيه:

---

١ ـ إبن عساكر، التاريخ الكبير (دمشق) ٥: ٣٤١.

٢ ـ الإمَام عَبْدُ الرَّحمَن بِنْ عَمْرُو الأُوزَاعِي (٧٠٧ ـ ٧٧٤): وُلد في بعلبك وتوفّي في بيروت، أحد مفتي أهل ناحية سهل الشام ومحدّثيهم وذوي الفضل منهم وأعلمهم في عصره، وراية ذوي العقل فيهم، لُقِّب بإمام الشام، كانت سلطته تعوق سلطة الخليفة، وليس من فقهاء المسلمين مَن أظهر من نبل العاطفة ما أظهره في دعوته إلى الأخوّة الإنسانيّة، وقد تجسّدت النظرة اللبنانيّة الشاملة، والروح اللبنانيّة السمحة، في سماحة روحه وفي نبل أخلاقه، ذاع صيته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وشاع مذهبه في

... وقد كان من إجلاء أهل الذمّة من جبل لبنان ممّن لم يكن محالفًا لمَن خرج على خروجه، ممّن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم، ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامّة بذنوب خاصّة، حتى يُخرَجوا من ديارهم وأموالهم، وحكم الله تعالى أنْ لا تزرُ وازرةٌ وزْرَ أُخْرَى[1]، وهو أحقّ ما وُقف عنده واقتُدي به، وأحقّ الوصايا أن تُحفظ وتُرعى وصيّة رسول الله ﷺ، فإنّه قال: من ظلم معاهدًا وكلّفه فوق طاقته فأنا حجيجة[2].

عبرَة مِن مذهَب الأوزاعي ومواقفه

جاء في بحث دقيق لتاريخ لبنان الوسيط في مجال فلسفة مذهب الإمام الأوزاعي:

قد يكون التنوّع البشري الذي اجتمع في لبنان، والمذاهب الدينيّة المختلفة، وراء ظهور المذهب الأوزاعي في أواخر العهد الأموي ومطلع العهد العبّاسي. وهو المذهب المعتدل ما بين جميع المذاهب الدينيّة الإسلاميّة[3].

لبنان وسوريا حيث ظلّ الفقهاء يأخذون به مدّة قرنين من الزمن، ومن لبنان وسوريا وفلسطين اتّصل مذهب الأوزاعي ببعض بلدان شمالي أفريقيا، كما انتشر إلى المغرب والأندلس حيث ظلّ الفقهاء يأخذون به مدّة أربعين سنة، وإنّ روح التحرّر والتساهل التي تظهر جليّة في مذهب الأوزاعي كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في الأندلس المسيحيّة، أثار بمزايا تعاليمه السامية حفيظة الحاكمين بعنف السيف ورهبة النار، في اليوم الذي دُفن فيه الأوزاعي عند كثبان الرمل جنوب بيروت حيث لا يزال مقامه محجًا، أسلم من أهل الذمّة، اليهود والنصارى، نحو ثلاثين ألفًا، ممّا رأوا من كثرة الخلق في جنازته؛ راجع: مفرّج طوني، صانعو التاريخ اللبناني، الموسوعة اللبنانيّة، نشر نوبليس (بيروت،١٩٩٩) ٧: ٦٧ ـ ٨٥.

١ ـ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ الأنعام: ١٦٤.

٢ ـ البلاذري، مرجع سابق، ص ١٦٢.

٣ ـ مكّي محمّد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٧٩).

ممّا يُستنتج من هذه الخلاصة، أنّ الإمام الأوزاعي كان، إذا صحّت النسبة، إمامًا أمويًّا وليس عبّاسيًّا، وإن يكن برز في العهد العبّاسيّ، ذلك أنّ مذهبه قد نشأ في لبنان في خلال الحكم الأمويّ، وعندما جاء الحكم العبّاسيّ المناقض، في تعامله العنيف الدمويّ، للحكم الأمويّ السياسيّ السلميّ، لبنانيًّا على الأقلّ، كان الإمام الأوزاعي معارضًا لأعماله، خاصّة بالنسبة لمسيحيّي جبل لبنان. ولا شكّ في أنّ من شأن واقعة ثورة المنيطرة التي روينا عنها وعن موقف الإمام الأوزاعي من أحداثها أوضح برهان عن هذا التقييم.

والإمام الأوزاعي، صاحب هذا الموقف، ليس مجرّد رجل دين محلّيّ ثانويّ، فهو مَن "كانت سلطته تعوق سلطة الخليفة"، وقد "لُقّب بإمام الشام"[1]. وهو "عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، يرجع نسبه إلى عرب الجنوب، وُلد في بعلبك سنة ٧٠٧م.، ثمّ انتقل، وهو بعد يافع، مع أمّه إلى بيروت حيث ذاع صيته في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ إذ ذاك. ولم تقتصر شهرته على معرفته بالفقه والحديث، بل اشتهر أيضًا بسموّ أخلاقه وفضل مناقبه وشدّة تقشّفه". وذكرت المدوّنات أنّه "عندما مرّ الخليفة المنصور* في بيروت، سمع الأوزاعي يخطب في المسجد، فأُعجب به كثيرًا وأحبّه، وقد استشاره في بعض الأمور. وعندما سمع الأوزاعي مرّة أنّ الخليفة تردّد في افتداء بعض أسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي الروم، بعث إليه برسالة عن لسانهم يطلب فيها إليه افتداءهم. وعندما تسلّم الخليفة الرسالة استجاب للنداء فورًا"[2]. ولم يكن الإمام الأوزاعي يقرّ قتل

---

١ ـ أبو الفداء، تقويم البلدان، طبعة رينو ودب سلين (باريس،١٨٤٠) ١: ٤٧ إبن يحيى صالح، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي، دار المشرق (بيروت، ١٩٦) ص١١٥ إبن خلّكان، وفيّات الأعيان (القاهرة،١٢٩٩هـ.) ١: ٤٩٢.

٢ ـ راجع: الخطيب زين الدين، محاسن المساعي في مناقب أبي عمرو الأوزاعي، نشر الأمير شكيب أرسلان (القاهرة، لا.ت.)

الرهائن. وهو القائل بأنّ "نكث العهد يجب ألاّ يُقابل بنكث العهد بل بالمروءة والشهامة".

هذا الإمام، هو لبنانيّ. وإنّ ضريحه لا يزال ماثلاً عند مدخل بيروت الجنوبيّ، وتعاليمه لا زالت ماثلة في بطون الكتب. هذا الإمام الذي رأى أبرز الباحثين الوطنيّين في شؤون تاريخ الشرق الأوسط[1]، أنّ "النظرة اللبنانيّة الشاملة، والروح اللبنانيّة السمحة، تتجسّدان في سماحة روحه وفي نبل أخلاقه"، ذلك أنّه "كان يشدّد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الأمر يتعلّق بالرعايا من غير المسلمين. وكان يُحبّ البلاد التي يعيش فيها ويعتزّ بمجدها الغابر، وليس من فقهاء المسلمين مَن أظهر من نبل العاطفة ما أظهره الأوزاعي في دعوته إلى الأخوّة الإنسانيّة.

وقد جاء[2] عن أنّ معاصره العراقيّ مثلاً، أبا حنيفة المتوفّي سنة ٧٦٩م، مؤسّس المذهب الحنفيّ الذي يُعتبر من أكثر المذاهب الإسلاميّة سماحة وتحرّرًا، قد يتغاضى عن قطع النخيل وغيره من الأشجار عند مقاتلة المشركين، ولكنّ الأوزاعي، الفقيه اللبنانيّ، يمنع عملاً كهذا. وكان أبو حنيفة يحرّم أكل اللحم إذا كان من ذبح مرتدّ، ولو كان مرتدًّا ذمّيًّا، ولكنّ الأوزاعي كان يحلّله. وكان أبو حنيفة يعتبر أرض الرجل الذي دخل في الإسلام، إذا كان يقطن بلادًا وقعت فيها الحرب بين المسلمين والمشركين، داخلة ضمن الغنائم، أمّا الأوزاعي فما كان يقرّ هذا الرأي، لا سيّما إذا كان الداخل في الإسلام من النصارى أو اليهود[3]. وفي رأي الأوزاعي أنّه إذا حارب ذمّيّ في صفوف

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٢٩.

٢ ـ الطبري، إختلاف الفقهاء، نشر جوزيف شاخت (ليدن ١٩٣٣) ص١٠٣.

٣ ـ أبو يوسف، الردّ على سير الأوزاعي، نشر أبو الوفاء الأفغاني (القاهرة،١٣٧٥) ص٨٥، ١١٥، ١٢٦.

المسلمين فإنّ حصّته من المغانم يجب أن تكون حصّة المسلم. وقد شاع مذهب الأوزاعي في لبنان وسوريا حيث ظلّ الفقهاء يأخذون به مدّة قرنَين من الزمن إلى أن حلّ محلّه المذهبان الحنفيّ والشافعيّ. ومن لبنان وسوريا انتشر مذهب الأوزاعي إلى المغرب والأندلس حيث ظلّ الفقهاء يأخذون به مدّة أربعين سنة، ثمّ حلّ محلّه المذهب المالكيّ. ولا شكّ في أنّ روح التحرّر والتساهل التي تظهر جليّة في مذهب الأوزاعي كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في الأندلس المسيحيّة[1].

تجاه هذا الواقع، يحقّ لنا القول بأنّ مجتمعًا وُلد وترعرع ونبغ فيه مثل الإمام الأوزاعي، على ما طالعنا ما في مذهبه وتعاليمه من اعتبارات إنسانيّة سامية، لا يُمكن نعته بالمجتمع الطائفيّ بمعنى الطائفيّة العدائيّة البغيضة المتعصّبة العمياء. وإنّ مجتمعًا لدَيه من أمثال هذه المادّة في تاريخه، لا يبحث عن تاريخ موحّد ومشذب ومبرّج ليحشو بمادّته أذهان أبنائه، بل يبرز تاريخه المشرّف الصحيح. هذه الروح الإسلاميّة الرائعة التي برزت في المذهب الأوزاعي، كان يمكن، لو أنّها استمرّت، لا أن تغيّر في مجرى تاريخ لبنان فقط، بل وسائر أمم العالم. فقد كان يمكن أن تقرّب بين المسيحيّة والإسلام إلى حيّز تنتفي معه الحروب بينهما، ليحلّ مكانها تعاون بنّاء قد كان قادرًا على جعل العرب اليوم في صدارة الحضارة. ولكنّ تعاليم الأوزاعي لم تستمرّ، وجاءت عهود طغت في خلالها التعصّبات والعصبيّات والخلافات العقائديّة، فحصدت شعوب الشرق بنتيجتها ما حصدته من تقهقر.

---

١ ـ حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص٣٣٠.

وكانت نتيجة سَنِّ هذه الفروض الرسميّة، أن شبَّت فتنة عنيفة في حمص اشترك فيها مسيحيّون ومسلمون، إلاّ أنها أُخضعت بعد مقاومة شديدة سنة ٨٥٥، وضُربت أعناق زعمائها، أو أنّهم جُلدوا حتّى الموت، وصُلبوا على أبواب المدينة. ثمّ هُدمت جميع الكنائس إلاّ تلك التي ضُمَّت إلى المساجد، وأُبعد جميع المسيحيّين من المدينة الهائجة، التي كان، حتّى ذلك التاريخ، أكثر سكّانها من المسيحيّين[1].

كانت بلاد الشام، حتّى ذلك التاريخ، قد حافظت على طابعها المسيحيّ، غير أنّه مع هذه التدابير القاسية، أخذ الطابع يتبدّل، وراحت القبائل والجماعات تدخل في الإسلام، إذ أصبح عيشها في مثل هذه الظروف، على دينها، شبه مستحيل. وهاجر عدد من وجهاء المسيحيّين إلى آسية الصغرى وجزيرة قبرص ومناطق لبنانيّة. وهكذا "تحقّق الوجه الثاني من الفتح الإسلاميّ، وهو فتح الإسلام من حيث هو دين وعقيدة"[2].

وقد عقب هذا الفتح، في الزمن العبّاسيّ أيضًا، فتح ثالث، هو فتح اللغة العربيّة، إذ شرع الأدباء السوريّون في التأليف باللغة العربيّة تحت رعاية الخليفة، قبل أن يستعمل الفلاّحون السوريّون اللسان الجديد.

---

١ ـ الطبري، مرجع سابق، ٣: ١٤٢٢ ـ ١٤٢٤؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ٧: ٥٩ ـ ٦٠؛ وراجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٦٩، ١٢٨ ـ ١٢٩.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٧٠.

إنهيـــــــــار
سُلطةِ العبَّاسيِّين

يردّ بعض المؤرّخين أسباب التدابير القاسية التي اتّخذها آخر الخلفاء العبّاسيّين بحقّ المسيحيّين واليهود والصابئة[1]، إلى أنّ السلطة الزمنيّة بدأت تفلت من يدهم شيئًا فشيئًا، فراحوا يركّزون نفوذهم على السلطة الروحيّة، فأظهروا غيرتهم على الدين، وبدأ التعصّب[2].

فقد كانت سلطة الدولة العبّاسيّة متينة، يفرض الخليفة فيها الطاعة، حتّى عهد هارون الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩)، إلاّ أنّه منذ ذلك العهد، بدأت تظهر التناقضات، وراحت التحرّكات والثورات السياسيّة والدينيّة والاجتماعيّة تفكّك الدولة ووحدتها السياسيّة والدينيّة. فقد اضطرّت النزاعات بين العرب والفرس في بغداد، الخليفة المأمون * (٨١٣ ــ ٨٣٣) إلى أن يعيّن حرسًا شخصيًّا مأجورًا من الأرقّاء المماليك، غالبيّة عناصره من الأتراك الآسيويّين. وفي عهد المعتصم * (٨٣٣ ـ ٨٤٢) بات قادة هذا الحرس أسيادًا للدولة. وقد هجر المعتصم عاصمته بغداد خشية القيام بثورة عليه، وانتقل مع حرسه التركيّ إلى سامرّاء[3]، البلدة الصغيرة الواقعة على مسافة سبعين ميلاً شماليّ بغداد، والتي بقيت مركزًا للخلافة

---

١ ـ الصابئة: أتباع نحلة تؤلّه الكواكب، كان مقرّهم في حرّان، ما بين النهرين، خرج منهم علماء وفلاسفة ومنجّمون، زعموا أنّهم المعنيّون باسم الصابئة الوارد في القرآن.

٢ ـ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص١٦٥.

٣ ـ سامرّاء: مدينة في العراق على ضفّة دجلة اليمنى، مركز قضاء سامرّاء في محافظة بغداد، سكنت منذ الألف الخامس ق.م.، كانت قرية صغيرة عندما احتلّها العرب ٦٣٧ واتّخذها المعتصم عاصمة له ٨٣٦ بعد أن شيّد فيها مدينة كبرى أسكن فيها الجنود الأتراك وأطلق عليها اسم "سرّ من رأى"، بدأت بالإنحطاط بعد أن نقل الخليفة المعتمد العاصمة مجدّدًا إلى بغداد، أهمّ آثارها قصر المتوكّل والملويّة وفيها ضريحا الإمام عليّ الهادي وولده حسن العسكريّ.

أكثر من نصف قرن. وبوفاة المعتصم، انتهى عهد كبار الخلفاء العبّاسيّين، وأخذت سلطة الخلفاء منذ العام ٨٤٢ تضعف حتّى تلاشت كليًّا أمام سلطة رئيس الحرس التركيّ، الذي أصبح عمليًّا، رئيس الدولة. فلقد منح الخليفة الواثق* (٨٤٢ ـ ٨٤٧)، ابن المعتصم، رئيس حرسه التركيّ لقب سلطان. وعند وفاة الواثق، أعلن الحرس خليفة بعده جعفر المتوكّل* (٨٤٧ ـ ٨٦١) الذي حاول أن يفرض إرادته على الحرس ويسيطر عليه، ولا نعلم مدى نجاحه في ذلك. إنّما في عهد المتوكّل عادت نار الثورة لتتأجّج في دمشق، بعد أن ثار الرعايا في وجه الحاكم العبّاسيّ وقتلوه، فأرسل الخليفة إليهم قائدًا تركيًّا، على رأس سبعة آلاف فارس وثلاثة آلاف رجل، أعملوا فيهم السيف لثلاثة أيّام وانتهبوا المدينة بكاملها. بيدَ أنّ المتوكّل نفسه نقل قاعدته إلى دمشق في ما بعد، لتفادي سيطرة حرس الخلافة المتغطرسين عليه، "لكنّ مناخ دمشق الرطب ورياحها العاصفة رحّلت عنها الخليفة المتقلّب، بعد ثمانية وثلاثين يومًا من نزوحه إليها"[١].

رغم كلّ ما بذله المتوكّل ليتحرّر من سيطرة الحرّاس الأتراك، فإنّه انتهى إلى أن قُتل على أيديهم، بإيعاز من ابنه وخلفه المنتصر سنة ٨٦١، الذي بدوره قُتل سنة ٨٦٢ على أيدي حرّاسه الأتراك بعد خمسة أشهر، من تسنّمه العرش. ومن سنة ٨٦٢ إلى سنة ٨٧٩ حاول أربعة خلفاء عبّاسيّين هم: المستعين بالله[٢]، والمعتزّ بالله[٣]،

---

١ ـ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ١١٦٩؛ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٦٦ ـ ١٦٧.

٢ ـ المستعين بالله (٢٤٨ ـ ٢٥٢هـ/ ٨٦٢ ـ ٨٦٦م)، هو أحمد بن محمد بن المعتصم، الخليفة العباسيّ الثاني عشر، وُلد بسامرّاء ٢١٩هـ/ ٨٣٤م، بايعه الأتراك بعد وفاة المنتصر وما إن انتقل إلى بغداد للتخلّص منهم حتّى خلعوه ونفوه إلى واسط حيث قُتل.

٣ ـ المعتزّ بالله (٢٥٢ ـ ٢٥٥هـ/ ٨٦٦ ـ ٨٦٩م)، هو محمّد بن جعفر المتوكّل، الخليفة العباسيّ الثالث عشر، وُلد بسامراء ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م، توصّل إلى الخلافة بفضل القادة الأتراك بعد عزل المستعين، حاول التخلّص منهم بالتجائه إلى الجند المغاربة فعزله الأتراك وقتلوه.

والمهتدي بالله[1]، والمعتمد على الله[2]، أن يتحرّروا من وصاية الحرس الأتراك، فكان نصيبهم القتل على أيديهم.

---

١ ـ **المهتدي بالله** (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ ـ ٨٧٠م)، هو محمّد بن هارون الواثق، الخليفة العباسيّ الرابع عشر، وُلد بسامراء ٢٢٢هـ/ ٨٣٧م، سعى عبثًا إلى إصلاح أخلاق البلاط الفاسدة، عجز عن دفع مرتّبات الجند فقُتل.

٢ ـ **المعتمد على الله** (٢٥٦ ـ ٢٧٩هـ/ ٨٧٠ ـ ٨٩٢م)، هو أحمد بن جعفر المتوكّل، الخليفة العباسيّ الخامس عشر، وُلد بسامراء ٢٢٩هـ/ ٨٤٣م، كان أخوه الموفّق الحاكم الفعليّ فانتصر على الزنج وحارب البيزنطيّين، أعاد المعتمد العاصمة إلى بغداد سنة وفاته، توفّي مسمومًا ودُفن بسامراء.

الفَصلُ الخَامِس

سيطَرةُ السُّلالات الإقليمِيَّة

تجزُّؤ نطَاق الخلافَةِ العبَّاسيَّة؛

الأتـراك السَّلاجقَة؛

الأتابكَة؛ الأيوبيّون.

تجزُّؤ نطاق الخلافة العبّاسيّة

فيما كانت سلطة الخلفاء على الشلل الذي عرضناه في الفصل السابق، كان بعض السلالات الإقليميّة وحكّام المقاطعات يقتطع مناطق نفوذ من ممتلكات الخلافة، في المناطق والأقاليم الغربيّة والشرقيّة، وجلّ هؤلاء من الأتراك والفرس. ففي العام ٧٥٦ أفلتت إسبانيا من السيطرة العبّاسيّة، وكذلك المغرب، وفي العام ٧٨٨ تونس، وفي ٨٢٢ استقلّت خراسان، وحذت حذوها إيران الشرقيّة سنة ٨٧٠. وفي ٨٧٢ استقلّت مصر على يد حاكمها التركيّ أحمد بن طولون[١] الذي سلخ فلسطين أيضًا عن بغداد وضمّها إلى حكمه مع لبنان وسورية. وإذ استرجعت بغداد سيادتها على مصر سنة ٩٠٥، عادت مصر إلى الخروج عن طاعة العبّاسيّين مُستعيدة استقلالها على يد حاكمها التركيّ محمّد بن طغج، الملقّب بالإخشيد[٢]. وفي ٩٦٩، حلّ الخلفاء الفاطميّون[٣]

---

١ ـ **أحمد بن طولون** (٨٧٢ ـ ٨٨٤م.): مؤسّس الدولة الطولونيّة ٨٦٨ ـ ٩٠٥، أبوه طولون كان مملوكًا تركيًا أُهدي إلى الخليفة المأمون فأصبح قائد حرس المعتصم، خدم أحمد في طرسوس، نال ثقة لدى المستعين، والي مصر ٨٦٨، استقلّ بالحكم وأنشأ "القاطع" عاصمة له بالقرب من الفسطاس، مدّ سلطانه على سوريا والثغور والموصل، بنى الجامع المعروف باسمه في القاهرة.

٢ ـ **محمّد بن طغج** (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٦م): معروف بالإخشيد، مؤسّس الدولة الإخشيديّة بمصر، كان أبوه عبدًا من فرغانة دخل في خدمة العبّاسيّين، أرسل إلى مصر لإيقاف تقدّم الفاطميّين فتولّى الإسكندريّة وطبريّا ووطّد مركزه في فلسطين وسورية، نال من الخليفة العباسيّ لقب "الإخشيد" وهو لقب أمراء فرغانة، توفّي بدمشق بعدما تنازل لولده بوصاية كافور.

٣ ـ راجع الجزء التاسع عشر من هذه الموسوعة.

الشيعة محلّ الأتراك الإخشيديّين[1].

من بين هذه الدويلات، كانت الدولة الطولونيّة (٨٧٢ ـ ٩٠٤) والدولة الإخشيديّة (٩٣٥ ـ ٩٦٩) دولتين سنيّتين، إلاّ أنّ هذا الحكم السنّيّ على مصر، قد خُرق من قِبَل القرامطة[2] بين ٨٩٠ و٩٠٤، في عهد الطولونيّين. كما أنّ نهاية الإخشيديّين كانت على يد الفاطميّين الشيعة في العام ٩٦٩، الذين أنشأوا خلافتهم في مصر، واستمرّت حتّى سنة ١١٧١[3].

كذلك ظهرت في الحقبة نفسها، الإمارات الحمدانيّة الشيعيّة[4] في الموصل وشماليّ سورية، ونازعت الإخشيديّين السنّة في حلب بين ٩٠٥ و١٠٠٣، قبل أن تنشأ الخلافة الفاطميّة الشيعيّة في مصر عام ٩٦٩.

---

١ ـ **الإخشيديّون**: أصلهم من إيران، حكموا سورية ومصر ٩٣٥ ـ ٩٦٩ في أعقاب الدولة الطولونيّة والقرمطيّة، أنهى الفاطميّون حكمهم باستيلائهم على مصر ٩٦٩، وهم: محمّد بن طغج، أبو القاسم أنوجور بن إخشيد، أبو الحسن علي بن إخشيد، أبو المسك كافور، أبو الفوارس أحمد بن علي.

٢ ـ **القرامطة**: حركة دينيّة سياسيّة إجتماعيّة لا تزال حقيقتها على كثير من الغموض لانقراض أتباعها، تُنسب إلى داعيها الأوّل حمدان قرمط في العراق، أظهرها قويّة في البحرين أبو سعيد الجنّابي ٢٨٥هـ/ ٨٩٩م. ثمّ سيطرت على كثير من البلاد الإسلاميّة، استولوا على مكّة المكرّمة ٩٣٠ ونقلوا منها الحجر الأسود ثمّ ردّوه بعد ٢٢ سنة، انتزعوا دمشق من أيدي الفاطميّين ٩٧٠ وزحفوا إليهم في مصر فهزمهم المعزّ الفاطمي ٩٧٢، انتهى أمر القرامطة على أيدي الأمراء العيونيّين في البحرين ١٠٢٧، ورغم الغموض الذي يلفّ هذه الحركة يبدو أنّها كانت ذات نزعة إشتراكيّة بمفهوم اليوم؛ راجع الجزء الثالث والعشرين من هذه الموسوعة.

٣ ـ راجع الجزء العشرين من هذه الموسوعة.

٤ ـ **الحمدانيّون**: دولة أسّسها حمدان بن حمدون شيخ قبيلة تغلب واتّخذ ماردين قاعدة لها ٨٩٢، وسّع ابنه عبد الله وحفيده سيف الدولة حدود الإمارة حتّى حمص وجعل حلب عاصمة لها، كان حكم ولده سعد الدولة بداية الإنحطاط، قضى عليهم الفاطميّون ٩٩١؛ راجع الجزء العشرين من هذه الموسوعة.

وهكذا فإنّ التاريخ السياسيّ للخلفاء العبّاسيّين في بغداد، منذ السنة ٨٧٢، تاريخ انفصال مصر، حتّى زوال الخلافة العبّاسيّة سنة ١٢٥٨، قد اقتصر جغرافيًّا، على بغداد والعراق. إلاّ أنّ هذا الحكم، على بغداد والعراق، قد خُرق أيضًا من قِبَل الشيعة في الحقبة نفسها، وإن بشكل آخر.

ففي سنة ٩٤٥، عمد الخليفة العبّاسيّ "عبد الله المستكفي بالله" (٩٤٤ - ٩٤٦) إلى التخلُّص من الوصاية الخانقة التي فرضها عليه رئيس حرسه التركيّ الذي اتّخذ لنفسه لقب أمير الأمراء، بأن استدعى لنجدته أحمد بن بُوَيه، ابن الزعيم الإيرانيّ بُوَيه، المسلم الشيعيّ، سيّد المناطق الإيرانيّة الغربيّة منذ ٩٣٥، الذي دخل بغداد سنة ٩٤٥، فمنحه الخليفة لقب "معزّ الدولة" ورتبة "أمير الأمراء". أمّا هو، فقد اتّخذ لنفسه لقب "سلطان". فاستأثر بالحكم المطلق له ولورثته من بعده، وأسّس في بغداد الدولة البوَيهيّة (٩٤٥ ـ ١٠٥٥) الإيرانيّة الإسلاميّة الشيعيّة. فغدا الخليفة العبّاسيّ السنّيّ ظلاًّ، والخلافة اسمًا، وظلّت السيادة الإيرانيّة الشيعيّة على بغداد حتّى مجيء الأتراك السلاجقة السنّة، سنة ١٠٥٥[١].

---

١ ـ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ٢١٤ ـ ٢١٥؛ للاطّلاع على حكومات الشيعة في هذه الحقبة، راجع: الشيعة في الجزءين التاسع عشر والعشرين، والموحّدين الدروز في الجزء الثاني والعشرين من هذه الموسوعة.

الأتـــراك

السَّلاجقَة

يتحدّر الأتراك أصلاً من قبائل تركمانيّة، يتكلّم أهلها التركيّة، وهم رحّل، يتنقّلون عبر الصحاري والهضاب والجبال والأحراج الشاسعة في بلاد مونغوليا في آسية الوسطى. فهم والمغول، أبناء عمٍّ في الأصل. وفي القرن السادس بعد الميلاد، هاجر بعض هذه القبائل من منغوليا نحو الغرب، واستوطنوا بلاد ما وراء النهر، التي سُميّت في ما بعد باسمهم: تركستان، أي: بلاد الترك.

كان من جملة هذه القبائل التي استوطنت "بلاد الترك" قبيلة "الغز" أو "أوغوز" وكان زعيمها قد تمكّن مع عشيرته البدويّة من اجتياح منطقة بخارى[1]، حيث تمّ اعتناقهم الإسلام. وكان اسم زعيم هذه القبيلة: "سلجوق" وكانت هذه القبيلة، قبل ذلك التاريخ، قد نزحت إلى تركستان عن "أوزبكستان السوفياتية سابقًا" في القرن العاشر.

من بخارى، استأنف حفيد سلجوق: طغرل بك[2]، هذه الفتوحات غربًا، عبر فارس، حتّى دقّ أبواب بغداد سنة ١٠٥٥. ولم يكن أمام الخليفة القائم، لفرط عجزه، سوى طريق واحد يسلكه، هو أن يستبدل سيّدًا بآخر: ففارق الفرس الشيعيّين، ليستقبل سلاجقة الأتراك السنّيّين[3]. وبعد ان لقّب طغرل نفسه بالسلطان، ونقش لقبه

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ٢: ٣٢١ ـ ٣٢٢؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٠٤؛ قابل: بولس، التحولات، مرجع سابق، ص٢٢٤.

٢ ـ **طغرل بك** (ت١٠٦٣): هو طغرل إبن ميكائيل بن سلجوق، قائد سلجوقيّ ومؤسّس السلالة السلجوقيّة، قضى على البويهيّين ودخل بغداد ١٠٥٥ فخلع عليه الخليفة القائم العبّاسيّ لقب السلطان وملك الشرق والغرب، قهر البساسيري الذي احتلّ بغداد وخطب للخليفة الفاطمي المستنصر، وأعاد الخليفة العبّاسيّ ١٠٦٠.

٣ ـ إبن تغري بردي، نشر بوبر، ج ٢ قسم ٢ ص ٢٢٥؛ ابن خلّكان، وفيات الأعيان (القاهرة،١٢٩٩) ١: ١٠٧ ـ ١٠٨.

هذا على نقوده الذهبيّة، عمد إلى استقدام جموع من الأتراك السلاجقة وسواهم إلى غربيّ آسية، فانتشروا هناك، وأخذوا بالاستعراب واعتناق الإسلام تباعًا.

خلف طغرل ابن أخيه ألب أرسلان[1] (حكم ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢) ثمّ ابن ألب، ملكشاه[2] (حكم ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) وفي عهد هذا الأخير، بلغ سلطان السلاجقة حدود أفغانستان إلى حدود أمبراطوريّة الروم في آسية الصغرى. وكان ألب أرسلان قد احتلّ حلب سنة ١٠٧٠، واستتبع حاكمها المرداسيّ[3]؛ وانتزع قائدُ جيوشه التركمانيّ: أتسيز، من يد الفاطميّين رام الله والقدس وسواهما من المدن حتّى عسقلان جنوبًا، حيث صمدت بوجهه حامية عسقلان الفاطميّة[4]. وفي ١٠٧٦ احتلّ أتسيز دمشق، وانتهب المدينة ثمّ ضيّق على أهلها، ما حمل ألب أرسلان على إرسال ابنه: تُتُش[5]،

---

١ ـ ألب أرسلان (ت١٠٧٢): هو عضد الدولة محمّد أبو شجاع، السلطان السلجوقيّ الثاني ١٠٦٣ ـ ١٠٧٣، اشتهر بشجاعته، كبح الثورات، استولى على حلب ١٠٧٠ وعلى دمشق ١٠٧٦، وغلب رومانوس الرابع ملك الروم في مانتزكريت ١٠٧١، جرحه جنديّ كرخانيّ فمات متأثّرًا بجراحه.

٢ ـ ملكشاه الأوّل (١٠٥٥ ـ ١٠٩٢): ثالث سلاطين السلاجقة الكبار ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢، إبن ألب أرسلان وخلفه، تولّى الحكم وهو في الثامنة عشرة، ترك الأمر لوزيره نظام الملك فبلغت الدولة السلجوقيّة الأوج في امتدادها وازدهارها، جعل بغداد مقرّه الشتويّ، في عهده احتلّ القرامطة البصرة والحشّاشون قلعة ألموت وازدهرت "النظاميّات" ولمع عمر الخيّام، لاقى لقب "ملكشاه" رواجًا كبيرًا فاتّخذه في ما بعد عدد من ملوك السلاجقة.

٣ ـ بنو مرداس: دولة عربيّة شيعيّة (١٠٢٣ ـ ١٠٧٩) قامت على أنقاض الدولة الحمدانيّة، انطلقت من وادي الفرات وشملت حلب ومنبج وبالس والرقّة والرحبة ثمّ حمص وصيدا وبعلبك وطرابلس وامتدّت إلى عانا وملكت جميع وادي الفرات الشامي، أسّسها صالح إبن مرداس، اشتهر المرداسيّون بانتصارهم على ملك الروم أرمانس ١٠٣٠ في معركة فاصلة صدّته عن شمال سوريا، قضى عليها العقيليّون، آخر من حكم السلالة بن محمود.

٤ ـ إبن عساكر، مرجع سابق، ٢: ٣٣١.

٥ ـ تاج الدولة تُتُش (ت١٠٩٥): هو إبن ألب لرسلان وأحد أمراء سورية السلاجقة، حكم الشام ١٠٧٩ ـ ١٠٩٥ بعد أن احتلّ دمشق، حاول الوصول إلى العرش بعد وفاة أخيه ملكشاه فأخضع آمد والموصل ونكّل بنصّيبين، حارب الأمراء المجاورين لتأييدهم بركياروق إبن ملكشاه وانتصر عليهم قرب تلّ السلطان جنوب حلب ١٠٩٤ وأعدم آقسنقر، قُتل انتقامًا للأخير.

بعد سنتَين على رأس حملة عسكريّة لتأديب أتسيز، فاحتلّ تتش دمشق مجدّدًا، وقتل أتسيز[1].

كان السلطان السلجوقيّ: ألب أرسلان، قد أحرز نصرًا حاسمًا على البيزنطيّين في مانزكرت شماليّ بحيرة فان[2]، وأسر الأمبراطور نفسه، وبذلك "غدت آسية الصغرى* برمّتها مكشوفة أمام الأتراك، فتدفّقت قبائل السلاجقة الرحّل على أناضوليا وشماليّ الشام، واندفع قادة الترك حتّى هلسبونت[3]. وهكذا، وبضربة واحدة، دُفعت الحدود التقليديّة التي طالما فصلت بين المسيحيّة والإسلام أربعمائة ميل إلى الغرب، ولأوّل مرّة، استطاع الأتراك أن يحرزوا موطىء قدم في تلك الأصقاع ما زال في يدهم حتّى اليوم"[4].

وكما بعد كلّ فتح بزمن، قُسّمت السلطنة السلجوقيّة بين بعض من سلالتهم، فاستولى على آسية الصغرى ابن عمّ ألب ارسلان: سليمان، بعد أن ثبّت قدمَيه في إزنيق[5] سنة ١٠٧٧، وفي سنة ١٠٨٤ استرجع السلاجقة مدينة أنطاكية من الروم

---

١ - ابن خلكان، مرجع سابق، ١: ١٦٨.

٢ - فان VAN: مدينة في جنوب تركيا، بالقرب من الشاطئ الشرقيّ لبحيرة شهيرة تحمل اسمها وهي البحيرة المالحة الأكبر في تركيا، كانت لفان المدينة شهرة تجاريّة، أدمجت في الأمبراطوريّة العثمانيّة ١٥٤٣، استولى عليها الروس ١٩١٨ ثمّ استعادها الأتراك.

٣ - هلسبونت: الإسم الإغريقي لمضيق الدردنيل*.

٤ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٠٥.

٥ - إزنيق أو نيقيا أو نيقية NIKAIA: مدينة قديمة في آسية الصغرى، عُقد فيها مجمعان مسكونيّان، الأوّل حرم اريوس ٣٢٥ وأعلن "قانون الإيمان"، والثاني حرم محاربي الصور ٧٨٧، أصبحت عاصمة الأمبراطوريّة البيزنطيّة ١٢٠٤ ـ ١٢٦١، إسمها اليوم إزنيق.

وردّوها إلى الإسلام. وكان قلج أرسلان[1] أحد ابناء سليمان هذا، أول مَن اصطدم بطلائع الحملات الصليبيّة عام ١٠٩٦ لدى مرور الحملة في آسية الصغرى في طريقها إلى سورية.

أمّا دولة سلاجقة سورية فقد أسّسها تُتُش بن ألب أرسلان* الذي كان دخل دمشق، كما سبق، في العام ١٠٧٨. فقد استولى تُتش على مدينة حلب في العام ١٠٩٤، وجعلها قاعدة لولايته السوريّة. وإذ سقط في إحدى المعارك عام ١٠٩٥، حكم مكانه ابنه رضوان (حكم ١٠٩٥ ـ ١١١٣)[2] في حلب، وتولّى الحكم في دمشق دُقاق[3]، أخو رضوان؛ على أنّ دُقاق، اضطرّ إلى الاعتراف لأخيه بالسيادة العليا بعد خلاف نشب بينهما. وكان صهرٌ لتُتش، يتولّى إقطاع القدس، إلاّ أنّه أُجبر على التخلّي عنها للفاطميّين سنة ١٠٩٦[4]. ويبدو أنّ هؤلاء السلاجقة السنّة، قد تخلّوا عن مذهبهم موقّتًا، تبعًا لبعض المصالح. فإنّ رضوان بن تُتش، كان مواليًا للحشّاشين[5]

---

١ ـ **قلج أو كلج أرسلان**: إسم أربعة من سلاطين السلاجقة في آسية الصغرى، منهم الأوّل هذا، واسمه داود، أخذه ملكشاه إلى العراق ولم يغادرها إلاّ بإذن من بركياروق بعد وفاة ملكشاه ١٠٩٢، تحالف مع الأتراك "الدانيشمانديّة" ضدّ الصليبيّين، احتلّ ملاطيا وميافارقين والموصل، غرق في الخابور ١١٠٧.

٢ ـ **رضوان بن تُتُش** (ت١١١٣): صاحب حلب السلجوقي ١٠٩٥، حارب الأمراء المسلمين مستنصرًا تارة بالخليفة العباسيّ وطورًا بالخليفة الفاطمي، حارب الإفرنج وغلب على أمره، كان متشيّعًا للإسماعيليّة.

٣ ـ **دُقاق بن تُتُش** (ت١١٠٤): إبن السلطان السلجوقي تُتُش.

٤ ـ راجع: ابن الاثير، الكامل، مرجع سابق، ١٠: ١٥٧ ـ ١٦٨؛ إبن خلكان، مرجع سابق، ١: ١٦٨؛ إبن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (ليدن، ١٩٠٨)، ص١٣٠ ـ ١٣٢؛ إبن خلدون، مرجع سابق، ٥: ١٤٨.

٥ ـ **الحشّاشون** ASSASSINS: لقب أطلق على الإسماعيليّين النزاريّين أتباع الحسن بن الصبّاح وخلفائه، والتسمية مأخوذة من الكلمة الفرنجيّة وهي بمعنى فاتك، أطلقها عليهم الصليبيّون لاشتهارهم بالاغتيال، يبدأ تاريخهم باحتلال قلعة "ألموت" ١٠٩٠ على يد الحسن بن الصبّاح، اشتدّ نفوذهم بعد اغتيالهم للوزير السلجوقي نظام الملك ١٠٩٢، عمل السلاجقة على إخضاعهم عبثًا فاستولوا على قلاع مصياف وعليقة وقدموس ١١٤٠ ـ ١١٤١، عُرف رئيسهم بلقب "شيخ الجبل"، كسرهم المغول ١٢٥٦ ـ ١٢٦٠، ووجّه إليهم بيبرس الضربة القاضية ١٢٧٢؛ راجع الجزء الثالث والعشرين من هذه الموسوعة.

من الإسماعيليّة[1]، وكان أكثر الألبيّين[2] على ما يبدو: شيعة وإسماعيليّة[3]. وكان أهل السنّة يمقتونهم. وقد بقي رضوان نحوًا من شهر يدعو للخليفة الفاطميّ وللملّة الإسماعيليّة في صلاة الجمعة... لكنّه عاد بعده إلى الدعاء للخليفة العبّاسيّ؛ وقد تمكّن رضوان من صدّ حملات الإفرنج عن حلب، ومن الاحتفاظ بالمدينة في قبضته. لكنّ محاولاته لفكّ الحصار الإفرنجيّ عن أنطاكية سنة ١٠٩٨ باءَت بالفشل[4].

---

١ ـ **الإسماعيليّون:** هم القائلون بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق بعد أبيه، لم يختلفوا عن بقيّة المذاهب الإسلاميّة إلا بهذا القول حتّى خلافة المستنصر الفاطمي، فلمّا تولّى الخلافة بعده ابنه أحمد المستعلي انشقّ عن خلافته فريق من الإسماعيليّين بزعامة الحسن الصبّاح، وبايعوا لأخيه نزار، وبعد أن فشلت ثورتهم في الإسكندريّة انتقل الحسن بن الصبّاح إلى قلعة ألموت، وعندما أعلن الحسن بن محمّد زعيم النزاريّين ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢م. إلغاء الشعائر الدينيّة والامتناع عن إقامة الفرائض أصبح النزاريّون والحشّاشون مغايرين لأصحاب المذهب الإسماعيلي الفاطمي في حين ظلّوا يحملون اسم الإسماعيليّة حتّى اليوم، وهم أتباع أغاخان، أمّا الآخرون فهم المعروفون اليوم باسم البهرة أو السبعيّة.

٢ ـ نسبة إلى ألب أرسلان.

٣ ـ ابن الأثير، مرجع سابق، ١٠: ٣٤٩؛ ابن خلدون، مرجع سابق، ٥: ١٥٣.

٤ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٠٥ ـ ٢٠٦، ٢٢٦.

الأتابكة

خلف رضوان على حلب سنة ١١١٣ ابنه ألب أرسلان الثاني، وكان "فتًى في السادسة عشرة، فاجرًا ضعيف الإدراك؛ فاغتاله الوصيّ عليه. وحكم أخ له اسمه سلطان شاه ثلاث سنوات وهو تحت الوصاية، غير أنّه في العام ١١١٧ استولى على حلب قائد تركمانيّ من قادة الجيش السلجوقيّ، هو إيل غازي بن أرطق، واتّخذ مدينة ماردين قاعدة لهذا الفرع الناشىء من السلالة الأرطقيّة. وكان إيل غازي من أشدّ خصوم الصليبيّين"[1].

في سنة ١١٢٨ استولى على حلب محارب تركيّ آخر هو عماد الدين زنكي[2] من الموصل، وكان في أوّل أمره عبدًا في خدمة ملكشاه، ثمّ صار ضابطًا صغيرًا في جيش تُتُش. وفي السنة التالية أُلحقت حماه وحمص وبعلبك بسلطة زنكي الذي كان البطل المقاوم للصليبيّين. فقد تمكّن سنة ١١٤٤ من انتزاع الرها[3] من أيديهم، وقد حقّق في ما بعد البدء في سلسلة انتصارات عليهم، استأنفها في ما بعد ابنه نور الدين[4]، وبعده خلفه صلاح الدين... وكان من أتابكة الأتراك:

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

٢ ـ عماد الدين زنكي (ت١١٤٦): مؤدّب الأميرَين ألب أرسلان وفرّوخ شاه السلجوقيّين، اشتهر بمواهبه العسكريّة والسياسيّة والإداريّة، أتابك الموصل ١١٢٧ والجزيرة الفراتيّة ومؤسّس سلالة زنكي، انتزع مدينة الرها من أيدي الصليبيّين، اغتيل في حصار قلعة جعبر.

٣ ـ الرها أو إدسّا، أو أودسّا، EDESSE أو أورفا URFA : هي اليوم مدينة بين النهرَين في تركيا، تعدّ حوالى ٩٠,٠٠٠ نسمة، اشتهرت بمدرستها اللاهوتيّة التي انتقلت إليها من نصّيبين ٣٦٣ بعد فتح الفرس لهذه المدينة، فأصبحت الرها عاصمة الآداب السريانيّة حتّى القرن السابع، من أشهر أساتذتها افرام السرياني ورابولا، فتحها العرب ٦٣٩.

٤ ـ نور الدين زنكي (ت١١٧٤): إبن عماد الدين، أتابك حلب بعد اغتيال والده، حارب الصليبيّين وانتزع منهم بانياس ١١٦٤، ضمّ الموصل إلى إمارته بعد حصار شاقّ ١١٧١، شيّد الحصون والمساجد، دُفن في مدينة دمشق.

طغتكين[1]، وهو مولّى سابق لتُتش كلّفه بتأديب ابنه دقاق. وكما سواه من الأوصياء، عمد طغتكين إلى اغتصاب السلطة، ثمّ أُقرَّت سلطته على دمشق إثر وفاة سيّده القاصر وتزوُّجه من أمّه. ثمّ في العام ١١١٦ عيَّن كبير سلاطين السلاجقة في بغداد طغتكين حاكمًا على الشام، وأولاه حقّ فرض الضرائب وتجنيد الرجال. وقد حالف طغتكين، إيل غازي، فاشتركا في القتال ضدّ الإفرنج. وكان كلاهما من المسرفين في شراب الخمرة، وربّما بقي إيل غازي عشرين يومًا تحت تأثير الكحول في سكرة واحدة[2].

أمّا السلالة التي تحدَّرت من طغتكين، فقد عُرفت في ما بعد بالبوريّين[3]، نسبة إلى ابنه وخلفه بوريّ.

أمّا زنكي، فقد انتقلت بطولته في محاربة الصليبيّين منه إلى ابنه نور الدين محمود، الذي فاق أباه مقدرة، فتمكّن سنة ١١٥٤ من انتزاع دمشق من أحد خلفاء طغتكين. فامتدّ سلطانه من الموصل إلى حوران، وراح يمتدُّ جنوبًا. وقد لجأ نور الدين إلى السياسة، ليقوّي بها سلطانه الذي حقّقه عن طريق القتال، فبعث بأحد قوّاده البُسلاء: أسد الدين شيركوه، إلى عاصمة الخلفاء الفاطميّين الشيعة في مصر، حيث

---

١ - أمين الدولة أبو منصور طغتكين بن عبد الله (ت١١٢٨): مؤسّس السلالة البوريّة، كان أتابكًا لشمس الدين دُقاق ابن السلطان السلجوقي تُتُش، صاحب دمشق بعد وفاة دُقاق بن تُتُش١١٠٤، حارب الإفرنج وتحالف مع إيلغازي، خلفه ابنه بوري.

٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٠٧ - ٢٠٨؛ راجع: أبو شامه، الروضتَين في أخبار الدولتَين، (القاهرة ١٢٨٧) ١: ٢٤؛ ابن خلّكان، مرجع سابق، ١: ٣٤٤، ١٦٩؛ ابن خلدون، مرجع سابق، ٥: ١٥٥.

٣ - البوريّون: سلالة تركيّة حكمت في دمشق ١١٠٤ - ١١٥٤، أنشأها طغتكين الملقّب بأمين الدولة أبي منصور (ت١١٢٨)، حكم من البوريّين ستّة سلاطين كان أعظمهم بوري بن طغتكين، كان أفراد السلالة يلقّبون بـ "الأتابك"، عقدوا مع الإمارات الصليبيّة معاهدات سلم، حلّ محلّهم الزنكيّون بعدما طرد نور الدين زنكي آخر الأتابكة مجير الدين أبق ١١٤٠ - ١١٥٤.

فاز شيركوه سنة ١١٦٩، بتولّي الوزارة للخليفة الفاطميّ: العاضد[1] (١١٦٠ - ١١٧١) إلاّ أنّه مات بعد شهرَين، فانتقلت شارة الوزارة إلى ابن أخيه: صلاح الدين يوسف بن أيّوب[2]. وباستثناء بعض الشواذات، يمكن اعتبار حكم الأتابكة، حكمًا إسلاميًا سنّيًّا، وإن كان بعض سلاطينه غير ورعين.

---

١ - العاضد لدين الله (٥٤٤ - ٥٦٧ هـ/ ١١٤٩ - ١١٧١م): آخر الخلفاء الفاطميّين، استنصر بنور الدين لقتال الصليبيّين دفاعًا عن مصر، فأرسل إليه صلاح الدين الأيوبي الذي تولّى الوزارة وتصرّف في شؤون الملك وقضى على الدولة الفاطميّة.

٢ - أبو شامة، مرجع سابق، ١: ١٦٠.

الأيّوبيّون

تستمدُّ الأسرة الأيّوبيّة اسمها من نجم الدين أيّوب، والد صلاح الدين يوسف، المتحدّر من أسرة كرديّة عريقة، نزح من مسقط رأسه في منطقة أرمينيا، إلى العراق. وفي ١١٣٧م عيَّنه الأتابك التركيّ عماد الدين زنكي، أتابك الموصل، قائد حامية القلعة في حصن تكريت في العراق، حيث وُلد صلاح الدين سنة ١١٣٨. وإثر استيلاء عماد الدين زنكي على بعلبك التي انتزعها من البوريّين، عُيّن أيّوب حاكمًا على بعلبك، وقائدًا للحامية في قلعتها. ثمّ أصبح واليًا على دمشق في سنة ١١٥٤ بعد استيلاء أتابك الموصل نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي وخلفه عليها، وصار أخو أيّوب: أبو الحارث أسد الدين شيركوه، قائدًا للجند فيها. وفي دمشق، ترعرع صلاح الدين بن أيوب، قبل أن تنتقل إليه شارة الوزارة في الخلافة الفاطميّة الشيعيّة في مصر[1].

كان صلاح الدين، في ما يبدو، أكثر نزوعًا إلى العلوم الدينيّة منها إلى الشؤون العسكريّة. لذلك لم يرافق عمّه في حملته على مصر سنة ١١٦٤، إلاّ بعد تردّد وتمنّع[2]. ولكن يبدو أنّ تلك الروح الرامية إلى التعمّق في الدين، هي التي جعلت صلاح الدين في ما بعد، يقرر الانتقال إلى مصر.

يومذاك، كان العالم الإسلاميّ مشتّتًا مبعثرًا بين خلافتَين: عبّاسيّة سنّيّة، وفاطميّة شيعيّة، وعدّة سلطنات وإمارات وممالك. وكان الصليبيّون، في ذلك الوقت، يشكّلون خطرًا جدّيًا على صعيد الإسلام. وإنّ ما سوف يحقّقه صلاح الدين، في ما بعد، يجعل

---

١ - بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ٢٦٧ - ٢٦٨.

٢ - أبو شامة، مرجع سابق، ١: ١٥٥؛ أبو الفداء، مرجع سابق، ٣: ٤٧؛ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١١: ٢٢٣

الباحث يستنتج أنّ صلاح الدين قد سعى من خلال انتقاله إلى مصر، "لثلاثة أهداف: إحلال التعليم السنّيّ مكان التعليم الشيعيّ في مصر؛ وتوحيد مصر وسورية تحت سلطنة واحدة؛ ثمّ مواصلة الجهاد ضدّ الإفرنج"[1].

حقّق صلاح الدين هدفه الأوّل في العام ١١٧١، عندما شارف الخليفة الفاطميّ الشيعيّ: العاضد*، على الموت، إذ أصدر صلاح الدين أمره إلى الخطيب في المسجد بأن يذكر، في الخطبة، بدلاً من اسم الخليفة الفاطميّ، اسم الخليفة العبّاسيّ في بغداد: المستضيء[2]. وقد كان يومذاك صلاح الدين، وزيرًا للخليفة الفاطميّ. وهكذا كان أمر انتهاء الخلافة الفاطميّة وانتقالها إلى الخلافة العبّاسيّة، يسيرًا، لدرجةٍ وصفها المؤرّخون المعاصرون بأنّها حصلت "ولم ينتطح فيها عنزان"[3].

وإذ حقّق صلاح الدين هدفه الأوّل، بجعل الولاء للسنّة، في مصر، ووضع نهاية للخلافة الفاطميّة الشيعيّة، راح يسعى لتحقيق هدفه الثاني: توحيد مصر وسورية تحت سلطة واحدة. أمّا تلك السلطة الواحدة، فيجب أن تكون سلطته، إذ لم يكن من مجال للثقة، آنذاك، إسلاميًّا سنّيًّا، بأيّ سلطة أخرى كانت قائمة.

في الواقع، وإنْ كان خطيب مسجد القاهرة قد ذكر اسم الخليفة العبّاسيّ، فالسلطان في مصر، أصبح لصلاح الدين. وراح يتحرّر من نفوذ سيّده نور الدين، المالك في دمشق، ويؤسّس سلالته المالكة، بعد أن وضع يده على كنوز مصر، فوزّع بعضها

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٣٦.

٢ ـ المستضيء بالله: هو الحسن بن المستنجد، الخليفة العباسيّ الثالث والثلاثون (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ/ ١١٧٠ ـ ١١٨٠م).

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١: ٢٤٢؛ ابو الفداء، مرجع سابق، ٣: ٥٣؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٣٦.

على قوّاده، وباع بعضها الآخر، مودِعًا أثمانها في بيت المال. وهكذا ذكّر صلاح الدين بأوائل الخلفاء الراشدين، خاصّة وأنّه لم يلمس من ذلك المال شيئًا.

عندما توفّي نور الدين، سنة ١١٧٤ في دمشق، كان قد أصبح من السهل على صلاح الدين أن ينتزع الشام من ابن نور الدين: إسماعيل، وهو بعد في الحادية عشرة من عمره، دون أن يكلّفه ذلك أكثر من مناوشات صغيرة.

وهكذا، وبظرف سنتَين، حقّق صلاح الدين، هدفَين كبيرَين، وراح يتهيّأ للثالث: مقاتلة الفرنجة.

إنضمّت القيروان* والحجاز[١] فورًا إلى صلاح الدين، وغدتا جزءًا من الدولة الناشئة. ثمّ ألحق توران شاه[٢]، الأخ الأكبر لصلاح الدين، النوبة[٣] واليمن بهذه الدولة. وبعد سنة واحدة أو أقلّ (١١٧٥) أسند الخليفة العبّاسيّ إلى صلاح الدين، بناء على طلبه، السلطة على جميع هذه المناطق، بما فيها العراق الأعلى باستثناء الموصل،

---

١ ـ الحجاز: هو اليوم إقليم في المملكة العربيّة السعوديّة قاعدته مكّة المكرّمة، يحدّه خليج العقبة شمالاً والبحر الأحمر غربًا ونجد شرقًا وعسير جنوبًا، ينتمي سكّانه إلى قبائل متعدّدة منها الحويطات وجهينة وحرب، استقلّ ١٩١٦، ضمّ إلى المملكة العربيّة السعوديّة ١٩٢٦.، أهمّ مدنه: الحرمان أي مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، الطائف، تبوك شمالاً وهي أوّل منزلة من منازل الحجّ، تيماء، الوجه، ينبع، وجدّة.

٢ ـ **توران شاه بن أيّوب الملك المعظّم** (ت٥٧٦هـ/ ١١٨٠م): أمير أيّوبيّ أخو صلاح الدين الأكبر، حكم سورية ثلاث سنوات، توفّي في الإسكندريّة.

٣ ـ **النوبة**: منطقة أفريقيّة تمتدّ على شاطئ النيل بين أسوان، ودنقلة في السودان، تنقسم إلى النوبة السفلى: وهي الجزء الواقع في مصر بين أسوان ووادي حلفا، نُقلت آثارها حفاظًا عليها من مياه السدّ العالي، والنوبة العليا: وهي المناطق الواقعة في السودان. ازدهرت في عهد الفراعنة بفضل الطرق التجاريّة المؤدّية إلى السودان ومناجم الصحراء، شيّد فيها فراعنة السلالة ١٦ عددًا من المعابد والمعسكرات، أصبحت نبتة، بالقرب من جبال برقل قاعدة الحاكم الملقّب بصاحب كوش، أسّست فيها مملكة كوشيّة في القرن الثامن ق.م.، اتّخذ النوبيّون "مروى" عاصمة لهم بعد احتلال البطالسة لمصر ٣٠٠ ق.م.، اعتنقت المسيحيّة فنشأت فيها دولة أكسوم نحو ٣٥٠ ودنقلة واستمرّت حتّى القرن الرابع عشر لمّا اعتنقوا الإسلام، غزاها محمّد علي ١٨٢٠.

ما أمّن التكامل الجغرافيّ لهذه السلطنة[1]، وكان صلاح الدين قد أخضع حلب، وانتزع المناطق التي كان يسيطر عليها الحشّاشون.

بعد أن استتبَّ له الأمر في هذه السلطنة المتكاملة الأطراف، راح صلاح الدين يهيّىء قواه ضدَّ الفرنجة.

وبين معركة حطّين، قرب طبريّة، التي جرت بين جيش صلاح الدين والإفرنج سنة ١١٨٧، وهي أكبر معركة نشبت في جميع الحروب الصليبيّة، ووفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣، حقَّق هذا القائد الشهم الفذّ، المسلم السنّي ذو الأصل الكرديّ، صلاح الدين الأيّوبيّ، انتصارات للإسلام، ليس على الصعيد العسكريّ وحسب، بل أيضًا على الصعيد المعنويّ والدينيّ، لم يذكر التاريخ رجلاً حقَّق مثيلاتها من غير الخلفاء الراشدين. ومثله مثل باقي القادة المسلمين المتديّنين غير المتعصّبين، كان صلاح الدين متساهلاً ومتسامحًا مع رعاياه المسيحيّين، فلم يدّعِ الظلم أحد منهم في عهده، رغم أنّ حروبه كانت ضدَّ... الصليبيّين.

وقد يكون لِما قاله صلاح الدين، لقوّاده، رافضًا السماح لهم بدكّ قبر المسيح، أوضح بيان على تمسُّكه العميق بسنّة الرسول ﷺ وخلفائه الأوّلين. فهو قال:

> لماذا نهدمه (القبر المقدس) خصوصًا أنّ موضوع احترام المسيحيّين هو مكان الصليب والقبر لا البنيان الخارجيّ؟! فلنقتدِ بالفاتحين المسلمين الأُول، الذين احترموا الكنائس[2].

---

١ ـ أنظر: ابن الأثير، ج ١١ ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥ و ٣١٩ ـ ٣٢١.

٢ ـ راجع: بولس، التحولات، مرجع سابق، ص٢٨٠.

إذا كان صلاح الدين الأيّوبيّ، قد برع في رسالته الإسلاميّة والإنسانيّة إلى حدّ السطوع، فإنّ السلالة الأيّوبيّة التي أنشأها، لم تكن على قدر المسؤوليّة. ذلك أنّه بين وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٣، وبين هلاك آخر أمير من سلالة الأيّوبيّين: طوران شاه، على يد المماليك، لم يكن من أمراء هذه الأسرة سوى سجلٍّ من الصراع في ما بينهم. وقد اتّفق السوريّون منهم على عدم الاعتراف بسلطة مصر، فنقضوا بذلك الهدف الثاني من أهداف صلاح الدين. وانتقلت المعارك إلى ما بينهم، فيما غدت معاركهم مع الصليبيّين قليلة وثانويّة[1]. وبهذا نقضوا الهدف الثالث من أهداف صلاح الدين. حتّى أنّ بعض هؤلاء الأمراء كان يستدعي الإفرنج لمساعدته ضدَّ بعضهم الآخر. وبذلك انتهز الإفرنج الفرصة، وحصّلوا المغانم والمكاسب، فاستعادوا العديد من المناطق، ومنها القدس سنة ١٢٢٩ وسنة ١٢٤٣.

بيدَ أنّ كل هذا، لا يبدّل في تعريف عهد السلاطين والأمراء الأيّوبيّين، بأنّه كان عهدًا إسلاميًّا سنيًّا في مصر والمدن السوريّة. فإنّ دولة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، وعاصمتها القاهرة، دولة كرديّة إسلاميّة سنيّة، صلاح الدين والطبقة الحاكمة فيها من أصل كرديّ: ضبّاط جيشه وقادته أكراد وأتراك؛ وقد أنهى السلطان صلاح الدين الخلافة الفاطميّة والمذهب الفاطميّ الشيعيّ، وأعاد العقيدة السنيّة في مصر. أمّا ورثة السلطان صلاح الدين وخلفاؤه الأيّوبيّون، سلاطين مصر وأمراء المدن السوريّة، فمسلمون سنّيّون، من أصل كرديّ، غير أنّهم قد أنفقوا أوقاتهم وجهودهم في الدسائس والصراعات بعضهم ضدّ بعض، وقد تحالف بعضهم أحيانًا مع الصليبيّين ضدَّ البعض الآخر[2].

---

١ - WIET G. *L'EGYPTE ARABE*, P 236- 237.

٢ - بولس، التحولات، مرجع سابق، ص٢٦٥.

الفَصلُ السَّادِس

فِي ظِلّ حُكمِ الممَالِيك

المَمَالِيك؛ إجتيَاح المَغُول؛ القضَاء على الفرنجَة؛

دين دَولَة المَماليك؛

نشَاط التصوُّف؛ سلطة السُّلطَان؛

تيمورلنك .

المَماليك

في العربيّة، المملوك، جمعها مماليك، تعني: العبد. ومعنى المماليك: العبيد. والعبد هنا، لا تعني الزنجيّ، ولكنّها تعني الإنسان الذي تملّكه سيّد بشرائه، فملّكه، وأصبح مملوكه. فالمملوك، توضيحًا، هو الرقيق، والمماليك، هم الأرقّاءْ.

والمماليك، هم فعلاً أرقّاء أتراك وجراكسة ومغول. إستعان بهم الأيّوبيّون للخدمة العسكريّة، فتمكّن بعض زعمائهم من الوصول إلى الحكم، وأسّسوا في مصر سلالَتي المماليك البحريّة والبرجيّة[1]، اللّتَين حكمتا دولة سنّيّة، تركيّة ـ جركسيّة، بين ١٢٥٠ و١٥١٧.

في العام ١٢٤٩، توفّي الأيّوبيّ: الصالح نجم الدين أيّوب، سلطان مصر. فتمكّنت زوجته: شجرة الدرّ، من كتم أمر موت السلطان، مدّة ثلاثة اشهر، حتّى عاد إلى مصر ابنه طوران شاه من رحلة كان يقوم بها إلى بلاد ما بين النهرَين[2].

---

١ ـ **المماليك البحريّة والبرجيّة**: أمّا المماليك البحريّة (١٢٥٣ ـ ١٣٨٢) فاشتراهم أيّوب الصالح نجم الدين، وأنشأ منهم فصيلة الحرس وأسكنهم جزيرة الروضة على بحر النيل فدُعوا بالبحريّين، أوّلهم "أيبك المعزّ" (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) وآخرهم حاجي الثاني (١٣٨١ ـ ١٣٨٢)؛ أمّا المماليك البرجيّة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) فمن مماليك السلطان قلاوون، أقاموا في برج قلعة القاهرة فدُعوا بالبرجيّين، أوّلهم برقوق الظاهر (١٣٨٢ ـ ١٣٩٨) وآخرهم طزمان باي الأشرف الذي أعدمه السلطان سليم العثماني بعد سحقه المماليك في معركة مرج دابق ١٥١٦.

٢ ـ راجع: تاريخ ابي الفداء (القسطنطينية،١٢٨٦) ٣: ١٩٠.

كانت شجرة الدرّ جارية من أصل تركيّ أو أرمنيّ في حريم الخليفة العبّاسيّ: المستعصم، في بغداد. وبعد أن ولدت له صبيًّا، أعتقها، قبل أن يتزوّجها الصالح نجم الدين أيّوب. وإذ تسنّم طوران شاه سدّة الحكم، أساء معاملة زوجة أبيه، ومماليكه، فتآمر هؤلاء جميعًا عليه وقتلوه. ولأوّل مرّة في تاريخ الإسلام، غدا السلطان امرأة، وأصبح اسم شجر الدرّة موضوع الدعاء في صلاة الجمعة في المسجد. هذا ما جعل الخليفة العبّاسيّ، الذي أعتقها، وكان لا يزال سيّد الخلافة، يبعث برسالة إلى أمراء مصر جاء فيها:

إن كان ما بقي عندكم رجل تولّونه فقولوا لنا نرسل إليكم رجلاً[1].

وكانت شجر الدرّة قد حكمت ثمانين يومًا.

كانت رسالة الخليفة العبّاسيّ، جارحة لرجولة مماليك الصالح نجم الدين أيّوب، الذين غدوا مماليك السيّدة، بل.. السلطانة شجرة الدرّ. فقرّروا أن ينصّبوا كبيرهم، قائد جيش السلطانة: عزّ الدين أيبك، سلطانًا. وسرعان ما تزوّجت السلطانة السلطان الجديد، الذي راح يسحق الحزب الأيّوبيّ المطالب بالسيادة في الشام، إذ كان أعضاؤه يعتبرون أنفسهم ورثة أنسبائهم المصريّين. وإذ كانت شجرة الدرّ قد عيّنت ابن زوجها الأيّوبيّ، الطفل ذا السنوات الست، ليكون مشاركًا لها في الحكم، خلع السلطان المملوكيّ الأوّل هذا الطفل الذي كان اسمه: الأشرف. غير أنّ شجرة الدرّ، علمت أنّ من كانت وراء تنصيبه سلطانًا، قد عزم على الزواج من أمرأة ثانية، فأرسلت إليه مَنْ قتله في الحمّام. وإذ كانت شجر الدرّة على هذه الدرجة من العدائيّة، جاء مَن يقتلها: وكان قاتلها امرأة، جارية للزوجة الأولى لزوجها السابق، انقضّت على شجرة الدرّ

---

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٦٧، ومرجعه: السيوطي، حسن المحاضرة، ٢: ٣٩.

بالقبقاب وانهالت عليها ضربًا حتّى قضت، وكانت نهايتها بأن أُلقيت جثّتها من برج في قلعة القاهرة المعروفة بقلعة الجبل[1].

كان أيبك، الذي سلطنته شجرة الدرّ، بالتعاون مع سائر مماليك الأيّوبيّين، أوّل السلاطين (١٢٥٠ ـ ١٢٥٧) من سلسلة مماليك سيطروا أكثر من قرنَين ونصف من الزمن. وكان أوّل مَن استقدم هؤلاء الأرقّاء، آخر السلاطين الأيّوبيّين في مصر: الملك الصالح أيّوب (١٢٤٠ ـ ١٢٥٠) الذي كانت شجرة الدرّ زوجته، متّبعًا في ذلك خطّة الخلفاء العبّاسيّين الذين أدخلوا الأرقّاء الغرباء في الجيش والحرس. فقد ابتاع السلطان الأيّوبيّ جماعة من مختلف الأجناس والعناصر البشريّة الغريبة، جاؤوا، أو جيء بهم، فتيانًا من شمال البحر الأسود والقوقاز، كان معظمهم من الآسيويّين من أتراك وجركس، مسلمين سنّيّين اعتنقوا الإسلام في سنّ مبكّرة، وجعلهم بمثابة حرسه الشخصيّ. وسرعان ما أصبح هؤلاء بعد حقبة وجيزة، كما زملاؤهم عند العبّاسيّين في بغداد، أمراء الجيش وقادته. وها هم، كما زملاؤهم أيضًا، يصبحون سلاطين البلاد[2].

خلف السلطانَ المملوكيَّ الأوّل: أيبك، سلسلةٌ من السلاطين والحكّام، جرى العرف على تقسيمهم إلى سلالتَين: المماليك البحريّة (١٢٥٠ ـ ١٣٩٠) وذلك نسبة إلى النّيل، الذي يُدعى عندهم بالبحر، إذ كانت ثكناتهم تقوم على إحدى جزره الصغيرة، وكانوا في أكثرهم من الترك والمغول؛ والمماليك البرجيّة (١٣٨٢ ـ ١٥١٧) وكانوا في الغالب من الجراكسة[3].

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، مرجع سابق، ١٠: ٦٠ وما بعدها.

٢ ـ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨؛ راجع ابن خلدون، مرجع سابق، ٥: ٣٧٣؛ أبو الفداء، مرجع سابق، ٣: ١٨٨.

٣ ـ راجع: ابن خلدون، مرجع سابق، ٥: ٣٦٩.

كانت السلطنة تُنقل من واحد إلى آخر بشكل غريب. فغالبًا، لم تكن السلطنة المملوكيّة وراثيّة، بل كانت تنتقل من السلطان إلى أحد عبيده أو بعض المرتزقة من أتباعه، ممّن تميّزوا بعمل مهمّ، أو أحرزوا شهرة كبيرة. وهكذا فإنّ العبد بالأمس، كثيرًا ما كان يصبح قائد جيش في الحاضر، ليغدو في المستقبل: السلطان[١].

هؤلاء المماليك، الذين كانوا عمومًا، سفّاكين وبعيدين عن الثقافة، شاءَت الأقدار أن يؤدّوا للإسلام خدمات جُلّى، ليس أقلّها أنّهم حرّروا بلاد الشام ومصر من بقايا الصليبيّين، وأنّهم أوقفوا الزحف المخيف الذي قامت به قبائل المغول والتتر بقيادة هولاكو وتيمورلنك. ويعتبر بعض البحّاثين في تاريخ الشرق الأدنى، أنّه لولا وقوف المماليك بوجه المغول والتتر، "لجاز أن يكون سبيل الحضارة والتاريخ، في غربيّ آسية ومصر، برمّته، غيره اليوم"[٢].

إجتيَاح المَغُول

ما أن سيطر المماليك على السلطنة في مصر سنة ١٢٥٠، حتّى بدأت جيوش المغول تجتاح أراضي الأمبراطوريّة الإسلاميّة، زاحفة من مجاهل آسية الوسطى. وفي سنة ١٢٥٨ استولت هذه الجيوش على بغداد، فقتلت الخليفة العبّاسيّ المستعصم بالله، الذي به انتهت هذه الخلافة، وظلّت العاصمة العبّاسيّة: بغداد، زمنًا غير قصير،

---

١ ـ أنظر: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٦٥ ـ ٢٦٨.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٦٨.

متروكة للنهب والحريق، بعد أن قُتل أكثر من مائة ألف من سكّانها، وهُدمت أحياؤها، وظلّ الرحّالة يذكرون بغداد على أنّها مدينة مدمّرة في القرنَين الثالث عشر والرابع عشر. وخضع العاهل الأيّوبيّ في الموصل للمغول بلا مقاومة. وفي السنة التالية، اجتاح المغول حلب، ونهبوها، واستسلمت دمشق بلا مقاومة. وهجرها أميرها الأيّوبيّ نحو الجنوب، حيث اندفع الفاتحون نحو غزّة سنة ١٢٥٩.

إلاّ أنّ المماليك، في مصر، إتّخذوا المبادرة، وسارعوا إلى ملاقاة العدوّ الآسيويّ الجديد في فلسطين، حيث دحروه بعد معركتَين، إلى ما وراء الفرات سنة ١٢٦٠، فدخل المملوكيّ السلطان قطز[١] إلى دمشق دخول المحرّرين. ولكنّ القائد المملوكيّ الذي دحر المغول، لم يكن السلطان قطز، إنّما كان "بيبرس"، أحد قوّاده. وهو في الأصل رقيق تركمانيّ، نشأ في حضن الدولة الأيّوبيّة. وفي أثناء رجوعه إلى مصر، منتصرًا ظافرًا، قتل مولاه السلطان قطز، واغتصب الحكم لنفسه. وقد غدا: الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) أعظم سلاطين المماليك. وليعطي لحكمه شكلاً من مظاهر الشرعيّة، استقدم إلى القاهرة أحد العبّاسيّين الذين نجوا من اجتياح المغول، وأقامه خليفة. وبذلك غدا مركز الخلافة مقامًا دينيًّا اسميًّا فحسب. وصارت القاهرة مركز هذا المقام، الذي بقي على حاله حتّى سقوط المماليك واحتلال مصر والشرق الأدنى من قِبَل الأتراك العثمانيّين سنة ١٥١٧، إذ جعل هؤلاء لقب "خليفة رسول الله لسلطانهم في القسطنطينيّة"[٢].

---

١ ـ الملك المظفّر قطز: ثالث المماليك البحريّين (١٢٥٩ ـ ١٢٦٠): اشتراه السلطان أيبك ثمّ عيّنه "نائب السلطنة"، أصبح وصيًّا على ابن السلطان بعد اغتياله ١٢٥٧ ثمّ عزله وأعلن نفسه سلطانًا.

٢ ـ بولس، التحوّلات، مرجع سابق، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

إستمرّت غزوات المغول لبلاد الشام حتّى العام ١٣٠٣. وبعد أن تمكّن هؤلاء من تحقيق عدّة انتصارات ومن تسديد ضربات قاسية للمماليك، استعاد المماليك المبادرة سنة ١٣٠٣ في معركة مرج الصفّر جنوبيّ دمشق، وقضوا على آخر غزوة مغوليّة، وتمكّن المماليك من قهر أخطر وأشدّ عدوّ واجهته مصر منذ ظهور الإسلام.

كان العراق أشدّ المناطق تأثّرًا بغزوات المغول. فبعد أن قضى الاجتياح الأوّل سنة ١٢٥٨ على بغداد والخلافة، راحت عاصمة العبّاسيّين تتقهقر اقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا. وفي الوقت نفسه، أنغلقت إيران في وجه اللغة العربيّة، حيث انحصر استعمالها في الحقل الدينيّ، وتحوّلت النشاطات الثقافيّة إلى اللغة الفارسيّة. وطالت مرحلة الاضطراب وفقدان الأمن في العراق، بسبب تتابع السلالات الحاكمة الغريبة عليها، من مغوليّة إلى تيموريّة إلى تركمانيّة، وكانت قد تعرّضت سنة ١٤٠٥ للغزو، وهذه المرّة من قبل تيمورلنك، الذي أعاد تدمير بغداد ونهبها. وبعد الكارثة التيموريّة، أصبح العراق تحت رحمة القبائل والعصابات التركمانيّة التي قلّما عرفت الرحمة.

في ١٥٠٢، انتزع الحكم في بلاد فارس الشاه إسماعيل (١٥٠٢ ـ ١٥٢٤) مؤسّس الأسرة الفارسيّة الصفويّة، وهو من أصل تركمانيّ، فاحتلّ ديار بكر والموصل وبغداد وخراسان، وقد اتّخذت هذه الأسرة مذهبها الشيعيّ أداة للحكم[١].

---

١ ـ راجع: بولس، التحوّلات، مرجع سابق، ص ٢٩٣.

القضـــــــاء على الفرنجَة

في هذه الأثناء، تمكّن المماليك من القضاء نهائيًّا على الفرنجة. ففي ١٢٨٩ استولوا بقيادة السلطان قلاوون[1] على طرابلس بعد شهر من الحصار؛ وعلى عكّة بعد حصار دام ٤٥ يومًا. وفي السنة نفسها، استسلم سائر المدن التي كانت واقعة تحت سيطرة الفرنجة: حيفا، صور، صيدا، بيروت، طرطوس، وغيرها. وعلى يد المماليك، انتهت المغامرة الفرنجيّة، أو الصليبيّة، في الشرق، بعد حوالى مائتَي سنة من بدئها.

فقد تراوحت السيطرة الفرنجيّة على بعض مناطق الشرق الأوسط بين قدومهم الأوّل سنة ١٠٩٦ وخروجهم من هذه البلاد على أيدي المماليك سنة ١٢٩١، بين حالات مدّ وجزر، تخلّلتها ثماني حملات عسكريّة تلت الحملة الشعبيّة الأولى، وقد انتهت الحملات الصليبيّة بطرد الفرنجة تمامًا من الأراضي العربيّة على يد المماليك في أواخر القرن الثالث عشر. وكان من أبرز الأبطال المسلمين الذين أخذوا على عاتقهم محاربة الغزاة الفرنجة، إضافة إلى عماد الدين زنكي (ت١١٤٦)، وابنه نور الدين (ت١١٧٤)، وصلاح الدين الأيّوبي (١١٣٨ ـ ١١٩٣)، ومن المماليك الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ ـ ١٢٧٧) أعظم سلاطين دولة المماليك إطلاقًا، وهو الذي جاء على رأس سلسلة من السلاطين الذين سدّدوا إلى سورية اللاتينيّة

---

١ ـ الملك المنصور قلاوون: خليفة بيبرس في سلطنة المماليك البحريّين (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠): وُلِد في كبتشاك حيث وُلد بيبرس، اشتراه الملك الصالح أيّوب ثمّ اعتقه، لُقّب بالألفي لأنّ ثمنه في سوق النخّاسين كان ألف دينار، كان وصيًّا على سلامش إبن بيبرس الذي تسنّم العرش وهو ابن سبع سنين، نودي به سلطانًا بعد عزل سلامش، اشتهر في الحملة على الأرمن ١٢٧٣، انتصر على جيوش المغول والأرمن والإفرنج، بنى البيمارستان المنصوري في القاهرة.

الضربات القاضية الأخيرة، ومنهم الملك الأشرف (١٢٩٠ ـ ١٢٩٣) الذي انقضّ على آخر معاقل الصليبيّين في الشرق، فهاجم عكّة في ١٨ آيار (مايو) ١٢٩١ وفتحها "ولم يراعِ عهد الأمان الذي قطعه على نفسه للهيكليّين[1]، بل فتك بهم أشدّ الفتك، وقد غدت المدينة بحكم الزائلة من الوجود"[2]. وفي اليوم الذي سقطت فيه المدينة الفلسطينيّة الأخيرة، أجلى الصليبيّون عن صور اللبنانيّة. ولم يبقوا في صيدا أكثر من شهرَين. ثمّ انسحبوا من بيروت قبل نهاية تمّوز (يوليو). وهجروا طرطوس في بداية آب (أغسطس) ولم يبقَ من الصليبيّين سوى الهيكليّين الذين صمدوا في جزيرة أرواد حوالى إحدى عشرة سنة. فكانوا خاتمة مشهد النهاية من فصل الوجود الصليبيّ في الشرق. وبذلك عاد الشرق إلى الشرق.

بيدَ أنّ قتال المماليك للمغول، والفرنجة، قد أوقع في الأقلّيّات الدينيّة في سورية ولبنان وفلسطين نكبات كبرى، إذ حاسب المماليك كلّ مَن تعاون، من دروز وشيعة ومسيحيّين، مع المغول أو مع الصليبيّين ضدّهم، حسابًا صارمًا.

قد يكون من العسير جدًّا التمكّن من الإحاطة بجميع الانعكاسات الفعليّة التي خلّفتها الحروب الصليبيّة، إن على المسيحيّة في الشرق، أم حتّى على المجموعات الإسلاميّة المنشقّة عن السنّة. ذلك أنّ تلك الحروب كانت متعدّدة الجبهات بحيث أنّه لم تجرِ مع خلافة معيّنة، أو مع عرق معيّن، بل هي بدأت مع السلاجقة الأتراك، وانتهت مع

---

١ ـ الفرسان الهيكليّون TEMPLIERS, TEMPLARS: جمعيّة عسكريّة رهبانيّة أسّست ١١١٨ للدفاع عن الأراضي المقدّسة وتأمين سلامة الحجّاج إليها، أطلق عليها إسم فرسان الهيكل نسبة إلى هيكل سليمان حيث أنشئ مقرّها الأوّل بالقرب من موقعه، انتقلت من ثمّ إلى الغرب حتّى حلّها ملك فرنسا فيليب الرابع مع البابا كليمنضوس الخامس ١٣١٣.

٢ ـ أبو الفداء، مرجع سابق، ٤: ٢٥ ـ ٢٦؛ المقريزي، كتاب السلوك لمعرفة الملوك، نشر مصطفى زيادة (القاهرة،١٩٣٤)، ٢: ١٢٥ ـ ١٢٩.

المماليك السنّة، مرورًا بالفاطميّين الشيعة، وببقايا الخلافة العباسيّة الرمزيّة، وبالأتابكة الأتراك، ومن ثمّ بصلاح الدين وورثائه الأيّوبيّين. وهي كذلك تفاعلت مع شعوب، وتفاعل معها، سلبًا وإيجابًا، أي عداوةً وتحالفًا، وبحسب الأوقات والظروف، أقوام منهم: المسيحيّون البيزنطيّون، والمسيحيّون المنشقّون عن الكنيسة الجامعة: أقباطًا ونساطرة ويعاقبة وأرمن...، إضافة إلى مَن تفاعل معها مِن مناصرين ملكيّين غربيّين وموارنة؛ ومن مسلمين منشقّين عن السنّة: شيعة وقرامطة وحشّاشين وعلويّين ودروز...

لقد كانت الحروب الصليبيّة في الشرق عنصرَ تحويل أساسيّ في المسار السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، بل والكيانيّ لزمن طويل، لا نبالغ إذا قلنا إنّه لم ينتهِ تفاعلاً حتّى اليوم. فلولا الوجود الصليبيّ لما كان صلاح الدين قد وجد نفسه أمام قضيّة استوجبت ترسّله وريادته من أجل توحيد المسلمين في ملّة واحدة وفي قوّة واحدة. فإنّ ردة الفعل الإسلاميّة الوجدانيّة الكيانيّة على اجتياح الصليبيّين المسيحيّين للشرق الذي كان قد استقرّ أكثر من أربعة قرون تحت سيطرة سياسيّة وعسكريّة إسلاميّة، كانت بمثابة ضخّ قوة جديدة في مسيرة الإسلام الذي كان، عشيّة وصول الصليبيّين إلى القسطنطينيّة، مفكّكًا متناحرًا بين عروق ومذاهب وخلافات، على أنّ الخطر المصيريّ الآتي من مقلب الشمس، قد طبّق المقولة المعبّر عنها بالعديد من الحِكم والأمثال الرائجة في أوساط مجتمعات هذه البقعة من العالم، وأشهرها إسلاميًّا: أنصر أخاك ظالمًا كان أم مظلومًا.

قبل الصليبيّين كانت بيزنطية تشكّل، بنظر الإسلام، تلك القوّة الخارجيّة التي اعتُبرت، لزمن طويل، القاعدة المرجع لمَن يقاومونها من مسيحيّين في مناطق سيطرته، غير أنّ وصول الجيوش الغربيّة اللاتينيّة بتلك القوّة قد جعل المسلمين منذ

ذلك التاريخ، يمدّون نظرهم إلى ما وراء حدود القسطنطينيّة. وبانسحاب الصليبيّين من هذه الأرض، نشأ واقع غاب عن رؤية الكثير من الباحثين، ألا وهو أنّ ذلك الانسحاب، كان بمثابة تقاسم غير معلن للشرق والغرب، بين المسيحيّين والمسلمين: الشرق للمسلمين، والغرب للمسيحيّين.

كان للحروب الصليبيّة، عمليًا نتائج مناقضة تمامًا للهدف الذي كانت من أجله تلك الحروب أساسًا. فلقد جاء الصليبيّون إلى الشرق تحت شعار الصليب وبهدف حماية المسيحيّين والمسيحيّة فيه، ولكن بانعطافهم عن أهدافهم، أو بالأحرى عن الأهداف التي أرسلوا من أجلها، انتفى الجامع بينهم، فكانت الخلافات لا بل المنازعات في ما بينهم التي زادت في زعزعة مملكتهم الغربية عن أرضها إلى أن انهارت تمامًا. وبذلك كان على مسيحيّي الشرق أن يتحمّلوا وزر الأحقاد التي خلّفها الإفرنج في قلوب المسلمين. وقد انصبّ الحقد والكره اللذان ولّدتهما الحروب الصليبيّة على المسيحيّين من أهل البلاد، وعلى تلك الأقلّيات المسلمة المنشقّة عن السنّة، بحجّة أنّ بعضها قد ساند "الكفّار" بحسب الافتاءات التي صدرت في ذلك العصر. وبالإجمال "فإنّ عواقب الحملات الصليبيّة على الشرق كانت مفجعة. فقد خشي المماليك رجوع الإفرنج، إذ كان بعضهم قد تحوّل إلى جزيرة قبرص، فعمدوا إلى تخريب المرافيء"[1].

فبينما يذكر الرحّالة إبن جبير (١١٤٥ ـ ١٢١٧) أنّ عكّة، بعد صور، كانت أشد المدن ازدهارًا في سورية الإفرنجيّة، "وقد كانت مدينة منقطعة النظير بحصونها"[2]، يذكر رحّالة آخر زار المنطقة بعد الأوّل بقرن من الزمن، أنّها كانت خرابًا

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٢٥٩؛ راجع: أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩؛ إبن بطوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار، الطبعة الفرنسيّة (باريس، ١٨٩٣) ٢١: ١٢٩ ـ ١٣٠؛ قابل: الإدريسي، نشر غولد ميستر، ص ١١.

٢ ـ إبن جبير محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، ص ٣٠٤.

يبابًا[1]. وقد يكون إبن بطّوطة أفضل مَن أعطى صورة عن وضع المنطقة إثر تحريرها من الإفرنج، فيذكر أنّ عسقلان كانت خرابًا، وكذلك مدينة عكّة، وصور، وطبريّة "التي كانت في ما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبقَ منها إلاّ رسوم تنبىء عن عظمتها"[2].

وهكذا أصبحت جميع مدن الشاطىء الواقعة بين عسقلان وطرابلس خرابًا أو ما يشبه الخراب[3].

وإمعانًا في سياسة التخريب، عمد سلاطين المماليك إلى تدمير لبنان تدميرًا منظّمًا، بعد أن عملوا ببعض النصوص الشرعيّة القديمة، وباجتهادات لفقهاء مسلمين سنّة، فضيّقوا على النصارى وأوجبوا الحدّ من نفوذهم، كما أنّهم أحدثوا تدابير جعلت المسلمين المُنشقّين يتساوون مع المسيحيّين في المقاساة. ففي سنة ١٢٧٧ هدم العامل المملوكيّ في القدس كنيسة القيامة "وقتل قسّيسها بيده وحوّلها إلى زاوية إسلاميّة. كما هدم المماليك كنيسة الروم في الإسكندريّة التي كانت مقرًّا بطريركيًا يعتقد الأرثوذكس أنّ رأس يحيا بن زكريّا[4] مدفون فيها، ثمّ جعلوها مسجدًا وأطلقوا عليها اسم المدرسة الخضراء" على ما ذكر مؤرّخ المماليك شهاب الدين النويري (١٢٧٨ ـ ١٣٣٢)[5].

---

١ ـ أبو الفداء (١٢٧٣ ـ ١٣٣٣)، تقويم البلدان، ص ٢٤٣.

٢ ـ إبن بطوطة، تحفة النظار، ١: ١٢٦ ـ ٢٣١.

٣ ـ راجع: ابو الفداء، تقويم البلدان، ص ٢٣٩.

٤ ـ يحيى بن زكريا في المراجع الإسلامية هو اسم ليوحنا المعمدان.

٥ ـ النويري، نهاية الأرب، طبعة باريس، ج٢٩، ص ٩٨.

وإذ حقد المماليك على مسيحيّي الرها وأنطاكية بسبب التأييد الذي أبداه هؤلاء للصليبيّين، عمدوا إلى ابتزاز جميع أموال مسيحيّي القدس وسلعهم، وعملوا على تشريدهم مستثنين العاجزين والمرضى والنساء والأطفال[١]. وفي العام ١٢٨٩ أصدر السلطان المملوكيّ قلاوون (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠) مراسيم تُحرّم على "النصارى" من رعاياه تولّي الوظائف الحكوميّة. وعمد خليفته السلطان الناصر محمّد بن قلاوون (١٢٩٣ ـ ١٢٩٤) إلى تطبيق التدابير القديمة التي أوجبت على أهل الذمّة أن يرتدوا ملابس خاصّة يُعرفون بها، وأن يمتنعوا عن ركوب الخيل والبغال. كذلك فعل الناصر الثاني الحسن ابن الناصر محمّد (١٣٤٧ ـ ١٣٥١) الذي زايد على جدوده فأمر بإلغاء عيد قوميّ من أعياد القبط، وأقفل الكثير من كنائس المسيحيّين في مصر[٢]. ناهيك عمّا تعرّض له موارنة لبنان من مجازر[٣]. وما عاناه مسيحيّو مصر في تلك الحقبة سواء كانوا من الأرثذوكس أو من الأقباط المونوفيزيّين[٤]. ومن المدوّنات أنّه في سنة ١٤٤٢ "ختم على كنائس النصارى الملكيّين في مصر لأنّه وجد داخلها أعمدة من الحجارة المنحوتة... وحصل على جميع أهل الطوائف من أهل الذمّة من الإهانة والتغريم ما لا مزيد عليه"[٥].

وفي سنة ١٤٤٥ أمر الملك الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ ـ ١٤٥٣) بهدم جدار كنيسة الملكيّين في القاهرة" لأنّ جدارها عالٍ على مسجد يجاورها وأنّه يجب

---

١ - WILLIAM OF TYRE, I: 334.

٢ ـ المقريزي، كتاب السلوك، ترجمة كاترمير، ١: ٦٩.

٣ ـ راجع الجزء الرابع عشر من هذه الموسوعة.

٤ ـ راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٥ ـ إبن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأنباء العمر، طبعة باريس، ص٢٦١.

هدمه"[1]. وبعد سنتَين أمر السلطان بهدم تلك الكنيسة، وهي الواقعة بقصر الشمع، وأمر ببيع أنقاضها، ليُبنى بثمنها مسجد في مكانها[2]. و"عندما توفّي السيد أحمد بن حسن بن علي الشافعي الشهير بن النعماني سنة ١٤٤٨، كان قد أسلم على يده ثمانون كافرًا... ولم يبقَ في قصر الشمع ولا دموة (الجيزة) ولا في المدينة كنيسة للنصارى إلاّ وقد شملها من السيد إمّا هدم، وإمّا بعض هدم، وإمّا إزالة منبر، أو أيقونة أو حجاب أو هيكل"[3].

لم يكتفِ السلطان جقمق بكل هذا، بلّ "جهّز خاصكيًّا اسمه إينال باي... فحضر إلى القدس الشريف بمرسوم من الملك الظاهر بالكشف على الديارات وبهدم ما استجدّ بدير صهيون وغيره. وانتزاع قبر داوود من النصارى. فهُدم البناء المستجدّ بصهيون، وأُخرج قبر داوود من أيدي النصارى، ونُبشت عظام الرهبان المدفونين بالقبو الذي به قبر داوود... وكان ذلك اليوم مشهودًا. وفي تلك السنة وقع البطش بالنصارى، فأُخرج المسجد من دير السريان وسُلّم للشيخ محمّد المشمّر وصار زاوية. وهُدم البناء المستجدّ ببيت لحم وبالقيامة، وقُلع الدرابزين الخشب... وأُخذ إلى المسجد الأقصى بالتكبير والتهليل. وكُشفت جميع الديارات وهُدم ما استجد بها"[4]. وقد اعتبر المؤرّخ المسلم أنّ تلك الأعمال التي جاد بها السلطان سيف الدين جقمق في أواخر عهده جعلته مؤهّلاً لأن "يختم الله أعماله بالصالحات وإزالة الديارات المنكرات"[5]، ما من شأنه أن ينمّ عن الحقد الذي خلّفته الحملات الصليبيّة في نفوس المسلمين.

---

١ ـ المرجع السابق ص٢٦١ ـ ٢٥٧.

٢ ـ السنحاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص١٨٠ ـ ١٨٢.

٣ ـ السنحاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.

٤ ـ الحنبلي مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

٥ ـ المرجع السابق.

دين دَولَة

المَماليك

إعتُبرت دولة المماليك "دولة إسلاميّة سنيّة" إلاّ أنّ هذه الدولة، لم تكن أصيلة في إسلامها وفي سنيِّتها، وإن كانت قد سارت على هذا الاعتبار، ظاهريًّا. ذلك أنّ هؤلاء كان لا بدّ لهم من الظهور بمظهر المدافع عن دين شعب المناطق التي سيطروا عليها. وكان دين الدولة التي سيطروا عليها، قد تحولّ، على يد صلاح الدين، إلى الإسلام السنّيّ.

وهكذا فإنّ الفضل في اعتناق هذه الدولة، السنيّة، في عهد المماليك، إنّما يعود إلى الأيّوبيّين، وأسلافهم النوريّين[1]. إذ كان عمد النوريّون في بلاد الشام إلى إنشاء "المساجد الجامعيّة"، وهي كناية عن مدارس وحلقات فقهيّة ومجامع شرعيّة، أنهضوها من أجل أن تثبت الدولة مذهب أهل السنّة وتعمل على انتشاره، وكانت تعنى بالتعاليم التي أقرّتها السنّة وأيّدها الفقه الإسلاميّ، عن طريق تعلُّمها وتدريسها. وكان الأساتذة والطلاّب يتلقّون مرتّبات من وقفيّات مخصّصة لهذه المؤسسات. وكان المدرّسون من جماعة الفقهاء والعلماء والمحدّثين، وقد ساد عرفٌ يقضي بأن تكون الوظائف المدنيّة لخرّيجي هذه المدارس دون سواهم. وقد عمّت هذه المدارس حلب وحمص وحماة إضافة إلى دمشق، في عهد نور الدين[2]، ولا يزال في دمشق اليوم ثلاثة مبان على الأقلّ، كانت مخصّصة لهذا النوع من المدارس الجامعيّة، دُفن نور الدين في

---

١ - النوريّون: هم المنسوبون إلى الأتابك نور الدين زنكي* المتوفّي ١١٧٤.

٢ - أنظر: إبن خلكان، مرجع سابق، ٢: ٥٢١؛ ابن الأثير، مرجع سابق، ١١: ٢٦٧.

إحداها، وهي المدرسة النوريّة التي كانت إحدى أجمل المباني المدرسيّة قاطبة في ذلك العصر[١].

وقد شهدت الحقبة نفسها نهضة على صعيد بناء المساجد، خاصّة على يد نور الدين، الذي بنى عددًا من المساجد الكبرى، منها مسجد حماة الذي لا يزال يحمل اسمه، ورمَّم المساجد القديمة في عدد من المدن.

وسلك الأيّوبيّون طريق النوريّين في هذا المجال. وكان أبرز من اهتمّ ببناء المدارس منهم، صلاح الدين، الذي نقل نظام المدرسة المسجد إلى مصر، بهدف محاربة تعاليم الشيعة. إضافة إلى ما بناه من مدارس في بلاد الشام وفلسطين، وإلى إدخاله تكيّة الدراويش إلى جميع البلاد[٢].

نشَـــاط التصوُّف

في هذه الحقبة، نشط التصوّف، وظهرت فيه اتّجاهات جديدة. وكانت حلب مسرحًا رئيسًا لنشاط شهاب الدين السُّهروردي (١١٥٥ ـ ١١٩١) أحد أبرز المتصوّفين، ومؤسّس مذهب التصوّف الاشراقيّ، ومنشيء إحدى طرق الدراويش، وهو صاحب مؤلفات عديدة في التصوّف الإشراقيّ. وقد أغضبت نشاطات السُّهروردي الفقهاء

---

١ ـ أنظر: النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، نشر الحسني (دمشق،١٩٤٨) ص ٦٠٦ ـ ٧٠٧.

٢ ـ راجع: السيوطي، مرجع سابق، ٢: ١٥٦ ـ ١٥٨؛ ابن خلكان، مرجع سابق، ٣: ٥١٦، ٥٢١؛ المقريزي، مرجع سابق، ٢: ٣٦٣، ٤١٥.

السنّة المحافظين، فطالبوا صلاح الدين بإلحاح، بإعدامه. وهكذا جاء لقب السُّهروردي: الشيخ المقتول[1].

ومن أصحاب مذاهب التصوّف الكبار في تلك الحقبة، محيي الدين ابن عربيّ (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) الذي انتقل من مسقط رأسه: الأندلس، إلى الشام، وعمل على نشر مذهبه في التصوّف النورانيّ[2].

سلطة

السُّلطان

في عهد المماليك، لم يبقَ السلطان ثانيًا لخليفة المسلمين، الذي أصبح رمزًا، يوافق على اختيار السلطان من قبل الأمراء، ويقلّده السلطة. وغالبًا ما كان الخليفة يوافق، بحضوره، على أعمال لا تمتُّ إليه بصلة. فالسلطان هو صاحب الدولة: هو سلطان المسلمين والإسلام، بحكم أنّه المفوّض العام للخليفة. فبينما كان الخليفة يملك، كانت السلطة الفعليّة بيد السلطان[3].

---

١ ـ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٩٠ ـ ٢٩٢؛ ابن خلكان، مرجع سابق، ٣: ٢٥٧ ـ ٢٦٠؛ ابن أبي أصيبعة، عيون الانباء في طبقات الاطباء (القاهرة،١٨٨٢) ٢: ١٧٠.

٢ ـ من مؤلفاته المنشورة: الفتوحات الملكية (القاهرة، ١٢٩٣) في أربعة أجزاء؛ الإسراء على مقام الاسرى (القاهرة،١٢٥٢)؛ راجع: ابن عرابي، ترجمان الاشواق، نشر نيكلسون (لندن،١٩١١) ص ١٩، ١٦٧؛ AFFIFI A.E., *THE MYSTICAL PHYLOSOHPY OF MUHYID IBN EL ARABI* (CAMBRIDGE,1930), PP. 3, 5, 47, 108, 183- 184.

٣ ـ راجع بولس جواد، لبنان والبلدان المجاورة، مؤسسة أ. بدران وشركاه (بيروت، ١٩٧٣) ص٣٢٢ ـ ٣٢٥؛ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

لم يكن عهد المماليك من العهود المشرّقة في تاريخ الإسلام، رغم ما نجح به هؤلاء في الشؤون الحربيّة، التي مكّنتهم من تحرير مصر وبلاد الشام من المغول والتتر وبقايا الصليبيّين. ذلك أنّ المماليك، قد حكموا في جوٍّ من الفساد والدسّ والاغتيال والشغب، "فكان عدد من هؤلاء السلاطين عاجزين وخونة؛ وكان بعضهم فاسدين بل ساقطين؛ وكان أكثرهم غير مثقّفين. وقد ادّعى واحد منهم فقط، هو برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٨٩) بأنّه تحدّر من والد مسلم. أمّا برسباي (١٤٢٢ ـ ١٤٣٨) فلم يكن يحسن العربيّة؛ أمّا إينال (١٤٥٣ ـ ١٤٦٠) فلم يكن يحسن توقيع اسمه على الوثائق الرسميّة إلاّ إذا رسمه فوق كتابة أمين سرّه. ولم يكن السلاطين وحدهم فاسدين، بل إنّ الأمراء أيضًا، وسائر مَن في الحكم، كانوا على جانب من الفساد... ولم يستطع أقدر الموظفين أن يستمرّوا في وظائفهم أكثر من ثلاث سنوات، إلاّ في ما قلّ وندر. وقد عُيّن أحد القضاة وعُزل عشر مرّات"[1]. وإنّنا نحجم عن ذكر بعض تفاصيل ما تثبّته المدوّنات عن تصرّفات بعض هؤلاء السلاطين، على الصعد الخلقيّة، لياقة[2].

أمّا نهاية هذه الدولة التركيّة الجركسيّة الإسلاميّة السنيّة، في سياستها، والتي كانت في واقع سلاطينها، بعيدة عن مفهوم السنّة والإسلام، فكانت على يد الأتراك العثمانيّين، بعد أن تلقّت ضربة قاسية من تيمورلنك في نهاية القرن الرابع عشر.

---

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

٢ ـ أنظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، نشر جوينبول (ليدن،١٨٥٥) ٧: ١٥٥٩؛ الإسحاقي، أخبار الاول في من تصرّف في مصر من الدول (القاهرة،١٢٩٦) ص٢١٠.

تيمورلنك

تيمورلنك المغوليّ، الذي ادّعى بأنّه سليل جنكيزخان[1]، انطلق بجموع قبائله كالعاصفة الهوجاء من أواسط آسية، واكتسح غربيّ آسية تاركًا في أثره الدمار والخراب. وللمرّة الرابعة أو الخامسة وجدت سورية نفسها طريحة عند أقدام المغول. "ففي تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٤٠٠، أُبيحت مدينة حلب مدّة ثلاثة أيّام للنهب والسلب؛ ولعلّها المرّة الأولى التي أُخذت فيها قلعتها عنوة، ولكن بعد أن ضحّى الغزاة من رجالهم بما كان كافيًا لأن يملأ الخندق المحيط بها بجثث القتلى، وبلغ عدد القتلى من الأهلين نحوًا من عشرين ألفًا، وقد نُضّدت رؤوسهم في كومة بلغ ارتفاعها عشرة أذرع ومدارها عشرين ذراعًا. أمّا المدارس والمساجد التي أنشأها النوريّون والأيّوبيّون والتي فاقت كلّ تقدير، عفا أثرها إلى الأبد. وبعد أن أباد الغزاة طلائع جيش السلطان فرج الأوّل (١٣٩٨ ـ ١٤٠٥) خلت أمامهم السبيل إلى دمشق، لكنّ قلعتها صمدت في وجههم مدّة شهر استسلمت المدينة بعد انقضائه؛ غير أنّ الفاتحين أخلّوا بشروط التسليم، فتعرّضت المدينة للنهب وأُضرمت فيها النيران. فقد حُصر ثلاثون ألفًا من سكّانها رجالاً ونساء وأطفالاً في جامعها الكبير، ثمّ أُضرمت فيه النار، فلم يبقَ قائمًا من بنائه إلاّ الجدران. وعلى الأثر نُقل خيرة مَن كان في دمشق من علماء ومحترفين وفنّانين وحدّادين وصانعي الأسلحة والأدوات الزجاجيّة إلى سمرقند[2]،

---

١ ـ جنكيزخان إبن يشوكي (١١٦٧ ـ ١٢٢٧): منشئ الأمبراطوريّة المغوليّة، وُلد في إقليم دولون بلدق في بلاد الروس، كان اسمه الأصلي تيموجين، هزّ بفتوحاته أركان الدول جميعًا بين الصين والبحر الأسود، أسّس أمبراطوريّة امتدّت من أطراف الصين الشرقيّة إلى إيران ووادي السند (الأندس) في الهند، عُدّ من أعظم بناة الأمبراطوريّات في التاريخ.

٢ ـ سمرقند: مدينة في أوزباكستان من جمهوريّات الاتّحاد السوفياتي سابقًا، خربها جنكيزخان ١٢٢٩، استولى عليها تيمورلنك وجعلها عاصمته وفيها قبره، هي اليوم مركز صناعي.

عاصمة تيمور، من أجل أن يُنشئوا فيها هذه الصناعات، وسواها من الفنون الفرعيّة... وكان الفاتح الجامح قد سحق الجيش العثمانيّ عند أنقره واجتاح بروسة وأزمير وأسر بايزيد الأول[1]. على أنّه كان من حسن حظّ المماليك أن لاقى تيمور حتفه سنة ١٤٠٤. ونشب على أثر ذلك نزاع بين خلفائه، انتهى إلى فتنة داخليّة، استنفدت قواهم جميعًا، فأتاح ذلك للسلطنة العثمانيّة أن تستعيد سيادتها على آسية الصغرى، وسهّل للسلالة الصوفيّة بعد ذلك، أن تفرض سلطتها على فارس... ولم تلبث المنافسة بين المماليك والسلطنة العثمانيّة على السيادة في آسية الغربيّة أن بلغت ذروتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر"[2].

---

١ ـ **بايزيد الأول** (١٣٤٧ ـ ١٤٠٢): لقبه "يلدوم" أي الصاعقة، سلطان عثماني ١٣٨٩ ـ ١٤٠٣، احتلّ الصرب وحارب القسطنطينيّة سبعة أعوام، أسره تيمورلنك في معركة أنقرة ١٤٠٢.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٩٦ ـ ٢٩٧.

الفَصلُ السَّابِع

نصفُ الألفِ العثمَانِيّ

العُثمَانيُّون؛

الزَّحف العُثمَانيّ؛

الديـن الإسلامـيّ سنَد الدولَة العثمَانيَّة.

العُثمانيُّون

تصادفنا كلمة تُرك، لأوّل مرّة، في أخبار العام ٥٠٠م. حيث سُمّي بها أقوام من بدو آسية الوسطى، تمكّنوا من إنشاء دويلات بدائيّة انتشرت في منغوليا[1] حدود الصين الشماليّة وصولاً إلى البحر الأسود. وكان أول اتّصال قد جرى بين المسلمين العرب، وقبائل الترك، في حوالى سنة ٦٧٤، لمّا كان العهد أمويًّا، حيث اجتاح زياد بن معاوية تركستان[2]. وعادت جيوشه إلى البصرة، بعد فتحها لمدن مرو وبلخ وهراة، ومعها الكثير من الأسلاب التي غنمتها من قبائل الترك في ما وراء نهر جيحون[3].

هذه القبائل من الرحّل، التي عُرفت بقبائل التّرك، كانت تقيم في آسية الوسطى بين بحر آرال وجبال التائيّ. وهي تقسم إلى ثلاثة فروع: الويغور، والكرلوك، والأغوز أو الغزّ. وقد نزح بعضها شرقًا، وبعضها غربًا نحو النهر. وقد بلغ فرع من الغزّ، آسية

---

١ ـ منغوليا MONGOLIE : منطقة في آسية الوسطى تقع بين الصين والاتّحاد السوفياتي السابق، ومنغوليا اليوم قسمان: الجمهوريّة الشعبيّة: وهي منغوليا الخارجيّة سابقًا، عاصمتها أولان باتور؛ ومنغوليا الداخليّة: وهي منطقة مستقلّة شمالي الصين، عاصمتها هوههوت.

٢ ـ راجع: البلاذري، مرجع سابق، ص ٤٠٩ ـ ٤١٠؛ الطبري، مرجع سابق، ٢: ١٦٦ وما يليها.

٣ ـ جيحون أو أمودريا AMOU-DARIA: نهر ٢,٥٤٠ كلم، هو أوكسوس القديم، نبعه من جبال بامير بالهند، يجتاز آسية السوفياتيّة سابقًا ويصبّ في بحر آرال.

الصغرى، فوجد أنّها قد تتركت جزئيًا على أيدي أنسبائهم السلاجقة*، الذين يعودون بالنسب أيضًا إلى فرع الغزّ من الترك. أمّا الفرع الذي جاء بعد السلجوقيّين، فقد انتسب إلى عثمان، وهو زعيم تاريخيّ تركيّ، عاش ما بين ١٢٥٩ و١٣٢٦، فعُرف فرعه ببني عثمان، أو بالعثمانيّين[١]. ويظهر أنّ هذه القبائل كانت قد اعتنقت الإسلام. وقد أسّس عثمان هذا دولة في حوالى ١٣٠٠، بقيت حتّى سنة ١٣٦٦ شبه إمارة صغيرة، اتّخذت سنة ١٣٢٦ مدينة بروسا[٢] قاعدة لها. ثمّ غدت بين سنة ١٣٦٦ وسنة ١٤٥٣ مملكة عاصمتها مدينة أدرنا[٣]. وفي ١٤٥٣ افتتح محمّد الثاني العثمانيّ القسطنطينيّة، فغدت هذه الدولة الإسلاميّة التركيّة، وريثة للأمبراطوريّة البيزنطيّة، وقد ظفرت في ما بعد بضمّ عدد من الدول العربيّة بعد أن سلختها عن الخلافة العبّاسيّة. وبلغت الأمبراطوريّة التركيّة العثمانيّة أوج عزّها في عهد سليمان الأوّل الملقّب بالقانونيّ (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)[٤] وهو ابن سليم الأوّل[٥] فاتح سورية ومصر. وتمّ في عهده الاستيلاء على الجانب الأكبر من

---

١ - راجع: KOPRÜLÜ MEHAMED FUAD, *LES ORIGINES DE L'EMPIRE OTTOMAN* (PARIS,1935) PP. 87, SEQ.; WITTEK PAUL, *THE RISE OF THE OTTOMAN EMPIRE* (LONDON,1938) PP. 7, SEQ.

٢ - بروسّ أو بورصا BROUSSE: مدينة في غربي تركية، فتحها أورخان بن عثمان سنة ١٣٢٦ واتّخذها العثمانيّون عاصمة لهم حتّى فتح أدرنا التركيّة الأوروبيّة سنة ١٣٦١، وهي بيزنطيّة، أصل اسمها .ADRINOPLE

٣ - أدرنا أو أدرنة .ADRINOPLE : مدينة في تركيا الأوروبيّة، من مدن الأمبراطوريّة البيزنطيّة، فتحها الأتراك ١٣٦١ فأصبحت مقرًّا لسلاطينهم حتّى ١٤٥٣.

٤ - **سليمان الأوّل القانونيّ**: عاشر السلاطين العثمانيّين وأعزّهم ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦، لقّبه الأتراك بالقانونيّ والفرنجة بالعظيم، قاد بذاته ثلاث عشرة حملة في أوروبّا وآسية، دوّن القوانين والشرائع، بلغت الأمبراطوريّة العثمانيّة في عهده أوجها فازدهرت الآداب والفنون، أوثق عرى الصداقة بين أوروبّا والبابا العالي ومنح فرنسوا الأوّل ملك فرنسا الامتيازات الأجنبيّة.

٥ - **السلطان سليم الأوّل**: تاسع السلاطين العثمانيّين ١٥١٢ ـ ١٥٢٠، قضى على دولة المماليك في موقعة مرج دابق بالقرب من حلب ١٥١٦ وفتح سوريا ومصر فخضعت كلّ البلاد العربيّة للحكم العثماني.

هنغاريا[1]، وإلقاء الحصار على مدينة فيينّا[2]، واحتلال جزيرة رودس[3]؛ وأقرّت شماليّ إفريقية، باستثناء مراكش، بالسيادة السياسيّة عليها للباب العالي في القسطنطينيّة. على أنّ إخفاقهم في محاولتهم الثانية لفتح فيينّا سنة ١٦٨٣ كان مؤذنًا ببداية النهاية. وقد امتدّت الأمبراطوريّة في عهد سليمان الأوّل من الدانوب على نهر بودابست إلى بغداد على نهر دجلة، ومن بلاد القرم إلى شلّال النيل الأوّل. ولم ينشىء المسلمون في العصر الحديث دولة هذا مداها؛ وكانت إلى ذلك من أطول الدول الإسلاميّة عمرًا؛ فقد توالى على عرشها من سنة ١٣٠٠ حتّى ١٩٢٢، تاريخ انحلال الأمبراطوريّة، ستّة وثلاثون سلطانًا، كلّهم متحدّرون عصَبًا من عثمان، المؤسّس الأوّل[4].

---

١ ـ هنغاريا HONGRIE أو المجر MAGYAR شعبها المجريّون أو المجر أو المجيار، ينتمي إلى الفصيلة اللغويّة الفينيّة ـ الأجريّة، كانوا قبائل رحّلاً هاجرت الأورال حوالى ٤٦٠ الى شمال القوقاز حيث اتّصلوا بالشعوب التركيّة، أكرههم شعب البتشنجر على الارتحال غربًا فاستقرّوا تحت زعامة "أرباد" في هنغاريا حوالى ٨٩٥، فتحوا مورافيا وتغلغلوا في ألمانيا، أوقف الأمبراطور "أوتو" زحفهم في لتشفلد ٩٥٥، كان المجر وثنيّين، وفي أواخر القرن العاشر سمح ملكهم "جيزا" للمبشرين المسيحيّين بدخول أراضيه، فدخلوا وبشّروا الناس، وقبل المعموديّة ابنه الملك "إسطفانُس" أو "ستيفن" (٩٩٧ ـ ١٠٣٨) الذي يبدأ معه تاريخ هنغاريا أو المجر، فقد طلب إلى البابا سلفسترُس الثاني أن يرسل إليه مبشّرين آخرين، فلبّى طلبه وبعث إليه بالتاج الملوكيّ أيضًا، واستقلّ الملك لادِسلاّس (١٠٧٧ ـ ١٠٩٥) عن سلطة الأمبراطور الجرمانيّ وعن سلطة البابا السياسيّة، وأصبحت المجر دولة مسيحيّة إلى أن قضى عليها السلطان العثمانيّ سليمان الثاني.

٢ ـ فيينّا WEIN: عاصمة النمسا، تقع شمال شرقي البلاد على نهر الدانوب، من أجمل مدن أوروبا، هي اليوم مركز النمسا الثقافيّ والماليّ والصناعيّ والفنّيّ، فيها جامعة ودور للكتب ومتاحف وأبنية فخمة منها كاتدرائيّة القدّيس استفانُس وقصور الأباطرة، عُقد فيها مؤتمر لتنظيم أوروبّا بعد سقوط بونابارت ١٨١٤ ـ ١٨١٥.

٣ ـ رودس RHODES : إحدى جزر الأرخبيل اليوناني، تقع بقرب الساحل الغربي الجنوبي من تركيا الأسيويّة، صمدت أمام حصار سليمان الثاني ١٥٢١ ثمّ دخلت في ممتلكات الدولة العثمانيّة، احتلّها الإيطاليّون ١٩١٢ ثمّ أصبحت لليونان ١٩٤٧.

٤ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٣٠٤ ـ ٣٠٥

الزّحف العُثمَانيّ

نشب القتال أوّلاً بين العثمانيّين من جهة، والصفويّين الفرس من جهة ثانية، الذين كانوا قد فرضوا سلطتهم على فارس، وهم من غلاة الشيعة، فجعلوا مذهبهم الدين الرسميّ للدولة. وقد اتّهم سليم الأوّل العثمانيّ السلطان قانصوه الغوريّ المملوكيّ[1] (١٥٠٠ ـ ١٥١٦) بعقد معاهدة مع شاه الصفويّة ضدّه، وبأنّه ألجأ إلى مصر بعض السياسيّين المناهضين للسطنة العثمانيّة.

أرسل قانصوه إلى سليم الأوّل رسولاً بقصد التوسّط بين العثمانيّين والصفويّين، فما كان من سليم إلاّ أنْ أمر بحلق لحية الرسول المملوكيّ، وبإعادته على حمار أعرج، حاملاً إلى سيّده ردًّا مفاده: إعلان الحرب.

وفي ٢٤ آب (أغسطس) ١٥١٦، التحم الجيشان في مرج دابق[2]، شماليّ حلب. فلعبت خيانات المماليك، من قادة وولاة، دورًا فعّالاً في سرعة انهزامهم. وكان الجيش العثمانيّ، وجلّه من الإنكشاريّة[3]، يستخدم الأسلحة الحديثة من بنادق ومدافع، بينما جيش المماليك من بدو وسوريّين، لا عهد له بمثل هذا السلاح. وفي صميم المعركة،

---

١ ـ **الملك الأشرف قانصوه الغوري**: سلطان المماليك البرجيّين ١٥٠١ ـ ١٥١٦، حاكم ولاية البحريّة ثمّ "حاجب الحجّاب" في حلب، فرض ضرائب جديدة وتلاعب بالعملة لدفع رواتب الجيش، حاول نجدة اسماعيل الصفوي ضدّ السلطان سليم الأوّل العثماني الذي أوقع به في معركة مرج دابق حيث قُتل.

٢ ـ **مرج دابق**: موضع في سوريا الشماليّة بين منبج وانطاكيا على نهر قويق، اتّخذه السلطان سليمان بن عبد الملك معسكرًا، وفيه مات، فيه أيضًا أقام هارون الرشيد، وفيه انتصر السلطان سليم على المماليك ١٥١٦.

٣ ـ **الإنكشارية**: كلمة تركيّة، تعني: الجيوش الجديدة، وهي تسمية أُطلقت على فرق المشاة التي كانت تتألف بغالبيتها من شبان مسيحيّين أسروا في الحروب، وقد تمّ أكثر الفتوحات العثمانيّة على أيديهم.

أُصيب قانصوه بسكتة قلبيّة وهو على جواده. فتمَّ بذلك النصر للسلطان سليم، الذي اعتقل الخليفة العبّاسيّ، وأخذه إلى القسطنطينيّة. وفي تشرين الأول (أكتوبر) اتّجه سليم إلى دمشق، فانتقلت بلاد الشام بسهولة إلى أيدي العثمانيّين. ورحّب الدمشقيّون وسواهم بالأسياد الجدد، على أنّهم المنقذون. ومن سورية زحف الجيش العثمانيّ جنوبًا إلى مصر، حيث كان قد خلف قانصوه، عبده طومان باي، والتقى الجيشان في ٢٢ كانون الثاني (يناير) ١٥١٧ خارج القاهرة، فانهزم الجيش المصريّ، وهرب طومان باي إلى مضرب للبدو، لكنّه سُلِّم غدرًا وشُنق في ١٧ نيسان (إبريل) على أحد أبواب القاهرة[١]... أمّا الحجاز بمدينتَيه: مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة، فقد أصبح جزءًا من الأمبراطوريّة العثمانيّة، وأصبح الواعظون يبتهلون إلى الله من أجل "السلطان ابن السلطان، مالك البرَّين والبحرَين، وكاسر الجيشَين، وسلطان العراقَين، وخادم الحرمَين الشريفَين، الملك المظفّر سليم شاه"[٢].

وهكذا بدأ عهد الأتراك العثمانيّين في تاريخ العرب والإسلام.

---

١ ـ راجع: القرماني، أخبار الدول وآثار الأول، (بغداد،١٢٨٢) ص ٢١٩ ـ ٢٢٠؛ IBNIAS, ED: PAUL KAHLE (ISTANBUL, 1932) VOL. V.

٢ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ٢٩٩.

الديـــن الإسلامــــيّ
سنَد الدولَة العثمَانيَّة

تمكّن العثمانيّون من جعل الدين الإسلاميّ سندًا للدولة، وأداة بيد السلطة. فبأسرهم لآخر الخلفاء العبّاسيّين، أصبح السلطان هو الذي يعيّن الرؤساء الدينيّين ويقيلهم، ولم تكن سلطة هؤلاء لتتميّز عن سلطة موظّفي الدولة. وكانت سلطة السلطان العمليّة، بيد الصدر الأعظم، أي الوزير الأكبر، أو رئيس الوزراء، يليه مُفتي العاصمة، الشخصيّة الثانية في الدولة، فهو مفسّر الشريعة الدينيّة الإسلاميّة. وبعد احتلال القسطنطينيّة سنة ١٤٥٣ تقدّم مُفتي العاصمة على زملائه في الولايات، فصار يُلقّب بشيخ الإسلام. على أنّ سلطة المفتي لم تكن ثابتة في جوهرها، لأنّه كان بوسع السلطان في أيّ لحظة أن يعزله أو أن يعدمه. وكان اجتهاد القضاة يرتكز على الشريعة الدينيّة الاسلاميّة، وعلى المذهب السنّيّ، بعد فتوى المفتي. وهكذا احتوت الدولة العثمانيّة صلاحيّات الخليفة... "أمّا الادّعاء بأنّ الخليفة (العبّاسيّ الأخير الذي اعتقله السلطان سليم وأخذه إلى القسطنطينيّة) أوصى بمنصبه الرفيع إلى السلطان العثمانيّ، فحكاية من مولّدات القرن التاسع عشر". والثابت أنّه بعد زمن من أسر الخليفة، إتُّهم بأنّه أساء استعمال الأموال الموقوفة، وألقي في غياهب السجن. "ثمّ أُفرج عنه، فعاد إلى القاهرة حيث توفّي سنة ١٥٤٣..."

وإذا كان يصعب تأريخيًّا إثبات قضيّة تنازل الخليفة عن الخلافة للسلطان سليمان الذي خلف السلطان سليم، فضلاً عن أنّها قضيّة ليست على شيء من الأهمّيّة، فالواقع هو أنّ السلطان العثمانيّ، أقوى حاكم إسلاميّ، شرع تدريجًا بممارسة واجبات الخلافة وحقوقها، حتّى اعتُرف له بصورة طبيعيّة بأنّه خليفة المسلمين. ولمّا بعث السلطان سليمان إلى شريف مكّة المكرّمة، زين الدين بن بركات، برسالة أخبره فيها عن وفاة

السلطان سليم، وذكر أنّه تسنّم سدّة السلطنة بعده، وأنّه أصبح "مستقرّ الخلافة"... فإنّ شريف مكّة المكرّمة في جوابه على الرسالة، هنأ السلطان على تسنّمه العرش، وعلى "منصب الخلافة بعناية الله". وكان شريف مكّة المكرّمة السابق، قبل هذا التاريخ، قد سلّم السلطان سليم مفاتيح الأماكن المقدّسة وشارات أخرى للخلافة، إضافة إلى الشارات التي استلمها السلطان من الخليفة المتوكّل، ومنها البردة، والذخائر النبويّة، وهي العصا والخاتم والحذاء والسنّ وخصلة من الشعر، وقد أُودعت هذه السرايا الكبير في استنبول. وأوّل مستند دبلوماسيّ يشير إلى أنّ السلطان، هو خليفة المسلمين، إنّما هو ما ورد في معاهدة "كوتشك كينارجي" بين الأتراك والروس، المعقودة سنة ١٧٧٤.[١]

وسواء كان السطان العثمانيّ، خليفة شرعًا، أم لم يكن، فإنّ الحكم العثمانيّ كان بعيدًا، عمليًّا، عن الشرع الإسلاميّ الأصيل. فقد كان رعايا السلطان، جميعًا، بمَن فيهم أصحاب المراكز في الدولة، عبيدًا للسلطان، ويُعرفون رسميًّا بهذه الصفة. وكان كابوس العثمانيّين ثقيلاً على الشرق عامّة، وعلى الأقلّيّات الدينيّة خاصة. فقد كان عهدهم عهد انحطاط اقتصاديّ واجتماعيّ وثقافيّ وسياسيّ، وكان نسيجًا من المظالم والخيانات والمجازر والحروب[٢]. وإذ كانت معاناة أهل السنّة، أقلّ من تلك التي عاناها أبناء سائر الملل في العهد العثمانيّ، سواء كانت تلك الملل إسلاميّة أم غير إسلاميّة، فإنّ التأثير السيّء الذي خلفه العثمانيّون على الإسلام، لا يمكن تجاهله.

---

١ - راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ٤٣٢ - ٤٣٣؛ فريدون باي، مجموعة منشآت السلاطين، (استنبول،١٢٧٤) ص ٥٠٠ وما يليها.

٢ - راجع: بولس، التحوّلات، مرجع سابق، ص ٣١٩ - ٣٢٠؛ و LAMMENS H., *LA SYRIE, PRÉCIS HISTORIQUE*, II, PP. 61.

فلمّا وصل الأتراك في فتوحاتهم إلى الآستانة في أواخر القرن الخامس عشر، كانت قد انفتحت في أوروبّا ثلاثة أبواب للمدنيّة الحديثة: الأوّل فتحه مارتينُس لوثرُس في ثورته على الكنيسة والبابا[1]، والثاني فتحه غوتمبرغ[2] في اختراعه حروف الطباعة، والثالث فتحه كولومبس[3] في اكتشافه أميركا. وبينما كانت هذه "الأنوار المدنيّة" الغربيّة تستمرّ في التقدّم والارتقاء، كان الشرق الأدنى يتخبّط في الظلمات، فيهبط من دركة إلى أخرى... فقد أخّرت الإسلام والمسلمين شعوب آسيويّة همجيّة، دخلت هذا الدين العربيّ، ولم يدخل في نفوسها إلاّ القليل القليل من فضائله. فظلّت على فطرتها الهمجيّة[4]...

وبنهاية الدولة العثمانيّة في العام ١٩١٨، يطرأ تحوّل أساسيٌّ آخر في تاريخ الإسلام، إذ ينتقل من عهود الخلافة والأمبراطوريّات، إلى عهود الدول الحديثة.

---

١ - راجع: الجزء السادس عشر من هذه الموسوعة.

٢ - **غوتمبرغ** GUTENBERG (١٤٠٠ - ١٤٦٨): ألمانيّ، اخترع الطباعة بالأحرف المنفصلة.

٣ - **كريستوفر أو خريستوف كولومبس** COLOMB (١٤٥١؟ - ١٥٠٦): بحّار رائد، وُلد في جنوى إيطاليا وتوفّي في إسبانيا، مكتشف أميركا، أبحر من بالوس ٣ آب (أغسطس) ١٤٩٢ ووجهته بلاد الهند عن طريق الغرب فوصل إلى شواطئ سان سالفادور ١٢ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٤٩٢.

٤ - راجع: بولس، التحولات، مرجع سابق، ص ٣٢٠ - ٣٢١؛ الريحاني أمين، كتاب "النكبات"، ص ١٠٧ - ١١٥ و١٢٨ - ١٢٩.

الفَصلُ الثّامِن

فِي نظَامِ الدُّوَل

المُنعَطَف الحَدِيث؛

فكـــــرَةُ القوميّة العربيّة؛

نشُـــوء المَذاهِب؛ المذَاهب والدوَل؛

الوهّابيّة؛

أهل السنّة اليوم؛ الدّينُ والـدّولة عند أهلِ السنّة.

المُنعَطَف الحَدِيث

كان سقوط الدولة العثمانيّة، عقب انتصار الحلفاء على ألمانيا سنة ١٩١٨، منعطفًا جذريًّا في مسار التاريخ الإسلاميّ. فمنذ ذلك التاريخ، لم يعد هنالك خلافة، لا شرعيّة، ولا مُصادرة. فلأوّل مرّة في تاريخ الإسلام، لا يكون هنالك دعاءٌ لرمز، هو خليفة للرسول ﷺ على الأرض. بل أصبح الدّعاء، في كلّ دولة، لرئيس الدولة. وهذا ما ليس من سنّة أهل السنّة في الإسلام. بيدَ أنّ ما حصل، كان أصعب ممّا يمكن رفضه. ففي هذا العالم، القرار للقوّة، والحلفاء كانوا الأقوى على مدى حربَين عالميّتَين، بعدهما، بدأت مرحلة جديدة بكليّتها، تختلف تمامًا عمّا قبلها، لتسود هذا الشرق الذي يتوسّط آسية وأفريقية وأوروبّة: الشرق الأوسط... حيث تحوّلت الولايات إلى دول، وتحطّمت الخلافات والسلطنات والمماليك.

وهنا، بات أهل السنّة يعانون التناقض بين ما هو كائن، وما يجب أن يكون.

فإنّ "الدعوة المحمّدية لا تعرف الوطنيّة... بالمعنى الحديث. فوطن المسلم ليس له حدود جغرافيّة، هو يمتدّ مع العقيدة، بل هو في الحقيقة وطن معنويّ كما أنّ الدين أمر معنويّ. والمسلم أخو المسلم أينما كان، جاوره أم تباعدت به الأرض، والمسلم أينما حلّ في دولة إسلاميّة فقد حلّ في وطنه"[1].

---

١ ـ زين نور الدين زين، نشوء القومية العربية، (بيروت،١٩٧٢) ص ٤٣ ـ ٤٤.

هذا ما يجب أن يكون في مفهوم السنّة، أمّا ما هو كائن، فهو عكس ذلك تمامًا. إذ بموجب أنظمة الدول، ما عاد "بوسع المسلم" أن يكون "أينما حلّ في دولة إسلاميّة قد حلّ في وطنه..."

وباعتبار أهل السنّة، أنّ "ولاء المسلم لا يمكن أن يكون إلاّ للأمّة الإسلاميّة، فلا قيمة للوطن إلاّ بارتباطه بالدين، ولا ولاء لوطن إلاّ بقدر ولائه للإسلام"[1].

...ولكن، أين الواقع من هذا الذي يجب أن يكون؟! كيف يكون ما يجب أن يكون في عهد أنظمة الدول؟ فهناك فوارق عميقة جدًّا بين ما ينصّ عليه الشرع الإسلاميّ، وبين ما تنصّ عليه دساتير الدول الحديثة، إذ هناك تناقض شديد، بين فكرة الدولة الحديثة، وشريعة أهل السنّة ومفهومهم للدولة.

لهذا، فإنّ أهل السنّة، يعتبرون نشوء الدول الإسلاميّة في الشرق الأوسط على الشكل الذي نشأت عليه، إنّما هو من صنع الاستعمار الغربيّ. فقد كانت "المناطق العربيّة بنظرهم تحت سيطرة دولة واحدة هي الخلافة العثمانيّة، فكان العالم العربيّ كلّه يعيش في شبه وحدة ويخضع لشبه نظام واحد، وقانون، ولغة، وعقيدة، وأماني، وتاريخ، وآلام... كان يعيشها كلّها بشكل واحد. حصلت الحرب العالميّة الأولى، وهُزمت الخلافة، وتقاسم العالم المنتصر من الدول الحلفاء بلدان الجسم المريض... ولكن لم يكن بإمكانهم أن يغيّروا ما حصل، أملاً بأن يأتي يوم آخر يكون أبرك من هذا اليوم، وظروف أحسن من هذا الظرف، لعلّ الله يُحدث بعد ذلك أمرًا"[2].

---

١ ـ الصالح الشيخ صبحي، النظم الاسلاميّة، ص٢٥٥.

٢ ـ خالد الشيخ حسن، مرجع سابق، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

فكـــــــــرَةُ

القوميَّة العرَبيَّة

كان المسلمون، قبل انهيـار الدولـة العثمانيّـة، قـد بـدأوا يميلـون إلـى مبدأ القوميّـة العربيّة، على اعتبار وجوب التحرّر، على أساسه، مـن النير العثمـانيّ، والإبقـاء علـى الوحدة الإسلاميّة السنيّة. ومـع انهيـار الدولـة العثمانيّـة، مثلمـا انهـارت، وحلول نظـام الدول مكانها، على يد الاستعمار، فقد تحوّل الهدف من العروبة والقوميّة العربيّة، إلـى وحدة لم تعد موجودة، وإلى استعادة نمط الخلافة. ذلك أنّ الإسلام باعتبارهم، "هـو فـي الواقع ديانة القوميّة العربيّة... وإنّ هذَين المفهومَيـن: الإسـلام والقوميّـة العربيّـة، همـا واحد. في السياسة يقولون إنّ الإسلام يمثّل شطرًا كبيرًا من العروبة، وليس هذا سـوى تساهل من قبل الساسة، في الواقع لا فرق بين الاثنَين، ويجـب أن يكـون الأمـر كذلـك. ولا بدّ للوحدة من أن تأتي يومًا"[١]. "وإذا قال أحدنا الجامعة العربيّة، فإنّما يعنـي جامعـة إسلاميّة روحهـا العروبـة، وإذا قـال الجامعـة الإسلاميّة، فإنّمـا يعنـي عربيّـة روحهـا الإسلام، وكلّ قـول ينـابذ هـذا القـول خطـأ. وكـلّ نزعـة تخـالف هـذه النزعـة شـعوبيّة خسيسة"[٢] فالإسلام "هو من صلب العروبة، وإنّه لا معنى للقوميّة العربيّة إلاّ أنّهـا نـواة الأمّة الإسلاميّة"[٣].

---

١ ــ فـرّوخ عمـر فـي THEODOR HNF, ERZICHUNGSWESEN: *GESELLSCMAFT UND-POLITIK DES LEBANON*, OMAR FARROOKH BERTELSMANN UNIVERSIALSVERLAG, (1970) INTERVIEW DRE. DOCTEUR

٢ ـ مظهر د. اسماعيل، مجلة المقتطف، نيسان (إبريل) ١٩٤٥.

٣ ـ المغفور له الملك فيصل بن عبد العزيز في أوّل خطاب له لدى منظّمة الأمم المتّحدة عندما كان وزيرًا للخارجيّة في المملكة. النصّ في: سلسلة القضايا اللبنانيّة ـ الحلقة ٢١ ـ ملاحظات حول مشروع ورقة عمل المؤتمر الاسلاميّ، نيسان (إبريل) ١٩٧٧، ص ١٩ ـ ٢١.

بيدَ أنّ فكرة العروبة، التي يهدف أهل السنّة من خلالها إلى إعادة الأصـول لعهود الخلافة الإسلاميّة، تصطـدم بمعوقـات كبرى، ليس أقلّهـا أنّ الأسـباب الأساسـيّة التـي أوصلت المسلمين الأقدمين إلى مـا وصلـوا إليـه مـن قـوّة ومجـد، فـي صـدر الإسـلام، وصنعت منهم أبطالاً وعمالقة، في ميادين الحرب والسياسة، هي أسباب غير متوافـرة بكاملها لدى الشعوب العربيّة والمستعربة في الزمـن الحـاضر[1]. ومـن دون تعـداد تلـك الأسباب، فمن الواضح أنّ مسألة عودة عهود الوحدة الإسلاميّة الشرق أوسطيّة في ظلّ قيادة خليفيّة، لا تبدو قريبة المنال في الوقت الحـاضر، حيـث يتـوزّع المسـلمون السـنّة على مجمل دول الشرق الأوسط، مشكّلين أكثريّتها المطلقة، وهم على أربعة مذاهب.

نشـــوء

المذاهب

يُسـمّى العلـم الـذي يعنـى بالشـريعة الإسـلاميّة علـم الفقـه. ولفظـة فقـه تعنـي الفهـم والإدراك. وهـو العلـم الـذي وضـع أصولـه الإمـام الشـافعيّ (٧٦٨ ــ ٨٢٠م). والعلم الذي يُعنى بغيره من العلـوم يُطلـق عليـه لفظـة علـم، وتعنـي المعرفـة بالشـيء. وسُمّي الفقه فقهًا لأنه يتطلّب قدرًا كبيرًا مـن الموهبـة العقليّـة وحسـن الإدراك... وإنّ الغاية من الفقه بنظـر الشـافعيّ، وبنظـر زملائـه مـن الفقهـاء، هـي تنظيـم العلاقـة بيـن الإنسان وخالقه: وهي العبادات؛ وبين الإنسان نفسه وسـائر النـاس: وهـي المعـاملات. فالفقه من هذه الناحية يشـمل علـم الدين (اللاّهوت)، وعليـه فـإنّ الفقهـاء ظهـروا قبـل علماء الدين زمنيًّا.

---

١ ـ بولس، التحولات، مرجع سابق، ص٣٦٨.

يتناول علم الفقه الشامل أحكام الفروض الدينيّة والعبادات كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ، كما يتناول وضع القوانين الجزائيّة والمدنيّة، حتّى إنّه يتعدّى هذه الأمور فيتناول قوانين السلوك والأخلاق والآداب العامّة. وهكذا يقسّم الفقه كلّ أعمال الإنسان إلى حلال وحرام، وإلى ما يقع في درجات متفاوتة بين الفئتَين من الأعمال. والحلال قد يكون فرْضًا نصّ عليه القرآن الكريم، أو أوجبته السنّة، أو فعلاً مستحبًّا ورد في السنّة. وإلاّ فيكون العمل مكروهًا أو حرامًا. ثمّ هناك طائفة أخرى من الأعمال المباحة، وهناك المباح[1]...

قبْل الشافعيّ، كانت قد برزت شخصيّتان في حقلَي الفكر والدين، في خضمّ تضارب الآراء الفقهيّة في الإسلام، هما: الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت (٦٩٩ ـ ٧٦٧) في الحقل الفكريّ، والثاني هو مالك ابن أنس (٧١٨ ـ ٧٩٦) في الحقل الدينيّ.

كان أبو حنيفة مولًى من أصل فارسيّ، نشأ في الكوفة، دون أن يكون في بادىء أمره فقيهًا أو قاضيًا، بل كان تاجر حرير. أمّا مالك بن أنس، فقد كان فقيهًا وعالمًا دينيًّا في المدينة. وهكذا فقد كان أبو حنيفة عالمًا يُعنى بالنظريّات، وأمّا مالك فعالمٌ دينيّ يمارس القضاء. وقد نشأ حول كلٍّ من هاتَين الشخصيّتَين حلقة من طلاّب العلم. وكانت حلقة مالك أوسع من حلقة أبي حنيفة. علمًا بأنّ أحدًا منهما لم يضع مذهبًا خاصًّا به. حتّى إنّ صاحب المدرسة العراقيّة، أبا حنيفة، لم يضع كتابًا في الفقه، بل كلّ ما حُفظ عنه وانتشر من آراء فقهيّة، كان عن طريق طلاّبه، وأشهرهم أبو يوسف، الذي أصبح قاضيًا عند الرشيد، وله كتاب "الخراج". وأصبح مذهب أبي حنيفة معروفًا بالمذهب الحنفيّ، وهو أوّل المذاهب السنيّة الأربعة، وقد احتلّ المرتبة الأولى بينها.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، مرجع سابق، ص٢٤٠ ـ ٢٤١.

أمّا مالك أنس، فقد وضع كتابًا بعنوان "الموطأ" وهي أولـى محـاولات وضـع دليـل مختصر في الفقـه بيـن أيـدي المسـلمين، يعبّر عـن وجهـة نظـر أهـل المدينـة، موطـن الصحابة، حيث نشأ الحديث.

وممّا ميّز المذهبَين، أنّ المذهب الحنفيّ قد اعتمد القياس والرأي، بينمـا المذهـب المالكيّ اعتمد الحديث. ذلك أنّ أبا حنيفـة لـم تكـن لـه صلـة بالمدينـة المنـوّرة ليتـأثّر بالحديث والسنّة، بـل كـان، بحكم موطنـه البعيـد عـن موطـن السـيرة والحديـث، يـأخذ بالاستحسان والقياس، لخير المجتمع ونفعه.

"واشتدّت المنافسة بين المدرسة العراقيّة (الحنفيّة) والمدرسـة الحجازيّـة (المالكيّـة) وكثرت الاتّهامات الباطلـة التـي لا نجـد لهـا مـبرّرًا. فـإنّ المذهـب الحنفـيّ كـان يضـع شروطًا محدّدة معيّنة للرأي، كما أنّ المذهب الحجـازيّ كـان يضـع شـروطًا للحديـث. وبالرغم من أنّ المذهب الحنفيّ كان يبدو أكثر تحرّرًا وانطلاقًـا مـن المذهـب المـالكيّ، فإنّ الفروقات بين المذهبَين قليلة ودقيقة بحيث أنّه يصعب على الدارس أن يكتشفها"[1].

وجاء الشافعيّ، فأقرّ أوّلاً الرأي القائل بأنّ "القرآن غير المخلـوق هـو كـلام اللـه، فهو المصـدر الأخير للتشريع كلّـه، وبـأنّ مصـادر الشـريعة الأخـرى ثانويـّة ومكمّلـة وأكثرها مستمدٌّ من المصدر الأوّل. فكـلّ قـانون وكـلّ شـرع مصـدره القـرآن نصًّـا أو ضمنًا". ثمّ رأى أنّه ينبغي تدارس القرآن وتلاوة صلواتـه باللّغـة العربيّـة دون سـواها، بالاستناد إلى آياته[2]. حتّى إنّه كان يعتبر كلّ عقد زواج يعقـده الرجـل المسـلم لا يكـون

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربيّ، مرجع سابق، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

٢ ـ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢)؛ ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (الرعد:٣٧)؛ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨)

مكتوبًا باللغة العربيّة، لاغيًا. بينما كان أبو حنيفة يجيز تلاوة الفاتحة باللغة الفارسيّة. واعتبر الشافعيّ السنّة، بعد القرآن الكريم، من مصادر التشريع. والسنّة هي المأثور عن حياة الرسول ﷺ وأخلاقه وأعماله غير التي جاءَ نصوص عنها في القرآن. وحدّد السنّة بأنّها "التصرّف أو السلوك الأمثل الذي سلكه النبيّ ﷺ في حياته". إلاّ أنّه خالف المالكيّ في أخذ سنّة الصحابة والتابعين للانتفاع بها في وضع الأحكام. ووضع تشديدات صارمة للتثبُّت من صحّة كلّ حديث يُنسب إلى الرسول ﷺ قبل وضعه في كتابه والأخذ به. وبذلك أصبح الحديث الثابت يرتقي إلى مرتبة الوحي والآية القرآنيّة، مع فارق أساسيّ، وهو "أنّه في القرآن الكريم يتكلّم الله سبحانه، أمّا في السنّة، فالذي يتكلّم هو النبيّ ﷺ والقرآن الكريم وحيّ معنى وحرفًا، وأمّا السنّة فوحيّ معنى فقط"[1].

وهكذا فقد كان للشافعيّ الفضل في وضع الحديث الثابت في مرتبة القرآن كمصدر من مصادر التشريع الرئيسيّة. وله يعود الفضل في وضع أصول علم الحديث وأحكامه، وهو العلم الذي أصبح مستقلاً بذاته.

وممّا يجدر ذكره، أنّ الإمام محمّد بن إدريس الشافعيّ الذي وُلد في غزّة سنة ٧٦٨، وانتقلت به أمّه إلى مكّة المكرّمة، وهو طفل، إثر موت أبيه، كان قرشيًّا من ذريّة عبد المطّلب بن عبد مناف، وتلقّى علومه الأولى في الدين بمسجد الحرام، والعربيّة وعاداتها في مضارب القبائل البدويّة. ثمّ تعمّق في العلوم الدينيّة على يدَي ابن أنس، في المدينة، ثمّ انتقل إلى اليمن حيث عمل في مركز رسميّ، وحيث اتُّهم بأنّه "علويّ" وكاد أن يُعدم، ولكنّه عرف كيف يردّ عنه التهمة أمام الرشيد، فعفا عنه بعد أن

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، نشر دار الثقافة (بيروت، ١٩٦٩)، ص٢٤٢.

كان قد جلبه أسيرًا إلى بغداد. وفي بغداد، اتّصل بطلاّب أبي حنيفة وأتباعه. ثم عاد إلى الحجاز، ومعه حِمل جَمل من الكتب، وشغل مدرّسًا في الحرم المكّيّ لمدّة تسع سنوات ثمّ انتقل إلى بغداد، بهدف وضع مذهبه الجديد. وهناك، رأى فيه الناس إمامًا غير منازع، وعالمًا دينيًا رائدًا. وقد اتّسعت حلقة طلاّبه بسرعة، وكان من بينهم حنفيّون ومالكيّون على السواء، إضافة إلى الجماعة التي لم تكن بعد قد اعتنقت مذهبًا معيّنًا. وفي بغداد، أصدر الشافعيّ النسخة الأولى لِما أصبح يُعرف في ما بعد بـ "الرسالة" التي تُعتبر أقدم مؤلّف يُعنى بالفقه الإسلاميّ. وكانت الرسالة سببًا في انتشار صيته إلى أقاصي العالم الإسلاميّ. وأضاف شهرة إلى شهرته قيامه بزيارة الأقطار الشاميّة، حيث كان له أصدقاء. ولسببٍ نجهله، غادر الشافعيّ إلى مصر عام ٨١٥، حيث استُقبل من قِبَل المصريّين بما لم يُعهد من الاحتفاء والتكريم في مثل هذه الحالات. وقضى الشافعيّ آخر خمس سنوات من عمره في الفسطاط، حيث كان يلقي دروسه في مسجد عمرو بن العاص، قبل أن توافيه المنيّة بعد مرض قصير، سنة ٨٢٠.[١]

وكان من جملة تلامذة الإمام الشافعيّ في بغداد: ابن حنبل، الذي كان من أشدّ الطلاّب تحمّسًا للشافعيّ. ويُروى عن ابن حنبل قوله: "لقد ظلّ الفقه علمًا مغلقًا حتّى جاء الشافعيّ بمفتاح له". ويُروى أيضًا عن ابن حنبل أنّه قال: "يُروى عن النبيّ ﷺ: ـ أنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مئة سنة مَن يقرّر لها دينها ـ... فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المئة الأولى. ويكون الشافعيّ على رأس المئة الأخرى".

١ ـ للاستزادة من سيرة الإمام الشافعي، راجع: ابن أبي حاتم، أدب الشافعي ومناقبه، نشر عبد الغني عبد الخالقة (القاهرة ١٩٥٣)؛ الرازني محمد بن عمر، مناقب الإمام الشافعي (القاهرة، ١٢٣٧)؛ حتّي فيليب، صانعو التاريخ العربي؛ أبو الفرج ابن الجوزي، تلبيس ابليس، نشر محمد منير الدمشقي (القاهرة،١٩٥٠).

غير أنّ ابن حنبل عدل عن المذهب الشافعيّ، واستقلّ برأيه وأصبح في ما بعد مؤسّس المذهب السنّي الرابع: المذهب الحنبليّ.

وهكذا أصبح لأهل السنّة، مذاهبهم الأربعة، وكلّ منها معروف بالمذهب ١ ـ الحنفيّ، ٢ ـ المالكيّ، ٣ ـ الشافعيّ، ٤ ـ الحنبليّ[1].

المذَاهب[1] والدُّول

يمكن اختصار تعريف انتشار المذاهب السنيّة الأربعة بالتالي:

المذهب الحنفيّ: وهو مذهب أهل الرأي أو أهل الكوفة. يوسّع هذا المذهب باب الإجماع إذ لا يجعله مقتصرًا على أهل المدينة. ويقول أيضًا "بالقياس": أي تطبيق حلّ سابق على حالة طارئة مماثلة. كما يقبل "الاستحسان" أي جواز اختيار أوفق الحلول. وقد ساد هذا المذهب في آسية في المنطقة التركيّة، وكذلك في الهند والصين. نسبةُ معتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدّر بحوالى ٤٢ بالمائة، وبذلك يكون أتباع المذهب الحنفيّ أكثر أهل السنّة عددًا نسبة إلى المذاهب الأربعة.

المذهب المالكيّ: وهو مذهب أهل الحديث، أو أهل المدينة. وقد انتشر هذا المذهب في أفريقية باستثناء منطقة مصر السفلى. ويقبل مالك "الرأي" شرط أن يستند إلى إجماع علماء المدينة، كما يقول بمبدأ "الاستصلاح" أي وضع مصلحة الأمّة أو

---

١ ـ للإستزادة في شؤون المذاهب، راجع: موسوعة الفقه الإسلاميّ (موسوعة عبد الناصر) القاهرة، صدر منها ١١ مجلدًا؛ بدوي عبد الرحمن، مذاهب الإسلاميّين (بيروت، ١٩٧٣)؛ مغنيّة جواد، الفقه على المذاهب الخمسة؛ السيّد السابق، فقه السنّة، دار الكتاب العربي (بيروت،١٩٧٧ ـ طبعة ثالثة) ٣ مجلّدات؛ الدواليبي معروف، المدخل إلى علم أصول الفقه طبعة خامسة (بيروت،١٩٦٥)

منفعتها في الاعتبار إذا كان ظاهر السنّة مخالفًا لها. نسبةُ مُعتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدّر بحوالى ١٩ بالمائة من المجموع.

المذهب الشافعيّ: وقد انتشر في أفريقية الشرقيّة والاستوائيّة وأندونيسيا ومصر السفلى. وهو يضع للإجماع شروطًا: أن يكون بين علماء فترة معيّنة وعلى نقطة معيّنة مع عدم مخالفة القرآن والسنّة. وهو بذلك يقيّد "الرأي"، إلاّ أنّه يعترف بمبدأ الواقعيّة العمليّة، الذي أدّى في ما بعد إلى تطوّرات لم تكن متوقّعة، مثل الاعتقاد بكرامات أولياء الله الصالحين، والتوّجه إليهم بالدعاء والتعبّد. نسبة معتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدّر بحوالى ٢٨ بالمائة من المجموع.

المذهب الحنبليّ، أو **مذهب ابن حنبل**: وهو المصلح المُخْلص المولود في بغداد سنة ١٨٥٥، والذي ينتمي إلى مذهبه عدد من كبار المفكّرين والمصلحين، كما يقتدي به الوهّابيّون في شبه الجزيرة العربيّة. ويدعو هذا المذهب للعودة إلى القرآن والسنّة. أمّا "الرأي" فلا يُعمل به إلاّ عند الضرورة القصوى على ألاّ يخالف "السلف الصالح" الذين هم خير ممثّلي الإسلام في أجياله الأولى.

نسبةُ معتنقي هذا المذهب من أهل السنّة تقدَّر بحوالى ٢ بالمئة فقط. وهي أقلّ نسبة عدديّة بين معتنقي المذاهب الأربعة.

***

هذه المذاهب، مُعترف بها لدى جميع أهل السنّة، رغم ما بينها من فروق تتعلق في الغالب بمنهجيّة البحث. وعلى ذلك فلا ضير على المؤمن الذي ينتمي إلى مذهب

معيّن، أن يختار الحلّ الذي يراه في مذهب آخر، شرط أن يقبل هذا الحلّ بكلّيته، وليس مجتزأ[١].

وكان قد ظهر في منتصف القرن الثامن الميلاديّ، مذهب آخر، لم يعش طويلاً، هو المذهب الأوزاعيّ، نسبة إلى الفقيه المشترع عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيّ[٢] المولود في بعلبك سنة ٧٠٧، والمتوفّي في بيروت سنة ٧٧٤. وقد عارض الأوزاعي الإمام مالكًا وأبا حنيفة، واستنكر ما أقرّاه من تدابير صارمة بحقّ المشركين، نظير قطع أشجارهم وهدم كنائسهم وتخريب بيوتهم[٣]. وقد بقي المذهب الفقهيّ الذي وضعه الأوزاعيّ شائعًا في سورية نحوًا من قرنَين، قبل أن يكتسحه المذهب الحنفيّ والفقه الشافعيّ. وتوثّق أيضًا مذهب الأوزاعيّ في الأندلس والمغرب نحوًا من أربعين سنة، ثمّ حلّ محلّه المذهب المالكيّ[٤].

الوهّابيّة

الوهّابيّة مذهب إسلاميّ ظهر في نجد وما حواليها، يُنسب إلى محمّد بن عبد الوهّاب بن سليمان التميميّ النجديّ (١١١٥ - ١٢٠٦هـ/١٧٠٣ - ١٧٩١).

وُلد محمّد بن عبد الوّهاب في مدينة العُيَيْنة بنجد التي كان والده قاضيها. نشأ وتربّى على العلم منذ نعومة أظافره، فأخذ الفقه الحنبليّ عن والده الذي كان من علماء

---

١ ـ مبارك يواكيم، موجز عن الإسلام، منشورات الندوة اللبنانية (بيروت،١٩٧٥) ص٥٦ ـ ٥٩، ١٠٤.

٢ تختلف الآراء حول أصل هذا النسب، بين قائل بأنّه نسبة إلى قبيلة أوزاع اليمنيّة، إلى قائل بأنه نسبة إلى ضاحية دمشقية، راجع: ياقوت، معجم البلدان، ١: ٤٠٣؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب (القاهرة،١٣٥٧) ص ٧٤ ــ ١٧٥؛ الطبري، ٣: ٢٥١٣؛ أبو الفداء، ٢: ٧.

٣ ـ الطبري، اختلاف الفقهاء، نشر JOSEPH SCHACHT (LEYDEN,1933)، ص ١٢١، ١٤١.

٤ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، ٢: ١٠٧، ١٨٣ ـ ١٨٤.

الحنابلة، واشتغل منذ صغره في مطالعة كتب التفسير والحديث والعقائد ثمّ رحل وسافر إلى بلاد شتّى طلبًا للعلم. منها البصرة، فتتلمذ على أحد علمائها، وهو الشيخ محمّد المجموعيّ، حيث تعلّم منه العلوم الدينيّة. وتوجّه من البصرة إلى إيران، فتوقّف في أصفهان، وفيها انشغل بتحصيل العلم والأدب والفقه على علمائها. ثمّ عاد إلى نجد، ومنها سافر إلى البصرة والشام، وانبرى لمطالعة كتب ابن تيمية. سافر إلى حجّ البيت اللّه الحرام، وبعد أداء مناسك الحج، توجّه نحو المدينة، وفيها أنكر استغاثة الناس واستعانتهم بالنبيّ ﷺ عند قبره. وقال: إنّ هذا العمل مخالف للتوحيد، ويجب أن يكون طلب الحاجة من اللّه فقط. ثمّ عاد إلى بلدته العُيَيْنة، فبثّ فيها العلم، ودعا الناس إلى التوحيد ونبذ البدع، وإلى التمسك بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ. ثمّ قصد الدرعيّة من نواحي نجد، حيث قبل أميرها محمّد بن سعود دعوته وآزره وأعانه بكلّ ما يملك، فاتّخذ محمّد الدّرعيّة موطنًا له، وقام بتعليم أهلها القرآن، وتعريفهم أُصول ومبادئ مذهبه الذي اعتنقه عدد منهم، فأمرهم بالجهاد ضد أهل نجد. وبموازرة محمّد بن سعود، تغلّب على نجد والقبائل القاطنة هناك وفتحوا الرياض، فاتّخذها آل سعود عاصمة لهم منذ ذلك الحين.

فوّض محمّد عبد الوهّاب إدارة شؤون الناس إلى عبد العزيز بن محمّد بن سعود، وتفرّغ للعبادة والتدريس حتّى وفاته. وقد جعل ابن عبد الوهّاب مفهوم التوحيد وكلمة لا إله إلاّ اللّه بشكل لا يبقى معه موحّد إلاّ مَن اعتقد بهذه العقيدة. فهو يقول: لا إله إلاّ اللّه نفي وإثبات، إذ إنّ القسم الأوّل منها يدلّ على نفي جميع المعبودات. والقسم الثاني يثبت العبادة للّه وحده لا شريك له. ويقول أيضًا: إنّ أهمّ ما أمر به اللّه تعالى هو التوحيد حيث أنّ المقصود منه هو حصر العبادة على اللّه. وإنّ أقبح ما نهى اللّه عنه هو الشرك. وقد ترك محمّد بن عبد الوهّاب مؤلفات هي: "كتاب التوحيد" وقد شرحه

العلاّمة عبد الرحمن بن حسن وسمّاه "فتح المجيد"؛ وكتاب "كشف الشبهات"، و"مختصر زاد المعاد"، و"عقيدة الفرقة الناجية"، و"أوثق عرى الإيمان"، و"مسائل الجاهليّة"، و"تفسير شهادة لا إله إلاّ اللّه"، و"فضل الإِسلام"، و"نصيحة المسلمين"، و"مفيد المستفيد" وغير ذلك من التصانيف.

يرى الوهّابيون أنّ الإنسان لا يكون موحّدًا ولا مسلمًا إلاّ أن يترك أُمورًا معيّنة: لا يتوسّل إلى اللّه، جُلّ جلالُه، بأحد أنبيائه وأوليائه، فإن فعل، وقال، مثلاً، يا أللّه أتوسّل إليك بنبيّك محمّد ﷺ أن ترحمني، فقد سلك مسلك المشركين، واعتقد ما اعتقدوا؛ لا يقصد قبر النبيّ ﷺ للزيارة، ويشدّ إليه الرّحال، ولا يتمسّح به، ولا يمسّه، ولا يدعو اللّه، ويصلّيّ للّه عنده، ولا يُقيم عليه بناءًا ولا مسجدًا، ولا ينذر له؛ لا يطلب الشفاعة من النبيّ ﷺ لأنّ اللّه، وإن أعطاها لمحمّد ﷺ وغيره من الأنبياء، ولكنّه نهى عن طلبها منهم، ويجوز للمسلم أن يقول: يا اللّه شفّع فيّ محمّدًا ﷺ، ولا يجوز أن يقول: يا محمّد اشفع لي عند اللّه، ومَن طلب الشفاعة من محمّد ﷺ كان كمَن طلبها من الأصنام؛ لا يحلف بالنبيّ ﷺ، ولا يناديه، ولا ينعته بسيّدنا، كأن يقول بحقّ محمّد، ويا محمّد، وسيّدنا محمّد، بل الحلف بالنبيّ ﷺ وغيره من المخلوقات هو الشرك الأكبر الموجب للخلود بالنار؛ النذر لغير اللّه، والاستغاثة بغير اللّه شرك؛ زيارة القبور، وتشييد القباب والبناء عليها، وتزيينها، وتجصيصها، والزخرفة والكتابة عليها، وتنويرها بالمصابيح والشموع، كلّ ذلك شرك؛ لا وجود لزيارة القبور في أرضهم، وقد سوّوا جميع القبور مع الأرض، وجعلوا الروضة النبويّة المنوّرة الباقية حتّى اليوم بشكل، لا يقدر أحد معه أن يقترب منها.

إهتمّ الوهابيّون بإزالة البدع وبالرجوع بالدين الإسلاميّ إلى أهله، وأعلنوا أنّهم في أصول الدين سالكون منهج إبن تيمية وابن قيّم الجوزيّة والحافظ الذهبيّ وابن كثير

وابن رجب، الذين سار على أثرهم محمّد بن عبد الوهاب. وفي رسالة للشيخ عبدالله إبن الإمام محمّد بن عبد الوهّاب جاء أنّ ما أُشيع حول الوهابيّة هو محض افتراء، كالقول بتفسير القرآن برأيهم، وعدم الأخذ بالحديث إلاّ ما يوافق أفهامهم، وعدم وضع الرسول ﷺ في مكانته اللائقة، واستبعادهم لآراء علماء المسلمين وإتلافهم لمؤلّفات أهل المذاهب. ويعلّق على ذلك بقوله: إنّ كلّ ما رُميت به الحركة ليس صحيحًا، لأنّ الوهابيّين يعتقدون أنّ النبيّ ﷺ أعلى رتب المخلوقين على الإطلاق، وهم لا ينكرون كرامات الأولياء ما دامت متمشّية مع الطريقة الشرعيّة، وأنّ هدم بعض القبور ومنها بيت السيّدة خديجة وبعض الزوايا كان بقصد صرف الناس عن الإشراك بالله.

وبينما يعتقد أتباع سائر المذاهب الإسلاميّة بأن ّ كلّ مَن نطق بالشهادتَين فهو مسلم، ودمه وماله محفوظان مصونان، تقول الوهابيّة: إنّ القول بدون عمل لا قيمة له ولا اعتبار، ولذلك فكلّ من نطق بالشهادتَين، ويستعين بالأموات لقضاء حوائجه، فهو مشرك. ويعمل الوهّابيّون بظاهر الآيات والأخبار تبعًا لرأي ابن تيميّة، ولم يعتقدوا بالتأويل. ويثبتون للّه جُلَّ جلالُه جهة استنادًا إلى ظاهر بعض الأحاديث والآيات، ويعتقدون بوجود أعضاء وجوارح له كالمجسّمة، ويرون أنّ أوّل الأنبياء نوح، وخاتمهم محمّد بن عبد اللّه ﷺ. ويتبّع الوهّابيّون الإمام أحمد بن حنبل في الفروع. ولا يُشكلون على أحد من أتباع المذاهب الأربعة، بيد أنّهم يطعنون بأتباع المذاهب الأخرى، من قبيل: مذهب الزيديّة، والغلاة. وكتاب "التوحيد" مليء بالآيات والأحاديث التي تؤكّد على فكرة الألوهيّة وضرورة هيمنتها على كلّ تفكير. وفي باب حماية المصطفى لجانب التوحيد يؤكّد على سدّ كلّ طريق يوصل إلى الشرك، ومن ذلك أنّه ينهي عن الغلوّ في قبور الصالحين حتّى لا تصبح أوثانًا تُعبد من دون الله، مؤيّدًا ذلك بالأسانيد من الكتاب والسنّة.

إنتشرت الدعوة الوهّابيّة في بلاد الحجاز واليمن[١]، وغدا المذهب الوهّابيّ هو المذهب الرسميّ في الحجاز. وتنفّذ فتاوى علمائه من قِبَل حكومة المملكة العربيّة السعوديّة. وقد تأثّر بالدعوة الوهّابيّة رجال الإصلاح في مصر[٢] والعراق وسوريا وتونس والجزائر[٣] وسواها، وعُرف مَن والوها في قلب الجزيرة العربيّة بـ"أهل التوحيد"، و"إخوان مَن أطاع الله". وبنتيجة الجهود المكثّفة للوهابيّين، فقد انتشر المذهب الوهّابيّ في أفريقيا والهند[٤]، كما أنّ كثيرين من مسلمي زنجبار اعتنقوا هذا المذهب[٥].

---

١ ـ روّج العقائد الوهابيّة في اليمن الإمام الشوكانيّ المتوفّى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م.

٢ ـ استرعت اهتمام الشيخ محمّد عبده في مصر نقطتان تشكّلان أساس المذهب الوهّابيّ. وهما: محاربة البِدَع، وفتح باب الاجتهاد. وكان تلميذه وصديقه سيّد رشيد رضا صاحب مجلّة "المنار" يعينه في هذا السبيل.

٣ ـ سافر الإمام السنوسيّ من الجزائر إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ، وسمع هناك بالدّعوة الوهّابيّة فقبلها، وبعد عودته إلى الجزائر، جهد في بثّها هناك.

٤ ـ مؤسّس المذهب الوهابيّ في الهند هو السيّد أحمد خان (١٨١٧ ـ ١٨٩٨) الملقّب بـ"سَير SIR" الذي انتمى إلى المذهب الوهّابيّ سنة ١٨٢٢م، أثناء سفره لأداء فريضة الحجّ، وقام بالدعوة في البنجاب، وأسّس حكومة تشبه حكومة الوهّابيّين، وعلا كعبه إلى الحدّ الذي هدّد فيه شمال الهند، وكان يهاجم علماء الدين والخطباء في تلك المناطق ويعلن الجهاد ضدّ كلّ مَن لا يعتنق مذهبه. وكان يسمّي الهند: "دار الكفر".

٥ ـ الإسكندراني محمّد، موسوعة الأديان الميسّرة، مرجعه: الزركلي خير الدين، الأعلام؛ موسوعة الأديان في العالم؛ الموسوعة العربيّة الميسّرة؛ المنجد في الأعلام.

أهلُ السنّة اليَوم

نسبةُ أهل السنّة، إلى عموم عدد المسلمين في العالم، الذي يبلغ اليوم حوالى النصف مليار نسمة، هي بحدود التسعين بالمئة.

فالمسلمون السنّة يمثّلون الأغلبيّة الساحقة اليوم في الإسلام. أمّا ما يجب الانتباه إليه، فهو أنّ الشعوب العربيّة، لا تمثّل إلاّ أقليّة في العالم الإسلاميّ، رغم ما تتمتّع به من منزلة دينيّة لا مثيل لها بين الشعوب الإسلاميّة. فالإحصاءات عامّة تفيد بأنّ عدد المسلمين في أفريقية يتجاوز المائة وخمسين مليونًا، وفي أوروبّا عدّة ملايين، منها ما يزيد على المليونَين في يوغوسلافيا وحدها، وبضعة عشر ألفًا في بولندا والمجر، وما يقرب من مليونين في الأميركتين. وأكثر الجماعات الإسلاميّة كثافة موجود في شبه القارّة الهنديّة، بين باكستان وبنغلادش، يُضاف اليهم حوالى ٦٠ مليونًا ما زالوا يعيشون في الجمهوريّة الهنديّة. وعدد مسلمي أندونيسيا يتجاوز المائة مليون، وهي تُعدّ من أكبر الدول الإسلاميّة عددًا في الوقت الحاضر. ثمّ تأتي مجموعات ثلاث، تكاد تكون متساوية في الأعداد، هذه المجموعات هي: الأتراك، ثلثهم فقط يعيش في تركيا؛ والفرس، ربعهم في إيران؛ والعرب، وهم منتشرون في المنطقة التي تحمل اسمهم بين العراق وبلاد المغرب أو بين الخليج والمحيط. ويُقدّر عدد هذه المجموعات الثلاث، مجتمعة، بحوالى ٩٠ مليون نسمة من المسلمين. أمّا مجموعة الإفريقيّين، غير العرب، المتأثّرين بعروبة الإسلام، فهي تتراوح بين الخمسين والثمانين مليونًا. ويُقدَّر مجموع عدد المسلمين في أوروبّا الشرقيّة (الجمهوريّات السوفياتيّة سابقًا: روسيا، أذربيجان، جيورجيا، أرمينيا،

كازخستان، تركمانستان، أوزبكستان، تدجيكستان، بلاد القرغيز، مونغوليا) بحوالى أربعين مليونا[1].

في البلاد العربيّة، أغلبيّة العرب مسلمة (٩١ بالمائة) وأغلبيّة المسلمين تنتمي إلى المذهب السنيّ (٨٤ بالمائة من جملة سكّان البلاد العربيّة و٩١ بالمائة من مجموع المسلمين). أمّا بقيّة المسلمين غير السنّة، فقد وصل عددهم في منتصف ثمانينات القرن العشرين إلى حوالى ١٥ مليون نسمة (٨ بالمائة من جملة سكّان البلاد العربيّة) معظمهم من المسلمين الشيعة (١٠،٧ ملايين ، أو ٥،٧ بالمائة من مجمل سكان البلاد العربيّة) يليهم العلويّون (١،٥ مليون) والخوارج الإباضيّة (١،٣ مليون) والدروز الموحّدون (مليون نسمة).

أمّا غير المسلمين، في البلاد العربيّة، فعددهم (١٥،٦ مليون، أو ٨،٢ بالمائة). في مقدّمة هؤلاء المسيحيّون على اختلاف كنائسهم، ويبلغ عددهم حوالى ثمانية ملايين (حوالى ٥ بالمائة من مجمل سكان البلاد العربيّة) وجلّهم من العرب، يأتي بعدهم اليهود، (٣،٦ ملايين أو ١،٩ بالمائة من مجمل سكان البلاد العربيّة) والديانات القبليّة الزنجيّة في جنوب السودان (٤ ملايين ـ أقل من ٢ بالمائة).

بالإستناد إلى هذه الإحصاءات التي جرت في منتصف ثمانينات القرن العشرين، يكون عدد المسلمين السنّة في البلاد العربيّة في هذه الحقبة حوالى ١٦٠ مليون نسمة[2].

---

١ ـ مبارك يواكيم، مرجع سابق، ص ٧٤ ـ ٧٦.

٢ ـ راجع: إبراهيم د. سعد، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة (بيروت،١٩٨٨) ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠؛ السمّاك محمّد، الأقليّات بين العروبة والإسلام، مرجع سابق، ص ٢٠ ـ ٢٤.

وفي جميع البلدان العربيّة، ما عدا لبنان[1]، نظريًا، دين رئيس الدولة الإسلام. وجميع رؤساء الدول العربيّة، من أهل السنّة، أو ممّن اتّبعوا السنّة عند تولّيهم باستثناء لبنان. إلاّ أنّ تطبيق الفقه في هذه الدول، يتفاوت في النسبة بين بلد وآخر.

الدِّينُ والدَّولَة
عندَ أهلِ السنَّة

يقول باحث مصريّ متخصّص في الشؤون الإسلاميّة: إنّ ضرورة أن تكون "الدولة" في محيط الجماعة الإسلاميّة ومجتمعها "دولة إسلاميّة" فتلك حقيقة لا يجوز أن يماري فيها العقلاء. صحيح أنّ القرآن الكريم لم يجعل "الدولة" فريضة من فرائضه الإسلاميّة، وأنّ الإسلام لم يجعلها أصلاً من أصول الإيمان ولا ركنا من أركان الإحسان، لكنّ هذا القرآن الكريم فرض على المسلمين من الفرائض والواجبات الدينيّة ما يستحيل عليهم القيام به والوفاء بحقوقه إذا هم لم يُقيموا دولة الإسلام، ويحقّقوا إسلاميّتها"[2].

أمّا عن مصدر الدّولة، فيوضّح هذا البحّاثة السنّي المتخصّص في الشؤون الإسلاميّة، "أنّ الأمّة الإسلاميّة هي مصدر "الدولة" تختار رأسها وأجهزتها الحاكمة بواسطة "أهل الاختيار" الذين يتحدّدون ويتعيّنون وفق المصلحة وأعراف الزمان والمكان، وعلى النحو الذي يقترب بـ "الوسيلة" من تحقيق "الغايات"، وهي ـ أي الأمّة

---

١ ـ يبقى موضوع فلسطين خارج المعادلة.

٢ ـ عمارة محمد، "جريدة الحياة" عدد ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩١، العدد ١٠٥٢٠.

الإسلاميّة ـ مصدر "تقنين" النصوص و"التشريع" لما لا نـص فيه بواسطة "أهل الحلّ والعقد ـ أهل الاجتهاد"، وهي الرقيبة والحسيبة على الدولة وعلى مؤسّساتها وعلى سياستها، وصاحبة السلطة والسلطان في المحاسبة والتغيير، فهي ـ أي الأمّة ـــ مصدر السلطات، المحكومة بمقاصد الشريعة وحدودها، فالحكم ـ في الدولة الإسلاميّة ـ هو لله، بواسطة الأمّة، المستخلفة من الله، وليس حكم فرد أو حزب يحتكر النيابة أو الخلافة عن الله".

ويبني البحّاثة نفسُه هذا الرأي "السنّي" في "مصدر الدولة" على أنّ الرسول ﷺ ترك أمر اختيار الخليفة للأمّة، وكذلك عمر بن الخطّاب[1].

والفكر الإسلاميّ السنّي، يرفض مبدأ أن تكون قيادة الدولة بأيدي رجال الدين، أو بأيدي الفقهاء، وينأى بالدولة الإسلاميّة عن قيادة من سمّاهم بـ"الكهّان": "فإذا كانت دولة الرسول ﷺ ولّت أبا سفيان ابن حرب وابنه معاوية ولم تولّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ولا أبا ذرّ الغفاريّ وهو الذي قال عنه النبيّ ﷺ: ـ ما أظلّت الخضراء ولاأقلّت الغبراء رجلاً أصدق لهجة من أبي ذرّ ـ، ووضعت لواء القتال في الحكم واختيار الولاة شاهدًا على أنّ ولاية المفضول ـ دينيًّا ـ إذا كان أفضل في مهامّ ولايته، هو دليل على انتفاء الكهانة واحتكار الكهنوت من منهج الحكم والسياسة في دولة الإسلام... فلو أنّ الخلافة، بعد انتقال الرسول ﷺ إلى بارئه، أُعطيت لعليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه ـ وهو الجدير بها ـ لظلّ الحكم السياسيّ في بيت النبوّة الدينيّة. ولمثّل ذلك، في يوم من الأيّام ولدى البعض، شبهة احتكار السلطة في منهج الإسلام وتطبيقاته. لكنّ الصحابة، على ما يبدو،

---

١ ـ راجع: الجزء السابع عشر من هذه الموسوعة.

وضعوا هذا الأمر... في اعتبارهم وهم يخرجون بالخلافة، يومئذ، من بيت النبوّة ومن الفرع الهاشمي".

إنّ هذا الموقف، يميّز أهل السنّة عن سواهم من المسلمين، الذين يدمجون بين الإمامة والقيادة أي: بين رئاسة الدولة ورئاسة الدين. ويستند هذا الرأي إلى ما اعتبره ابن خلدون من أنّ "لأهل النظر، مكانهم، لكنّه ليس مكان أهل التنفيذ"[1].

وعليه، فإنّ "المنهج الإسلاميّ (السنّيّ) أقام العلاقة الطبيعيّة الوثقى بين الدين، وبين الدولة، على النحو الذي لا تناقض فيه ولا تضاد، وعلى النحو الذي لا كهانة فيه ولا كهنوت...". فإنّ دولة أهل السنّة، "دولة إسلاميّة لا للشريعة الإسلاميّة ـ وهي وضع الهيّ ـ الحاكميّة في سياستها. وهي في الوقت ذاته دولة مدنيّة، لأنّها اجتهاد إسلاميّ في الفروع، محكوم فيها بمقاصد الشريعة الإسلاميّة وحدودها. فهي بهذا الوضع، نموذج فريد تفرّد به المنهج الإسلاميّ في الجمع والتأليف بين ما يمكن، ويجب جمعه وتأليفه من سمات وقسمات الأقطاب التي نظر إليها منهج الحضارة الغربيّة كمتقابلات ومتناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها، فضلاً عن المؤاخاة والتساند والتوفيق"[2].

***

مهما يكن من أمر اعتبار الدولة، نظريًّا، لا شكّ في أنّ الأمّة، التي تعتبرها النظريّة، مصدر الدولة، ليست "الدولة" أو "الدول" نتيجة مشيئتها، ذلك أنّ الأمّة

---

١ ـ ابن خلدون، المقدمة، ص ٤٥٠ ـ ٤٥١.

٢ ـ عمارة محمّد، مصدر سابق.

الإسلاميّة، تتوق إلـى يـوم كـانت قيـادة الإسـلام واحـدة، ودولـة الإسـلام واحـدة. ومـن الواضح أنّ استحالة التوصّل إلى تحقيق رغبة الأمّة، تعود فـي أساسـها، إلـى الصـراع على القيادة والسلطة والرئاسة و... الخلافة. ذلك الصراع الذي قسم، في البداية، دولـة الإسلام إلـى اثنتَيـن، ومـع اسـتمراره صـار الإسـلام دولاً تعـدُّ بالعشـرات. فالأمّـة الإسلاميّة، كسواها من الأمـم، رغباتهـا شـيء، وواقـع أمرهـا شـيء آخر. ومـا دامـت السلطة هدفًا عند البشر، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، تبقـى رسـالات الأنبيـاء حنينًا إلى ماضي وجودهم، وتوقًا إلى تحقيق رسالاتهم. ويدغدغ السلطويّون في النـاس حنينهم وتوقهم، ليتسلّطوا. ويبقى المستقبل بيد الله.

الفَصلُ التَّاسِع

رسَالَةُ الإسلامَ

الخُلاصَة:

عُمُوم الرِّسَالة؛ الغَايَةُ مِنهَا؛

التَّشريعُ الإسلاميّ؛ القوَاعِدُ العَامَّة؛

التقليدُ والتعصُّب؛ جُمودُ التَّشريع.

الخُلاصَة

رأينا أن ننهي هذا البحث عن أهل السنّة بمقدّمة وضعها السيّد السابق، لكتابه "فقه السنّة"[1]، لِما وجدنا فيها من المعاني المعبّرة، والتي يصعب على غير المتعمّق في الدين الإسلاميّ الحنيف أن يجيد بمثلها.

يقول السيّد السابق:

أرسل اللّه محمّدًا ﷺ بالحنيفيّة السمحة، والشريعة الجامعة، التي تكفل للناس الحياة الكريمة المهذّبة والتي تصل بهم إلى أعلى درجات الرقيّ والكمال. وفي مدى ثلاثة وعشرين عامًا تقريبًا، قضاها رسول اللّه ﷺ في دعوة الناس إلى اللّه، تمّ له ما أراد من تبليغ الدين وجمع الناس عليه.

عُمُـوم الرِّسَالة

لم تكن رسالة الإسلام رسالة موضعيّة محدّدة، يختصّ بها جيل من الناس دون جيل، أو قبيل دون قبيل، شأن الرسالات التي تقدّمتها، بل كانت رسالة عامّة للناس

---

١ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، دار الكتاب العربي (بيروت، لا ـت.)، ص ٨.

جميعًا إلى أن يرث الأرض ومَن عليها؛ لا يختصر بها مصر دون مصـر، ولا عصـر دون عصر.

قال اللّه تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[1].
وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّه وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّه وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2]. وفي الحديث الصحيح: "كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ في قومه خاصّة، وبُعثت إلى كلّ أحمرَ وأسود"[3].

وممّا يؤكّد على عموم هذه الرسالة وشمولها ما يأتي:

١ ـ أنّه ليس فيها ما يصعب على الناس اعتقاده، أو يشقّ عليهم العمل به، قال اللّه تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [4] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[6]. وفي البخاري من حديث أبي سعد المقبُريّ أنّ رسول اللّه ﷺ قال: "إنّ هذا الدّين يُسْر، ولن يشادّ الدين أحدٌ إلاّ غلبَه"[7].

---

١ ـ الفرقان: ١.

٢ ـ الأعراف: ١٥٨.

٣ ـ صحيح مسلم: ٥٢١.

٤ ـ من سورة البقرة: ٢٨٦.

٥ ـ من سورة البقرة: ١٨٥.

٦ ـ بعض من آية ٧٨ من سورة الحجّ.

٧ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ٨ ـ ٩.

وفي مسلم مرفوعًا: "أَحَبُّ الدينِ إلى اللّهِ الحنفيّةُ السمْحةُ".

٢ ـ أنّ ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالعقائد والعبادات، جاء مفصّلاً تفصيلاً كاملاً، وموضّحًا بالنصوص المحيطة به، فليس لأحد أن يزيد فيه أو ينقص منه، وما يختلف باختلاف الزمان والمكان، كالمصالح المدنيّة، والأمور السياسيّة والحربيّة، جاء مجملاً، ليتّفق مع مصالح الناس في جميع العصور، ويهتدي به أولو الأمر في إقامة الحقّ والعدل[1].

٣ ـ أنّ كلّ ما فيها من تعاليم إنّما يُقصد به حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال، وبديهيّ أنّ هذا يناسب الفِطرَ ويساير العقول، ويجاري التطوّر ويصلح لكلّ زمان ومكان. قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[2]. وقال جلّ شأنه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

---

١ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ٩.

٢ ـ الأعراف: ٣٢، ٣٣.

٣ ـ الأعراف، بعض من اية ١٥٦، وآية ١٥٧.

الغَايَـــةُ

مِنهَـــا

والغاية التي ترمـي إليها رسـالة الإسـلام، تزكيـة الأنفس وتطهيرها عـن طريـق المعرفـة باللّـه وعبادتـه، وتدعيم الروابـط الإنسـانيّة وإقامتهـا علـى أسـاس مـن الحـبّ والرحمة والإخاء والمساواة والعدل، وبذلك يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة، قـال اللّـه سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[1]، وقال اللّه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]. وفي الحديث: "أنا رحمةٌ مُهداة"[3].

التَّشريـــعُ

الإسلامـيّ

والتشريع الإسلاميّ ناحية من النواحي الهامّة التي انتظمتها رسالة الإسلام، والتـي تمثّل الناحية العمليّة من هذه الرسالة.

لم يكن التشريع الدينيّ المحـض ـ كأحكـام العبـادات ـ يصـدر إلاّ عـن وحـي اللّـه لنبيّه ﷺ، من كتاب أو سنّة، أو بمـا يقـرّه عليـه مـن اجتهـاد. وكـانت مهمّـة الرسـول لا تتجاوز دائرة التبليغ والتبيين ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾[4].

---

١ ـ الجمعة: ٢.

٢ ـ الأنبياء: ١٠٧.

٣ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١٠.

٤ ـ النجم: ٣، ٤.

أمّا التشريع الذي يتّصل بالأمور الدنيويّة، من قضائيّة وسياسيّة وحربيّة، فقد أمر الرسول ﷺ بالمشاورة فيها، وكان يرى الرأي فيرجع عنه لرأي أصحابه، كما وقع في غزوتَي بدر وأُحد، وكان الصحابة - رضي اللّه عنهم - يرجعون إليه ﷺ ويسألونه عمّا لم يعلموه، ويستفسرونه في ما خفي عليهم من معاني النصوص، ويعرضون عليه ما فهموه منها، فكان أحيانًا يقرّهم على فهمهم، وأحيانًا يبيّن لهم موضع الخطأ في ما ذهبوا إليه[1].

القَوَاعِدُ العَامَّـة

والقواعد العامّة التي وضعها الإسلام، ليسير على ضوئها المسلمون، هي:

١ - النهي عن البحث في ما لم يقع من الحوادث حتّى يقع؛ قال اللّه تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا لاَ تَسأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرآنُ تُبْدَ لكُمْ عفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[2]. وفي الحديث: أنّ النبيَّ ﷺ نهى عن الأُغلوطات، وهيَ المسائلُ التي لم تقع[3].

٢ - تجنُّب كثرة السؤال وعُضَلِ المسائل، في الحديث: "إنّ اللّهَ كره لكم قيلَ وقال وكثرةَ السؤالِ، وإضاعةَ المالِ". وعنه ﷺ: "إنّ اللّه فرضَ فرائضَ فلا تُضيّعوها وحدّ حدودًا فلا تعتَدوها، وحرَّم أشياءَ فلا تنتهكُوها، وسكت عن أشياء رحمةً بكم من غير

---

١ - السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١١.

٢ - المائدة: ١٠١.

٣ - السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١١.

نسيان فلا تبحثوا عنها". وعنه ﷺ أيضًا: "أعظمُ الناسِ جُرمًا، مَن سألَ عن شيء لم يحرّم فحُرِّم من أجل مسألتِه"[1].

٣ ـ البعد عن الاختلاف والتفرّق في الدين، قال اللّه تعالى:

﴿وإنّ هذهِ أمّتُكُمْ أمّةً واحِدَةً وأنا ربُّكُمْ فاتّقُونِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿واعتَصِمُوا بحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا ولا تفرّقُوا﴾[3]. وقال تعالى: ﴿وأطِيعُوا اللّه ورَسُولَهُ ولا تنازعُوا فتفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿إنّ الّذِينَ فرّقُوا دِينَهُمْ وكانُوا شِيَعًا لسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وكانُوا شِيَعًا﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ولا تكُونُوا كالّذِين تفرّقُوا واختَلفُوا مِنْ بعْدِ ما جاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُولَئِكَ لهُمْ عذابٌ عظِيمٌ﴾[7].

٤ ـ ردّ المسائل المتنازع فيها إلى الكتاب والسُنّة. عملاً بقول اللّه تعالى:

﴿فَإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللّهِ والرّسُول﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وما اختَلَفْتُمْ فيه مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إلَى اللّهِ﴾[9]، وذلك لأنّ الدين قد فصّله الكتاب،

---

١ ـ السيد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص١١.

٢ ـ المؤمنون: ٥٢.

٣ ـ من الاية ١٠٣ من سورة آل عمران.

٤ ـ من الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

٥ ـ من الآية ١٥٩ من سورة الأنعام.

٦ ـ من الاية ٣٢ من سورة الروم.

٧ ـ ال عمران: ١٠٥.

٨ ـ من الاية ٥٩ من سورة النساء.

٩ ـ من الاية ١٠ من سورة الشورى.

قال اللّه تعالى: ﴿ونزّلنا عليْكَ الْكِتَابَ تبيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى ورحْمَةً وبُشْرى للمُسْلِمِين﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[2]، وبيّنته السنّة العمليّة، قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيهِمْ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[4].

وبذلك تمَّ أمره ووضحت معالمه، قال اللّه تعالى: ﴿الْيَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[5].

وما دامت المسائل الدينيّة قد بُنيت على هذا النحو، وما دام الأصل الذي يُرجع إليه عند التحاكم معلوما، فلا معنى للاختلاف ولا مجال له، قال اللّه تعالى:

﴿ذلك بِأَنَّ اللَّه نزّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[6] وقال تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[7].

على ضوء هذه القواعد، سار الصحابة ومن بعدهم من القرون المشهود لها بالخير، ولم يقع بينهم اختلاف، إلاّ في مسائل معدودة، كان مرجعه التفاوت في فهم

---

١ ـ النحل: ٨٩.

٢ ـ من الآية ٣٨ من سورة الأنعام.

٣ ـ من الاية ٤٤ من سورة النحل.

٤ ـ من الآية ١٠٥ من سورة النساء.

٥ ـ من الآية ٣ من سورة المائدة.

٦ ـ البقرة: ١٧٦.

٧ ـ النساء: ٦٥.

النصـوص وأنّ بعضهم كـان يعلـم منهـا مـا يُخفـى علـى البعـض الآخـر. فلمّـا جـاء أئمّة المذاهـب الأربعــة تبعـوا ســنن مَـن قبلهـم، إلاّ أنّ بعضهـم كــان أقـرب إلــى السنّة، كالحجـازيّين الذيـن كثر فيهـم حملــة السـنّة ورواة الآثــار، والبعـض الآخـر كان أقرب إلى الرأي كالعراقيّين الذيـن قلّ فيهم "حفظـة الحديـث" لتنـائي ديـارهم عن منزل الوحي[1].

التقليـــــدُ والتعصُّب

بذل هؤلاء الأئمّة أقصى ما في وسعهم في تعريف الناس بهذا الدين وهدايتهـم بـه، وكانوا ينهون عن تقليدهم ويقولون: لا يجوز لأحد أن يقول قولنـا مـن غير أن يعـرف دليلنا، صرّحوا أنّ مذهبهم هو الحديث الصحيح؛ لأنّهـم لـم يكونـوا يقصـدون أن يقلَّدوا كالمعصوم ﷺ، بل كان كلّ قصدهم أن يُعينوا الناس على فهم أحكام اللّــه. إلاّ أنّ النــاس بعدهم قد فترت هممهم، وضعفت عزائمهـم وتحرّكـت فيهـم غريـزة المحاكـاة والتقليـد، فاكتفى كلّ جماعة منهم بمذهب معيّن ينظر فيـه، ويعـوّل عليـه، ويتعصّـب لـه، ويبـذل كلّ ما أوتي من قوّة في نصرته، وينزل قول إمامــه منزلـة قـول الشــارع، ولا يسـتجير لنفسـه أن يفتـي فـي مسـألة بمـا يخـالف مـا اسـتنبطه إمامـه، وقـد بلـغ الغلـو فـي الثقــة بهؤلاء الأئمّة حتّى قال الكرخي: كلّ آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مـؤوّل أو منسوخ[2].

---

١ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١٣.

٢ ـ المرجع السابق.

وبالتقليد والتعصّب للمذاهب فقدت الأمّة الهداية بالكتاب والسنّة، وحدث القول بانسداد باب الاجتهاد، وصارت الشريعة هي أقوال الفقهاء، وأقوال الفقهاء هي الشريعة، واعتُبر كلّ مَن يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعًا لا يوثَق بأقواله، ولا يعتدّ بفتاويه. وكان ممّا ساعد على انتشار هذه الروح الرجعيّة، ما قام به الحكّام والأغنياء من إنشاء المدارس، وقصر التدريس فيها على مذهب أو مذاهب معيّنة، فكان ذلك من أسباب الإقبال على تلك المذاهب، والانصراف عن الاجتهاد؛ محافظةً على الأرزاق التي رتّبت لهم! سأل أبو زرعة شيخه البلقيني قائلاً: ما تقصير الشيخ تقيّ الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آلته؟ فسكت البلقيني، فقال أبو زرعة: فما عندي أنّ الامتناع عن ذلك إلاّ للوظائف التي قدّرت للفقهاء على المذاهب الأربعة وأنّ مَن خرج على ذلك لم ينله شيء من ذلك، وحرم ولاية القضاء، وامتنع الناس عن إفتائه، ونُسبت إليه البدعة، فابتسم البلقيني ووافقه على ذلك[1]!

وبالعكوف على التقليد، وفقد الهداية بالكتاب والسنّة، والقول بانسداد باب الاجتهاد وقعت الأمّة في شرّ وبلاء ودخلت في جحر الضب الذي حذّرها رسول اللّه ﷺ. كان من آثار ذلك أن اختلفت الأمّة شيعًا وأحزابًا، حتّى إنّهم اختلفوا في حكم تزوج الحنفيّة بالشافعي، فقال بعضهم: لا يصحّ، لأنّها تشكّ[2] في إيمانها، وقال آخرون: يصحّ قياسًا على الذمّيّة. كما كان من آثار ذلك انتشار البدع، واختفاء معالم السنن، وخمود الحركة العقليّة، ووقف النشاط الفكريّ، وضياع الاستقلال العلميّ، الأمر الذي أدّى إلى ضعف

---

١ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١٣ ـ ١٤.

٢ ـ لأنّ الشافعيّة يجوزون أن يقول للمسلم: أنا مؤمن إن شاء اللّه.

شخصيّة الأمّة، وأفقدها الحياة المنتجة، وقعد بها عن السير والنهوض، ووجد الدخلاءُ بذلك ثغرات ينفذون منها إلى صميم الإسلام[1].

مرّت السنون، وانقضت القرون، وفي كلّ حين يبعث اللّه لهذه الأمّة مَن يجدّد لها دينها، ويوقظها من سباتها، ويوجّهها الوجهة الصالحة، إلاّ أنّها لا تكاد تستيقظ حتّى تعود إلى ما كانت عليه، أو أشدّ ممّا كانت. وأخيرًا انتهى الأمر بالتشريع الإسلاميّ، الذي نظّم اللّه به حياة الناس جميعًا، وجعله سلاحًا لمعاشهم ومعادهم، إلى دركة لم يسبق لها مثيل؛ ونزل إلى هوّة سحيقة، وأصبح الاشتغال به مفسدة للعقل والقلب، ومضيعة للزمن، لا يفيد في دين اللّه، ولا ينظّم من حياة الناس[2].

وهذا مثال لِما كتبه بعض الفقهاء المتأخّرين:

> عرّف ابن عرفة الإجارة فقال: بيع منفعة ما أمكن نقله، غير سفينة ولا حيوان، لا يعقل بعوضٍ غير ناشئ عنها، بعضه يتبعض بتبعيضها، فاعترض عليه أحد تلاميذه، بأنّ كلمة بعض تنافي الاختصار، وأنّه لا ضرورة لذكرها، فتوقّف الشيخ يومَين، ثمّ أجاب بما لا طائل تحته.

---

١ - السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١٤.

٢ - المرجع السّابق.

جُمـــود التَّشريع

وقف التشريع عند هذا الحدّ ووقف العلماء لا يستظهرون غير المتون، ولا يعرفون غير الحواشي وما فيها من إيرادات واعتراضات وألغاز، وما كُتب عليها من تقريرات، حتّى وثبت أوروبّا على الشرق تصفعه بيدها، وتركله برجلها. فكان أن تيقّظ على هذه الضربات، وتلفّت ذات اليمين وذات الشمال. فإذا هو متخلّف عن ركب الحياة الزاحف، وقاعد بينما القافلة تسير. وإذا هو أمامَ عالمٍ جديد، كلّه الحياة والقوّة والإنتاج؛ فراعه ما رأى، وبهره ما شاهد، فصاح الذين تنكّروا لتاريخهم وعقّوا آباءهم، ونسوا دينهم وتقاليدهم: أنْ ها هي ذي أوروبّا يا معشر الشرقيّين، فاسلكوا سبيلها، وقلّدوها في خيرها وشرّها، وإيمانها وكفرها، وحلوها ومرّها، ووقف الجامدون موقفًا سلبيًّا، يكثرون من الحوقلة والترجيع، وانطووا على أنفسهم، ولزموا بيوتهم، فكان هذا برهانًا آخر عن أنّ شريعة الإسلام لدى المغرورين لا تجاري التطوّر ولا تتمشّى مع الزمن[1].

ثمّ كانت النتيجة الحتميّة، أن كان التشريع الأجنبيّ الدخيل هو الذي يهيمن على الحياة الشرقيّة، مع منافاته لدينها وعاداتها وتقاليدها، وأن كانت الأوضاع الأوروبّيّة هي التي تغزو البيوت والشوارع والمنتديات والمدارس والمعاهد، وأخذت موجتها تقوى وتتغلّب على كلّ ناحية من النواحي حتّى كاد الشرق ينسى دينه وتقاليده ويقطع الصلة بين حاضره وماضيه، إلاّ أنّ الأرض لا تخلو من قائم للّه بحجّة، فهبّ دعاة الإصلاح يهيبون بهؤلاء المخدوعين بالغربيّين، أن: خذوا حذركم، وكفّوا عن دعايتكم، فإنّ ما عليه الغربيّون من فساد الأخلاق لا بدّ وأن ينتهي بهم إلى العاقبة السوآى،

---

١ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١٥.

وأنّهم ما لم يصلحوا فطرَهم بالإيمان الصحيح ويعدلوا طباعهم بالمثل العليا من الأخلاق، فسوف تنقلب علومهم أداة تخريب وتدمير، وتتحوّل مدنيّتهم إلى نار تلتهمهم وتقضي عليهم القضاء الأخير ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ. وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1]. ويصيحون بهؤلاء الجامدين دونكم لنبع الصافي، والهدى الكريم: لنبع الكتاب وهدى السنّة، خذوا منهما دينكم، وبشّروا بهما غيركم، فعند ذلك تهتدي بكم هذه الدنيا الحائرة، وتسعد بكم هذه الإنسانيّة المعذّبة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[2]. وكان من فضل اللّه أن استجاب لهذه الدعوة رجال بررة، وتلقّتها قلوب مخلصة، واعتنقها شباب وهبها أعزّ ما يملك من الأموال والأنفس[3].

... فهل أذنَ اللّه لنوره أن يشرق على الأرض من جديد؟ وهل أراد للإنسان أن يحيا حياة طيّبة، يسودها الإيمان والحبّ والإحسان والعدل؟ هذا ما تشهد به الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾[4]. ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[5].

---

١ ـ الفجر: ٦ ـ ١٤.

٢ ـ الأحزاب: ٢١.

٣ ـ السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١٥ ـ ١٦.

٤ ـ الفتح: ٢٨.

٥ ـ فصلت: ٥٣؛ راجع: السيّد السابق، فقه السنّة، مرجع سابق، ص ١٦.

NOBILIS

بيروت